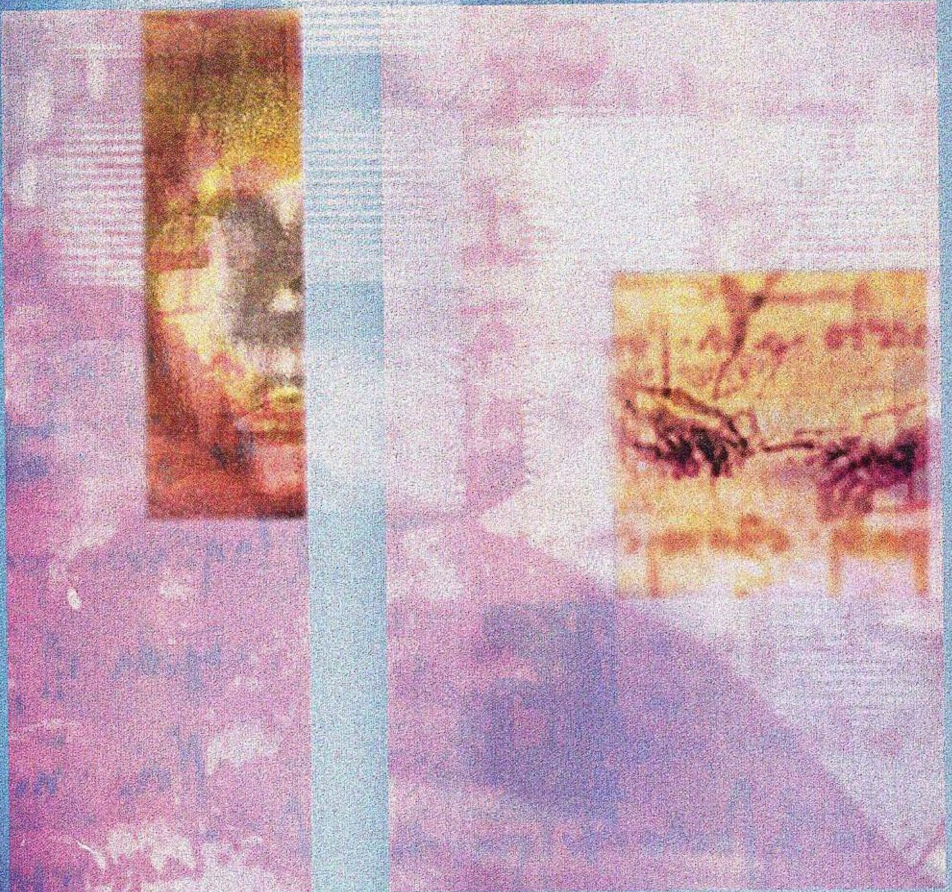
مسابقة سامي الدروبي
للترجمة (٢٠١٠م)
الجائزة الثانية



وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

# المعجزات



تأليف: جفري آش

ترجمة: محمود منقذ الهاشمي

# المعجزات

تصميم الغلاف

شادي العيسمي

مسابقة سامي الدروبي
للترجمة ٢٠١٠م
الجائزة الثانية

# المعجــزات

تأليف: جفري آش
ترجمة: محمود منقذ الهاشمي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

العنوان الأصلي للكتاب:

Miracles

by

**Geoffrey Ashe**

**London Sphere Books, 1979**

المعجزات / تأليف جفري آش؛ ترجمة محمود منقذ الهاشمي .- دمـــشق : الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م .- ٢٣٢ ص؛ ٢٤ سم.

حائز على الجائزة الثانية ضمن مسابقة سامي الدروبي للترجمة ٢٠١٠م

١- ٢٩١,٢ آ ش م          ٢- ٢٠٠,١ آ ش م          ٣- العنوان

٤- آش          ٥- الهاشمي

مكتبة الأسد

# مقدمة الترجمة العربية

بقلم: محمود منقذ الهاشمي

«ليس الخُرْقُ في تكذيبك مالم تستبن لك بعدُ جليّته، دون الخرق في تصديقك ما لم تقم لديك بيّنته، بل عليك الاعتصام بحبل التوقّف، وإن أزعجك استنكار ما يعيه سَمْعك، ما لم تبرهَن لك استحالته. فالصواب أن تسرّح أمثال ذلك إلى بقعة الإمكان، مالم يَزِدْ عنه قائم البرهان. واعلم أن في الطبيعة عجائب، وللقوى العاليَة فعالية، وللقوى السافلة المنفعلة اجتماعات على غرائب».

ابن سينا

«إن أي إيمان، إذا لم يكن إيماناً عقلياً، فإنما هو انتهاك للكرامة الإنسانية».

آرنولد توينبي

«لقد اتّبع الإنسان العقلانية إلى الحدّ الذي حوّلت فيه العقلانية نفسها إلى نفي كامل للعاقلية».

إريك فروم

الإنسان موهبته العقل. ولم يخطئ أرسطو حين رأى أن العقل خصيصة إنسانية غير موجودة عند الحيوان، وتوهّم الجاحظ خطأ أرسطو لأنه لم يميّز بين**العقل** و**الذكاء**. فقد رأى في كتابه «الحيوان» بعد ملاحظة بعض الحيوانات، ولا سيّما القرود، أن الحيوان يفكر ويتدرّب ويستعين بتفكيره على إشباع حاجاته، فظن ذلك عقلاً. ولكن «العقل» الذي يتميّز به الإنسان هو ملكة **الإحاطة** بالعالم بالفكر، خلافاً لـــ «الذكاء» الذي هو القدرة على **الاحتيال** على العالم بالفكر. والعقل أداة الإنسان للوصول إلى الحقيقة، والمعرفة الموضوعية – أي بغضّ النظرعن رغباتي ومخاوفي – معرفة الطبيعة ومعرفة الإنسان، ومعرفة المرء للمجتمع ولنفسه؛ ومن ثم فالتفكير النقدي قدرة يختصّ بها الإنسان. والذكاء وسيلي وهو أداة للاحتيال على العالم بنجاح أكبر، أي أن أفكّر كيف أحصل على هذا وذلك، وماذا أفعل لأحصل عليه. ولدى الحيوانات ذكاء احتيالي وهو ممتاز عند بعضها وفي الاختبارات حلّت قرود الشمبانزي ألغازاً لم يستطع أن يحلها الكثيرون من الناس. والعقل إنساني في ماهيّته، والثاني ينتمي إلى الجزء الحيواني من الإنسان. وللعقل صفة الشمولية، وإذا عاش المرء في أوهام حول قطاع من قطاعات الحياة، فإن قدرته على العقل تتقيّد أو تتضرّر، وبذلك ينكبح استخدامه للعقل فيما يتّصل بكل القطاعات الأخرى. ويؤكد فروم أن «العقل في هذه الناحية مثل الحب، وكما أن الحب توجّه يشير إلى كل الموضوعات ولا يتلاءم مع قَصْره على موضوع واحد، فإن العقل ملكة يجب أن تشمل كل العالم الذي يواجهه الإنسان»(١).

وبما أن الموضوع الذي يواجهنا الآن هو «المعجزات»، فالأسئلة التي تنشأ هي: كيف نعقلها؟ وهل يقنع العقل بموقف عدم المبالاة أو بالرفض أو

(١) راجع التمييز بين العقل والذكاء في كتاب إريك فروم، «**المجتمع السوي**»، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب – وزارة الثقافة – 2009 - ص ص 172 – 173.

القبول القطعيين من دون أي دليل؟ إن من شأن ذلك أن يكون وعياً زائفاً. ما فائدة العلم الجديد في فهم هذه الأمور؟ هل يساعدنا على فهمها أم يقدّم الدليل على بطلانها؟

ويتساءل المؤلف في الفصل الثاني من هذا الكتاب: «ولكن إذا كانت للعقل أية دلالة أو قيمة في كل الأحوال، فإنها تكمن في الوصول إلى الحقيقة؛ منهجَ التفكير السليم. وإذا لم يكن منهجَ الوصول إلى الحقيقة بل كان يخطئ في أكثر الأحيان، فما فائدته؟» إن المؤلف، وهو مؤرخ بارع في التمحيص والتدقيق، يدحض حجج الدوغمائيين السلبيين، الذين يرفضون الملاحظة، إلا إذا خضعت للقياس الكمي، ويرفضون الحادثة إلا إذا أمكن حدوثها في المختبر، أو إذا كانت قابلة للتكرار المنتظم. ويقدّم الأدلّة على إمكان حدوث الحوادث غير النظامية، ويبيّن أخطاء التفكير المعوجّ ويحلّل مغالطاته المنطقية، وتزييفه للواقع. ومن جهة أخرى، يبيّن للدوغمائيين الإيجابيين، الذين يسلّمون بالكثير من المعجزات لا لخبرة عاشوها، أو ملاحظات تنبّهوا إليها، بل لخضوعهم لسلطة عقيدة قطعية ورهبتها، بأن الحوادث الغريبة الكثيرة التي يظنونها معجزات ليست كذلك، وإنما هي أنواع من الحكايات، أو خدع بارعة، أو حوادث تنطوي على أسباب ملموسة، كالإيحاء الجماعي، والتنويم المغناطيسي، والهلوسة وما إلى ذلك. وحين يُطبق التعصّب الساذج والفهم المشترك الزائف والعلمي الكاذب على بعض الناس يتعذّر عليهم البحث في الواقع الملاحَظ. فالشرط الفكري للخوض في دراسة الإعجازي هو الابتعاد عن كلا النوعين، الإيجابي والسلبي، من الدوغمائية.

ويبدأ المؤلف بتعريف المصطلحات، ويدرس اشتقاقها اللغوي، ليصل إلى معانيها الاصطلاحية. فكيف يمكن أن ينكر المرء أمراً أو يقبله من دون معرفته؟ ويتوصل في بحثه إلى أن المعجزة، بالمعنى الاصطلاحي، هي الاستثناء المقدَّر من الله، أي الذي يحدث نتيجة خرق لقوانين الطبيعة، ويكون لهذا الخرق معنى. فهل من الممكن دراسة المعجزة علمياً وإلى أي حد يمكن أن تستند إلى العلم؟

أودّ في هذه المقدمة أن أشير على عجل إلى أن العلم يتطوّر بسرعة شديدة تفوق كثيراً سرعة تطوّر اللاهوت. ومن ذلك أنه بدلاً من أن تكون النظرية يقينيّة لأنها علمية، صارت الآن لأنها علمية تتوقّع النقد باستمرار وتقبل الدحض. فالنظرية منفتحة على الواقع الذي تفسّره، وهي تستمد منه الإثبات، وإذا انبثقت من الواقع معطيات تناقضها، أجرت الاختبارات والمراجعات والتعديلات. والنظرية العلمية، كالكائنات الحية، قابلة للموت، فيمكن أن يكذّبها الواقع تكذيباً قاتلاً. ومن ثم أصبحت رؤية العلم مرنة، بعد أن كانت صلبة.

وكان يُعتقد في النموذج الإرشادي القديم للعلم أن الأوصاف العلمية مستقلّة عن الملاحِظ وعن سيرورة المعرفة، فنمط تفكيره يستبعد ذات العارف وليس لديه أي مبدأ تأمّلي. وفي النموذج الإرشادي الجديد ليست الذات العارفة ادّعائية بل نسبية، فهي تعلن أنها تقدّم رأياً يتضمن إمكانية تأمل ذاتي، ومن ثم إمكانية تصحيح ذاتي. وتتضمن الوجود المتزامن لمستويين، مستوى الملاحظة، ومستوى تكامل الملاحظ مع ملاحظته.

وكان النموذج الإرشادي في العلم يقوم على الاعتقاد بأن المعرفة العلمية يمكن أن تحقّق اليقين المطلق والنهائي الحتمي. ويتبيّن في النموذج الإرشادي الجديد أن كل المفهومات والنظريات والاكتشافات محدودة وتقريبية. ولا يمكن للعلم أن يوفّر أي فهم كامل ونهائي للواقع، بل يقوم على مبدأ الاحتمالات، الاحتمال الأرجح والأبعد وغير المحتمل.

والمؤرخ الباحث جفري آش هو ابن هذا الموقف الجديد للعلم، فكيف في وسعه تطبيقه على المعجزات؟

إن العلم يتجاهل عمداً كل الخصائص والحوادث غير المشتركة التي لا يمكن التعبير عنها بمصطلحات كمية. وثمن التحويل الكمي هو الجهل بالفرادة والحوادث غير المنتظمة، وهي موجودة ولكنها ليست مجالاً للبحث العلمي. ولما كانت المعجزات استثناءات بالتعريف، وتقع خارج السير النظامي للطبيعة،

فهي خارج العلم حكماً. ولكن العلم لاينكر وجودها، لأنها تتمّ بالملاحظة، ولكنه لا يقدّم إثباتاً علمياً لها، لأنها لاتسير على قانون طبيعي. وعلى ذلك فإن كل ما يُزعم أنه معجزة، إذا أمكن أن يكون له تفسير طبيعي لا يكون معجزة أبداً. واستفادة المؤلف من العلم هي من منهجه النقدي، لا من إثباتاته. فهو يمحّص الظواهر التي تُنسب إلى المعجزات، ويصنّفها في أصناف مختلفة من حيث الصفة المميّزة والصّدقية، ويتفحّصها من كل زاوية. وعنصر الملاحظة والخبرة شديد الأهمية عنده. ومجال الدراسة واسع جداً، يمتدّ من العصر الأمومي الذي كان أحفلَ بالعجائب منَ العصر الأبوي الذي اتّسم بمعرفة القوانين وإدراك الاستثناءات، ويصل إلى العصر الحاضر. وفي العصر الأمومي لم تكن الحوادث الطبيعية معزولة عن الحوادث غير الطبيعية، لأنه لم تكن هناك معرفة بالقوانين. فمعرفة الاستثناءات حديثة نسبياً، وكانت مشروطة بالتقدم الذكوري.

وفي دراسته للإعجازي في مختلف الأديان يطوف بمعتقدات وعبادات كثيرة، وثنية وتوحيدية وتعدّدية، وقديمة وقروسطية وحديثة، ويتناول العودة إلى عبادة الإلهة الأنثى بأشكال جديدة، وينشده القارئ بكل ما هو عجيب وغريب. وعين المؤلف النقدية تدرس كل ما تقدّمه بأناة واعتدال. وفي دراسته للأديان الآسيوية يمّر مروراً سريعاً بـــ «كونفوشيوس» الذي «كان مفكراً واقعياً»، و«لاو – تزو» الذي كان الكون عنده «خلواً من الإعجازي»، والبوذا الذي كان خارج نطاق العجائب والمعجزات. ويروي قصة عن البوذا ذات دلالة. ففي إحدى المرات جاء إلى نهر بلغه أنه يعيش فيه يوغيّ شهير. وكان هذا اليوغي أخضع نفسه لمضاضات الصيام ومعاقبة الذات عشرين سنة، وصار يدّعي أنه يستطيع أن يسير على سطح النهر، فوقه تماماً إلى الطرف الآخر. فقال البوذا: يا له من تبديد للجهد، حين يستطيع أن يعبر بالمركب مقابل قطعة صغيرة من النقود!

ولكن يستهويه البحث في «اللامية» التي امتزجت فيها البوذية مع الأديان المحلّية التي يهيمن عليها الشامانات والسحرة، ويجد فيها مادة خصبة للتفكير

والتأمل في العجائب والمعجزات أو أشباه المعجزات. ويحلّل المعتقدات المريمية في القرون الوسطى، وما جرى لها من إحياء حديث، تحليلاً مفصّلاً. ويرى في اليهودية، وعلى نحو أكثر في المسيحية، وعلى نحو أقلّ في الإسلام ميداناً مهماً لدراسة الإعجازي. والمؤلف في كل الأحوال لا يسرف في تحميل الاحتمال أكثر مما يمكن أن يحتمل، ويظلّ حذراً ويتوقّع أن يرى غيره مآخذ في الاحتمال تستحقّ التفكير.

وكان المحلل النفسي «ك. غ. يونغ» أحد علماء النفس الذين تكررت الإشارة إليهم. وكان علم النفس التحليلي عنده، من أحد وجوهه، مواصلة لحجة فرويد التاريخية القائمة على المذهب الإنساني بأن كل البشر يشتركون في الصميم المشترك للإنسانية. وكان يونغ ذا اهتمام خاص بأنواع الأساطير والطقوس والأديان. واستخدم الأسطورة ببراعة وألمعية لفهم اللاشعور، وبنى بذلك جسراً بين الأسطوريات وعلم النفس بتوسّع أكثر من أي سلف من أسلافه. ولكنه أسرف في تحميل الإنسان بعض الأفكار الأسطورية وإسقاطها على كل البشر، ومنها مثلاً فكرة «الأنيمة» التي رأى المؤلف جفري آش أنها صيغة يونغ السيكولوجية للإلهة «ميوز» وأكثر بكثير، وإن كانت فكرة موحية.

ولم يقنع فروم بمجرد استخدام الماضي لفهم الحاضر، وفهم لا شعورنا، بل دعا إلى استخدام لا شعورنا مفتاحاً لفهم ما قبل التاريخ. ويقتضي هذا الأمر معرفة الذات بالمعنى التحليلي النفسي: إزالة الجانب الأكبر من مقاومتنا لإدراك لا شعورنا، فيخفّف بذلك صعوبة النفاذ من ذهننا الشعوري إلى عمق صميمنا.

وعندما نستطيع القيام بذلك، يمكن أن نفهم الناس الذين يعيشون في الثقافة ذاتها، وكذلك الذين يعيشون في ثقافة مختلفة كلياً، زماناً ومكاناً. وفائدة هذه الطريقة هي أن معرفتنا تكون أكثر استناداً إلى الإنسان الذي نعرفه، ونلاحظه، ونصحّح معرفتنا به وفقاً لمعطيات كثيرة ملموسة، خلافاً للمبدأ العكسي وهو أن نجعل المركز هو الأسطورة والمعلومات القديمة غير الموثّقة، وغير الممحّصة،

والناقصة ولا أمل في سد نقصها. وعندئذ يكون تفكيرنا النقدي خير معوان لنا على تمحيص النتائج التي نصل إليها.

ومشكلة يونغ أنه على الرغم من موهبته ومخيّلته واطلاعاته الواسعة وتجاربه الكثيرة، كان لا يستخدم النقد الذاتي، وينجرف مع الأفكار التي تنثال عليه. وقد أقر في كتابه «علم النفس التحليلي» أنه لم يتعاطَ شراب النقد إلا جرعة صغيرة، لأنه كان يخشى على قدرته الإبداعية أن تدمّرها قدرته النقدية. وقال إن هذه الجرعة الصغيرة من النقد الذاتي علّمته أن كل علم نفس هو اعتراف ذاتي، ومن ثم فالاختلاف بينه وبين فرويد هو في جوهره اختلاف بين ذاتيّتين. ويونغ هنا لا يناقض الفكر العلمي القائم على الفرض والتحقّق منه وحسب، بل يناقض شاعراً مثل إليوت يرى أن موهبة الشاعر النقدية، التي يمارسها بعد التدفّق، هي أعلى موهبة لديه.

وكان المؤرخ جفري آش شديد الحذر في تناوله الأفكار اليونغية. فمثلاً، بعد أن يمرّ بمفهوم يونغ لـــ «التزامنية غير السببية» يصل إلى أنه «مجرد مصطلح، لا يفسّر شيئاً. وحاول يونغ ربطه باللاشعور، وهذه مناورة قليلة الجدوى». والإشارات الأخرى هي إلى ما توحي به تلك الأفكار لا إلى ما تمثّله في الواقع التجريبي حقاً.

وفي بحثه في الإعجازي يقارب المؤلف موضوعه باستخدام الطريقتين: أي إنه بقدر ما يحاول من دراساته للمعتقدات والأساطير القديمة أن يصل إلى فهم الإعجازي، يحاول كذلك أن يفهم الظاهرة من خلال التجارب والأحداث غير العادية التي تقع في مجال الخبرة والملاحظة والتي يتبدّى فيها شبه الإعجازي، أو الإعجازي الصغير، أو الأحداث الخارقة للعادة. وعلى جري الأنموذج العلمي الجديد يضع خبرته الشخصية كذلك في مجال الملاحظة. ويناقش التقارير العلمية الحديثة التي بيّنت بعض حالات الشفاء الإعجازية، كما في حالة بلدة «لورد» الفرنسية. ويصف بالتفصيل التجربة التي أجراها بنفسه وكانت ذائعة الصيت على نطاق واسع وفسّر بها انطباع صورة المسيح على كفن المسيح في «تورين».

وإذا كانت الدراسة التحليلية للمعجزات تكاد تكون معدومة في الثقافة العربية، فهي جديدة في الثقافات الأوربية، وكتاب جفري آش يُعدّ فتحاً ساعد على إثارة اهتمام جديد بالمعجزات. وهو بالتأكيد مرجع مرموق بالإضافة إلى أنه غنيّ بالمعلومات وشديد الجاذبية. ويتميز الكتاب عموماً بالأناة والاتّزان والاحتراس العلمي وحسن التصوير والبراعة في إيضاح الأفكار.

وما أود أن أؤكده في هذه المقدمة يتعلّق بوجوب اتّخاذ منتهى الحذر إزاء شهادة الشهود، ولا سيما في موضوع كبير كبر «المعجزات». فليست المسألة هل الشهود صادقون أم كاذبون وحسب، فقد يكونون صادقين بالنسبة إلى شعورهم وخبرتهم، ولكنهم غير صادقين بالنسبة إلى الواقع الموضوعي، لأن أكاذيبهم لا شعورية. وهذا ما صار واضحاً بعد اكتشاف اللاشعور، فالمرء يكذب أحياناً بحسن نية، أو مع شعوره بأنه صادق كل الصدق. وليست المسألة هل الشهود أصحّاء أم مرضى وحسب، فالهلوسة تصيب السويّ والمريض على السواء. وقد كتب نورتون كرو كتاباً عنوانه «حول الشهادة» وفيه من الأدلة ما يجعلنا نرتاب بالأمر الوحيد الموثوق به لوصف تاريخنا ولكتابة التاريخ وهو الشهادة.

وفيما مضى كان الاعتقاد هو أن الهلوسة hallucination ظاهرة تصاحب الاضطرابات الذهنية، وقد تحدث تحت تأثير التنويم المغناطيسي؛ وعلى ذلك فنفي الهلوسة يرتبط بنفي الاختلال. ولكن صار معروفاً الآن أن عنصر الهلوسة موجود في كل إنسان، وقد يظهر من حين إلى آخر، خلافاً للمريض الذي تلازمه تلك الحالة. وذلك كما يقول إدغار موران لأن «الإدراك ترجمة. وما يثير الاهتمام هو أن دماغنا الذي ينظّم كل هذه الترجمات، وعلى سبيل التوسّع، العمليات الإدراكية، التي نحن غير مدركين لها، محبوس في جمجمتنا. فهو لا يتّصل مباشرة بالعالم الخارجي»(١).

---

(1) Morin,E. (1995 ) " Entretien sur la traduction " Meta, 40, 3, 343 – 344 . quoted in , Cronin, M, " Translation and Globaligation ", London, Routledge, 2003 .

والإدراك البصري ليس مجرد انعكاس لما هو مُدرَك. فهناك انطباع على الشبكية، ولكن دماغنا يترجم هذا الانطباع، وينتج تصوراته انطلاقاً منه. فنحن، مثلاً، في قراءتنا السريعة لنص من النصوص، لا نتلقى سوى بعض كتل من حروف نعيد، تلقائياً، بناء كامل الجملة انطلاقاً منها. وكثيراً ما نخفق في تصحيح الأخطاء المطبعية لأن دماغنا، الذي يعرف الصواب، يترجم الخطأ إلى صواب في بعض الأحيان. وفي الترجمة من لغة إلى لغة، كثيراً ما يقرأ المترجم غير ما هو مكتوب، ولكنه إذا أعاد قراءة ما ترجمه، وكان يفهم ما ينقله، استطاع إدراك خلطه بين كلمة وأخرى. وقد يهلوس المرء لا لأسباب عاطفية أو سحرية وحسب، بل كذالك بدافع المعقولية. ويضرب إدغار موران مثلاً على ذلك من حادثة رآها بأم عينه، وكانت رؤيته غير صحيحة بل هلوسة. فقد شاهد سيارة ستروين تصدم دراجة حين كانت إشارة المرور حمراء، وأسرع للإدلاء بشهادته لصالح الضحية. ثم أثبتت له الأدلة أن سائق الدراجة هو الذي اجتاز الشارع عندما كانت الإشارة حمراء وصدم السيارة. ويفسّر موران هلوسته بأنه من المعقول أن الكبير هو الذي أوقع الصغير، وبالتالي صدمه. وهذا ما جعله يرى خلافاً للحقيقة.[1] وبما أن الدماغ يترجم الانطباع المنعكس، فإن ما يراه المرء يتأثّر بمعتقداته، وبالجو العام، وأفكاره وآرائه. وقد قيل إن النظرية وليدة الملاحظة، ويقال اليوم إن الملاحظة كذلك وليدة النظرية، أي إن ما يمتلكه الملاحظ من آراء ونظريات يؤثّر في توجيه ملاحظته. وفي ظروف القلق الشديد، والتعب الشديد، والإثارة، وما إلى ذلك يمكن أن يهلوس الناس جماعياً ويروا ما ليس موجوداً. وفي رأي إدغار موران أن رؤية ألوف الناس في قرية «فاطمة» البرتغالية للشمس وهي تهبط بحركة لولبية وتقترب من الأرض هي من قبيل الهلوسة الجماعية.

---

(١) راجع إدغار موران، «**مقدمات للخروج من القرن العشرين**»، ترجمة أنطون حمصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1993، ص 15 .

والمؤلف جفري آش يثير احتمال الهلوسة في مسألة رؤية الشمس في «فاطمة»، والكذب في إضافة بعض الناس بعض التفصيلات، ولكنه يشك كذلك في إمكان الهلوسة الجماعية وكيف يمكن أن تخمد القدرات النقدية حتى عند المتشكّكين الذين جاؤوا لفضح الأمر. ولم يكن المؤلف جازماً في أي أمر من الأمور، بل قدّم في إجاباته الاحتمالات، القريبة والبعيدة، والراجحة والمرجوحة. وقدّم كذلك بعض التساؤلات المهمة.

بقي أن نقدم تعريفاً وجيزاً بالمؤلف.

إن جفري آش Geoffrey Ashe مؤرخ بريطاني وباحث في الأسطوريات شهير عالمياً. ولد في لندن سنة1923 ، وتلقّى تعليمه في إنجلترا ودرس التاريخ وتخرج في «جامعة كولومبيا البريطانية» في فانكوفر في كندا، قبل أن يتابع دراساته العليا في جامعة كيمبرج. وقد شارك في تأسيس «لجنة كاميلوت للبحث» وكان أمين السر فيها، وهي اللجنة المسؤولة عن حفريات قلعة كادبري بين سنتي 1966 و1970. وهو عضو منتخب في «الجمعية الملكية للأدب». وتحظى دراساته ونظرياته التاريخية باهتمام واسع النطاق في الأوساط العلمية والثقافية. وله في الدراسات أربعة وعشرون كتاباً، بالإضافة إلى رواية واحدة بعنوان «الأصبع والقمر». ونشر أبحاثاً كثيرة في الدوريات العلمية، وحاضر في عدد من الجامعات في إنجلترا وأمريكا الشمالية، وكان أستاذاً زائراً في جامعات الولايات المتحدة عدداً من المرات.

من كتبه بالإضافة إلى كتاب «المعجزات» ( 1978) يمكن أن نذكر «غاندي.. دراسة في الثورة» (1968) و«العذراء» ( 1976) و«الحكمة القديمة» (1977) و«أساطير الجزر البريطانية» ( 1990). وقد اشتُهر على وجه الخصوص بكتبه الكثيرة المتركزة على تحليل الأساس الواقعي لأسطورة الملك آرثر وماضيه الأرخيولوجي، وقد بدأها بكتابه «أفالون الملك آرثر: قصة غلاستنبري» (1957).

**ملاحظة: جميع حواشي الكتاب من وضع المترجم.**

# الفصل الأول

## سحرة وحيوانات متكلمة

### ما المعجزة؟

سيكون أبسط جواب هو: «إنها لا شيء أبداً. وهي لا تحدث.» ولكن هذا الجواب يحيد عن السؤال. فليست هناك فائدة جزيلة في إنكارها، أو إثباتها على السواء – من دون نوع من أنواع التعريف. عليك أن تعرف ما هذا الذي لا يحدث، قبل أن تستطيع حتى أن تقول إنه لا يحدث. ويمكن للكثيرين، بعد إيلاء المسألة القليل من الاهتمام، أن يعثروا بالأحرى على فكرة سلبية لا فكرة إيجابية. وهي تكاد تكون أن المعجزات حوادث «محالة»، كان فيما مضى يُفترض حدوثها عن جهل، إلا أن العلم دحضها وأجلاها الآن، ولذا لم نعد بحاجة إلى الانشغال بها.

وعلى هذا فمن الغرابة بمكان، بالنظر إلى الانطباع السائد، أن كاتباً له شغف بالعلم – وهو الأب والمؤسس الرئيسي لقصص الخيال العلمي – هو الذي اقترح تعريفاً من التعريفات القليلة المزعومة التي من المحتمل أن يعثر عليها القارئ العام. لقد وضع ذلك في قصة قصيرة تسمى «**الرجل الذي استطاع أن يصنع معجزات**»، ويظل الأدعى إلى الدهشة أنه بعدئذ وقع اختياره على هذه القصة لتكون المفضلة عنده بين عشرات القصص التي كتبها.

إنني أشير حتما إلى هـ. ج. ويلز. وقد نُشرت القصة سنة ١٨٩٧ وصُوّرت فيلماً في الثلاثينيات، ظل أمداً طويلاً يُعَد من الطراز الأول في التصوير الخداعي. بطله، جورج ماكويرتر فوذرينغاي، شخص عادي تماماً.

وذات مساء وهو يثرثر مع أصدقائه في إحدى الحانات يثار موضوع المُعجزة. وهو ذاته غير مؤمن، فيعرّف المعجزة بأنها «شيء على النقيض من مجرى الطبيعة تقوم به قوة الإرادة». وعلى سبيل المثال، يشير إلى مصباح نفطي معلّق ويأمره أن ينقلب رأساً على عقب وأن يستمر في الاشتعال ولهبه متجه نحو الأسفل. ولفزع أصحابه، يفعل المصباح ذلك.

ويفهم تدريجاً أنه بطريقة غير معلومة قد صار قادراً على كل شيء. وبينما هو يقوم بتجارب حذرة، يعترضه شرطي. فيقول له فوذرينغاي، «اذهب إلى حادس»(١)، وعلى عجل يجد نفسه وحيداً. (ولاكتئابه مما فعل، ينقل الشرطي حالاً إلى سان فرنسيسكو.) ويُقنعه قسيس بأن يستخدم موهبته لفائدة البشر، فيبدأ في تحسين حال الجوار. ويوسّع الخط الحديدي، ويجفف مستنقعاً، ويستصلح تراب مزرعة، ويعالج ثُؤلول كاهن أبرشية ويشفيه منه. وتُنفّذ هذه الخطط في غضون ليلة. ويحاول، في حاجته إلى مزيد من الوقت من أجل التخطيط الذي لا يقلقه شيء، أن يؤخّر شروق الشمس، ويأمر الأرض بأن تتوقف عن الدوران. ويحدث ما أراد – وعلى أثر ذلك فإن كل الأشياء المتحركة، ومن ضمنها هو ذاته، تتفلت بسبب قصورها الذاتي فتتقذف عبر الفضاء.

والعمل الفظيع الأخير لقدرته هو إعادة الكون إلى الحالة المطابقة لما كان عليه في بداية القصة، مع اختلاف واحد. ففي هذه المرة لا بد أن يكون غير قادر على صنع المعجزات. لا يزال في وسعه أن يأمر المصباح أن ينقلب، ولكنه لن يفعل. وهكذا تستأنف الحياة مسيرتها كأن شيئاً لم يحدث، وقد انمحى الانقلاب الصانع للمعجزات، وكل ذكراه.

إنها أُخيولة صغيرة متألقة. ولكن ماذا بشأن التعريف – «شيء على النقيض من مجرى الطبيعة تقوم به قوة الإرادة»؟ هل هذا ما يُفترض أنه معجزة؟ إذا كان كذلك، فمن المؤكد أن البحث قد انتهى. لا يوجد في الحياة

---

(١) حادس: Hades هو في «العهد الجديد» مثوى الأموات أو حالتهم، وهو في الأسطوريات اليونانية مكان في العالم السفلي لأرواح الموتى.

الحقيقية بالتأكيد سيرة لساحر فائق مثل المستر فوذرينغاي. ولكن دعونا ننظر إلى بعض قصص المعجزات في العالم، بدءاً من أقدمها، لنرى هل هي فعلاً مثل قصة ويلز، وهل الناس الذين سردوها كانوا يفكرون في الأمر ذاته.

إن هوميروس، وهو أقدم المؤلفين الأوربيين الذين بقيت أعمالهم حية، لديه في ملحمته «الإلياذة» حادثة يمكن أن نعتقد بأنها تجنح إلى أن تُعد معجزة. فالمحارب اليوناني باتروكلوس، وهو صديق للبطل أخيل، قد استعار مركبة أخيل وخيله، ينطلق لمحاربة الطرواديين، ويُقتل. فيستعد أخيل للخروج في المركبة ذاتها والانتقام لموت صديقه. ويقول للأفراس أن تحرص على سلامته أكثر مما حرصت على باتروكلوس. وبعد ذلك يحدث أغرب شيء. يبدأ فرس منها، وهو زانتوس، بالتحدث بصوت بشري. وها هو تصوير هوميروس لما يلي، وقد ضُغط قليلاً.

**دلّى زانتوس رأسه، حتى هوى عُرفه من حشية الطوق ماراً بالطوق وكَنس الأرض. وقال: «بالفعل يا سيدي المهيب سنعيدك اليوم مرة أخرى إلى البيت سالماً. ومع ذلك فساعة موتك تدنو؛ ولن نكون نحن سببها، بل سببُها إله كبير ويد القدر القوية. أنت كذلك محكوم عليك أن تسقط في معركة.**

**غضب أخيل منه وأجاب: «يا زانتوس، تُتعب لسانك بالتنبؤ بهلاكي. أنا أعرف معرفة كافية أنه محكوم عليّ أن أهلك هنا، بعيداً عن عزيزيّ أبي وأمي. وبالرغم من ذلك لن أتوقف حتى أُشبع الطرواديين من الحرب».**

**وبذلك، صاح صيحة المعركة، وساق أفراسه القوية إلى الجبهة.**

يبرز من هذه الحادثة الغريبة أمران. أولاً، لا يوجد أقل إلماع إلى أن لأخيل ذاته أية علاقة بها. فهو «لا يريد» أن يتكلم الفرس، وإذا حاول لم يستطع منعه من الكلام. ويُروى لنا، في الحقيقة، قبيل الأسطر المستشهد بها، أن زانتوس قد تمكن من إفحام سيده بالإلهة هيرا(١). والمسألة الأخرى المثيرة

(١) هيرا Hera: هي ملكة الآلهة الأولمبيين وأخت الإله زيوس وزوجته.

للاهتمام هي أنه على الرغم من أنه يتجه إلى إلهة لجعل هذا الأمر يحدث، لا يُظهر أخيل استغراباً. كل ما في الأمر هو أنه يغضب ويتواقح في رد الجواب. والتحذير الغامض والمخيف ليس له تأثير، ومعجزة هيرا، إذا كان لا بد أن نسميها كذلك، تخفق إخفاقاً تاماً.

ولكن هل ينبغي أن نسميها معجزة؟ أليست أعجوبة من أعاجيب حكاية عجيبة، تتحدر من عالم مأثورات شعبية كانت فيها الكائنات غير المرئية والحيوانات المتكلمة جزءاً من النشاط العادي الذي يَخبُره المرء؟ على أية حال ليس هناك فعل إرادة يفوق قدرة البشر، وليس فيها معنى لأي شيء هو «على النقيض من مجرى الطبيعة». في متابعة الإعجازي بحق، والمعنى الصحيح الذي يجب أن نعطيه لتلك الكلمة، علينا أن نجدّ في السير إلى أبعد من ذلك.

هل يمكن أن نتتبع أي خط للتطور من حكايات باكرة من طراز زانتوس – أخيل؟ هناك قصة أخرى يمكن أن نقارن قصة هوميروس بها، وهي قصة متقاربة إلى حدّ كاف لجعل القصة مثيرة للاهتمام. ففي «**الكتاب المقدس**» كذلك حيوان متكلم. وفي «**سفر العدد**»، الفصل ٢٢، فزع الملك بالاق، ملك مؤاب من قدوم الإسرائيليين إلى بلده، فأرسل وفداً إلى رجل اسمه بِلعام يطلب منه العون. وبلعام ساحر أو عراف، ويريد الملك منه أن يصبّ لعنةً على الإسرائيليين. وبعد شيء من المداورة، والأحلام المنذرة بالشر، يوافق بلعام على مصاحبة الرسل. ويسير معهم في الخلف ممتطياً أتانه. ولكن الله يعارض بلعام ويرسل ملاكاً في الطريق وسيفه مجرد. وترى الأتان الملاك، ولا يراه بلعام. وعند الظهور الأول والثاني، تقوم الأتان بإزعاج بلعام فيضربها. وفي المرة الثالثة، عندما يقف الملاك في ممر ضيّق لا سبيل فيه للتحول يمنةً أو يسرةً، تربض وترفض أن تتزحزح.

**فاشتعل غضب بِلعام، وضرب الأتان بعصاه. ثم فتح الربّ فم الأتان، فقالت لبلعام، «ماذا فعلت لك حتى ضربتني ثلاث مرات؟» فقال بلعام للأتان، «لأنك ضحكت عليّ. تمنيت لو كان في يدي سيف، لأنني عندئذ كنت سأقتلك».**

يبدو إلى الآن أننا لم نبارح جو المأثور الشعبي ذاته كما مرّ من قبل. فالأتان تتكلم بإلهام إلهي، وهو إلهام الربّ بدلاً من أن يكون إلهام هيرا. وبِلعام هو بالأحرى منزعج وليس مندهشاً. ولكن في هذه المرة لم تنته القصة. فبعد تبادل ثان للحديث بين البهيمة والراكب، تمضي الأعجوبة إلى أبعد من ذلك.

**فتح الربّ عيني بِلعام، فرأى ملاكَ الربّ واقفاً في الطريق، وسيفه المسلول في يده؛ فطأطأ رأسه، وخرّ على وجهه.**

ويردد الملاك كلام الأتان، لماذا كان بلعام يضربها؟ إنها لم تؤذه. على العكس، فبرفضها التقدم في السير، أنقذت حياته. كان من شأن الملاك أن يقتله.

**ثم قال بِلعام لملاك الرب، «لقد أثمتُ لأنني لا أعرف أنك تقف تجاهي في الطريق. لذا إن كان ذلك شراً في نظرك، فسأرجع مرة أخرى.» فقال ملاك الربّ لبلعام، «اذهب مع الرجال؛ ولكن الكلمة التي أقولها لك هي التي تتكلم بها فقط».**

كان لا بد أن يظهر الملاك في مظهر شخص، هو الناطق المعترف به باسم الربّ، ليكثر من ذكر الشيء الذي لا يود بلعام تذكّره. غير أن الصدمة تحدث، ولو تأخرت قليلاً. يدرك بلعام أن أمراً نابياً ورهيباً يجري، فينصدم. وينتقل المؤلف من عالم مأثور شعبي ساذج إلى عالم آخر، عالم ردود الأفعال الأشدّ تعقيداً والمعاني الأشد أهمية. وتكتسب الآن حتى تأثيرات الحكاية العجيبة فيه قيمة رمزية. فقد كانت الأتان، التي بدت شموساً، تصنع لراكبها معروفاً بالفعل. كذلك فإن الإسرائيليين لا يستحقون بغضاء بلعام. وعندما تصل القصة إلى المسألة الجوهرية، يلقي الربّ كلاماً في فيه مرة أخرى، فيباركهم بدلاً من أن يلعنهم مثيراً غضب الملك.

بإعطاء هذه البيئة المختلفة، صار لهذه الحادثة الغريبة طابع إعجازي حقيقي. وهي في ذاتها مثيلة لحادثة هوميروس إلى حد بعيد. إلا أن بلعام مختلف عن أخيل، لأنه – ولو لم يكن على الفور – يتبيّن النذيرة من حيث هي، ويعرف أنه يجب أن يشغل بالَه خرقُها للمألوف، ويفهم أنه آية من

السماء. إنه متعجب. وذلك هو ما تتضمنه كلمة «المعجزة» miracle. إنها مشتقة من اللاتينية ومبنية على الصفة mirus ومعناها «العجيب». والمعجزة هي، بالتعريف، شيء تتعجب منه.

إن ذلك بعيد حتماً عن أن يكون القصة بكاملها. ولنبدأ بأن العكس ليس صحيحاً بالضرورة. إذ توجد وفرة من الأشياء التي تبثّ العجب ولكنها ليست معجزات. وأصل الكلمة سبّب لها أن تكون منتشرة على نطاق واسع جداً، سواء في الاستعمال اليومي أو لغة الشعر والانفعال. نحن نقول، «إذا كان جاهزاً في الوقت المناسب فسيكون ذلك معجزة»، ولا نعني إلا أن ذلك سيكون مدهشاً. وكانت أدوية مثل البنسلين تلقب في البداية بـ «الأدوية المعجزة» لأن نتائجها كانت رائعة جداً خلافاً لأي دواء معروف من قبل. ومن جديد، فمن الشائع تماماً أن نجد الناس يتحدثون عن «معجزات طبيعية» أو «معجزات الحياة»، من دون أن يتضمن كلامهم أكثر من أن النجوم جميلة أو أن بنية الأجسام الحية معقدة. وظواهر كهذه تدعو إلى العَجَب، وبحق، ولكن ليس إلى ذلك النوع من العجب. وقصيدة وولت هويتمن «**المعجزات**» تُعرب عن العجب على حين أنها للأسف تخلط بين المصطلحات.

**عجباً، من يحتفي بالمعجزة؟**
**بالنسبة إليّ لا أعرف شيئاً غير المعجزات،**
**سواء أكنت أسير في شوارع مانهاتن،**
**أم أرشق نظري على أسطح الدور المتجهة إلى السماء،**
**أم أسير على امتداد الشاطئ الرملي وقدماي الحافيتان**
**غاطستان تماماً في حافة الماء،**
**أم أقف تحت الأشجار في الغاب،**
**أم أتحدث في النهار مع أي شخص أحبه، أم أنام في السرير**
**ليلاً مع أية امرأة أحبها،**

**أم أقعد إلى المائدة عند الغداء مع البقية،**
**أم أنظر إلى الغرباء قبالتي وأنا راكب في السيارة،**
**أم أشاهد نحلات العسل تشتغل حول خليتها**
**في ضحوة صيف،**
**أو حيوانات تقتات في الحقول**
**أو طيوراً، أو عجائب الحشرات في الهواء،**
**أو عجائب الغروب، أو النجوم التي تشرق**
**بكل هدوء وتألق،**
**أو المنحنى الرقيقَ الدقيقَ الأنيقَ للهلال**
**في الربيع؛**
**هذه الأشياء مع البقية، هي قاطبةً معجزاتٌ عندي،**
**الكل يشير إلى ذلك، ومع ذلك فكل شيء يتميز في مكانه.**
**عندي أن كل ساعة ضوء وظلام معجزة،**
**وكل بوصة مكعَّبة من الفسحة معجزة،**
**وكل ياردة مربعة من سطح الأرض تمتد**
**مع مثيلتها، وكل قدم في الداخل تزدحم بأمثالها.**
**وعندي أن البحر معجزة مستمرة،**
**الأسماك التي تسبح – والصخور – وحركة الأمواج –**
**والسفن التي فيها أناس،**
**أتوجد معجزات أغرب؟**

إن موقف هويتمن من العالم رائع وذو أساس، ولكن إذا كان كل شيء معجزة فما من شيء معجزة. وفي رواية فرانتس فرفل Franz Werfel التي تدور في «لورد»[1] وعنوانها «أنشودة برناديت) Das Lied von Bernadette، يقول

---

(١) لورد Lourdes: بلدة في الجنوب الغربي من فرنسا زعمت فيها فتاة قروية اسمها «برناديت سوبيرو» Bernadette Soubirous سنة 1868 أنها قد حظيت برؤى مريم العذراء. وهذه البلدة هي الآن مركز رئيسي للحج.

رومانسي متعلم للفلاحين المحليين، «ألا توجد معجزات في كل ما حولنا؟ أليس القمر في السماء معجزة؟» فيجيبه أحدهم، «القمر، يا مسيو؟ ولكننا نراه في كل ليلة.» إن الفلاحين يعرفون خيراً مما يعرف الزائر.

عندما يتحدث السيد فوذرينغاي في قصة ويلز عن أن المعجزات «على النقيض من مجرى الطبيعة» فهو – إلى ذلك الحد – في الاتجاه الصحيح. فلا يجري التفكير في أن المعجزة هي شيء جيد أو مثير بصورة تدعو إلى العجب. حتى القول إنها شيء يُتعجّب منه لأنه غير عادي هو قول ضعيف جداً. فهي يجب أن تتحدى التجربة الإنسانية المشتركة. يجب أن تكون استثناء من القوانين التي يبدو أنها تحكم العالم. وسيكون هناك المزيد الذي يجب أن يضاف قبل أن يأخذ التعريف الوافي شكله، ولكن أول كلمة مفتاحية للامساك بها هي **الاستثناء**.

يترتب على ذلك أنه لا بد من نزع خطأ متكرر من الطريق. ففكرة المعجزات ليست متخلفة أو تنتمي إلى ما قبل التاريخ، بل هي متقدمة إلى حد ما. فلا بد من وجود حكم القانون قبل أن تكون هناك استثناءات منه. ولا بد أنه كانت لدى المجتمع البشري أفكار راسخة عن انتظام الطبيعة – من خلال مراقبة الفصول والأفلاك، ومن خلال تقنيات من قبيل تربية الأنعام والزراعة – ليصل إلى مرحلة يكون فيها الاستثناء، الحقيقي، أو المتخيّل، موضوعاً للانبهات المفعم بالرهبة.

وفي بلدان الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت للحضارة الغربية جذورها، لم يتم الوصول إلى تلك المسألة إلا بعد مرحلة التحول عن الهمجية، ومن الصعب استعادة جو الأزمان القديمة. كان النظام يُعرَف من الطريقة التي يؤدي بها العالم وظيفته، ولكن كان يتم التفكير فيه على أساس القوى السحرية والنفسية وليس بالأحرى على أساس القانون، وكانت البيئة الإنسانية الكلية مليئة بالغرابة بحيث لا يمكن لشيء أن يكون مدهشاً أصلاً. ومن ثم لم يمكن لكلمة «معجزة» أن تتضمن أي معنى. ويبدو أن مرور تلك الحقبة الانتقالية، والتحول إلى حالة شؤون عامة تكون فيها الاستثناءات

مدهشة قد ارتبط على نحو ما بتغير في الانحياز الجنسي للمجتمع. وسواء أكانت النساء يحكمن في العالم الأقدم، كما يزعم بعض الأنوثيين، أم لا، فقد كان لهن نصيب أساسي في فنون السحر الأساسية. وهكذا فقد أثرن في النفوس تعظيمهن أكثر مما أثرن في الأزمان اللاحقة، وكانت الألوهة ذاتها أنثوية في الغالب وليست ذكرية. كان مصدر الحياة وسلطتها الرئاسية آنذاك هما **الإلهة العظيمة** تحت أشكال وأسماء كثيرة – «عشتار»، و«عشتروت»، و«سيبيلي»، وهلم جرّا. كانت **الأمّ الكلية** وواهبة الإلهام والخلود. وعندما سادت كان يُعتقد أن الإنسانية والألوهية متقاربتان، متخالطتان. ولكن في الألف الثاني قبل الميلاد اعتلى الهيمنةَ أربابٌ ذكور مثل «زيوس». وأطيح بالإناث، وأُخفضت مكانتُهن، وجرى تجزيئُهن إلى ربّات أصغر.

وفي عالمها الأقدم، بنظامه السحري والمادي واختراق كل مجال للمجال الآخر، كان كل شيء تقريباً يمكن أن يحدث. وكان من خلال من اقتلعوها وحلّوا محلها من الأرباب الذكور أن تم بالتدريج البطيء الاستحواذ على فكرة القانون الكوني، وانتظام الطبيعة المادية. وتحت حكم الذكر، بفكره الأكثر تمسكاً بالقانون، تم الوصول ببطء إلى رؤية أن الطبيعة مستمرة في أعمالها. وفي النهاية تم جعل الحادثة الاستثنائية تبرز على أنها معجزة.

ويعتقد بعض الباحثين أن التغيّر كان أكثر من تغيّر في وجهة النظر. وهم يقبلون أنه في المرحلة الأقدم، مرحلة **أي شيء – يمكن – أن يحدث**، مرحلة السحر واللغز الأنوثيين، فإن الحوادث التي من شأننا الآن أن نعتقد أنها خارقة للعادة لم يكن يُعتقد بأنها كذلك؛ ولكنهم كانوا يظنون أن هذا ليس كل شيء. ووفقاً لنظريتهم، فإن أمثال هذه الحوادث حدثت فعلاً في أغلب الأحيان، وكانت أقل بكثير من أن تكون خارجة على المعايير المتوقعة. وجانب من السبب في أنها لم يُعتقد أنها خارقة للعادة أنها في كثير من الأحيان لم تكن كذلك. إن الإدراك الذي يعدو الحواس، والتخاطر، والظواهر التي يمكن الآن أن نصفها بأنها خارج التفسير الطبيعي أو فائقة الطبيعة، كانت وقائع مألوفة في الحياة. وعندما

تولى الأرباب القيادة فارضين قانونهم ونظامهم الجديد، لم يقتصر الأمر على أن العالم كان يبدو أكثر قابلية للتنبؤ به وأشد ميكانيكية، بل صار كذلك فعلاً. فضمرت قدرات البشر النفسية إلى حد ما، والأمور التي كانت مقبولة على أنها طبيعية عند أسلافهم صارت الآن حالات شاذة يستغرب منها.

ومما لا ريب فيه أنه قد حدث تحول باتجاه مفهوم للمصير البشري أشد صغراً وقتامة. وتناقص الإيمان بالخلود. وفي عصر الأنثى، لم يكن الموت نهاية. وفي عصر الذكر، كان نهاية، بوجه عام. وتضاءلت حالة الآخرة حتى تحولت إلى الوجود الظلّي الواهي، المفتقر إلى الحيوية، وكانت من قبلُ الحالةَ التي في مستطاع أكثر سكان اليونان والشرق الأوسط أن يأملوا فيها. وساعدت تلك الخسارة على تعزيز الحنين الذي كان من شأنه بعد قرون كثيرة أن يؤدي دوراً في فصل من أوسع الفصول نطاقاً في التاريخ الكلي للإعجازي.

ومع ذلك فنحن ما زلنا الآن قبل الميلاد بقرون كثيرة. وسواء أتغير البشر أم لم يتغيروا، فقد تغير الجو الفكري بالتأكيد. وعند هوميروس، بينما قد صار زيوس الإله الرئيسي والربات الباقيات خاضعات له، توجد (كما رأينا آنفاً) وفرة من الروح القديمة لـــ «أي شيء – يمكن – أن يحدث» باقية في الحياة. والأرباب هم بالأحرى متقلّبون وليسوا نظاميين، ويمكن أن يؤثروا في السكان الفانين بكل أنواع الطرق. ويصف هوميروس حتى الأحداث الطبيعية بهذه المصطلحات. وهكذا، عندما يقرر إنسان أن يقوم بعمل، فمن شأن هوميروس أن يقول إن إلهاً مثل زيوس، أو إلهة مثل أثينا «وضع [أو وضعت] في ذهنه» أن يفعل كَيْت وكَيْت. وما وراء الأرباب هو **القدر**، بيد أن ذلك لا يُدرَك كهنه أيضاً ولا علاقة له بقوانين الطبيعة. وعلى ذلك فإن اقتحام الفَرس ميدان الكلام لا ينجح في ترويع أخيل أو التأثير فيه؛ إنه مجرد حيلة كتلك الحيل التي يميل إليها الأرباب؛ والحادثة تقصّر عن أن تكون «عجيبة» حقيقية.

ومؤلف حكاية بِلعام متقدم نتفةً في هذه الناحية. إنه يؤمن بإله إسرائيل، الرب الذي لا حاجة له إلى الألغاز القديمة، والذي يملي شرائع قاسية مثل

«الوصايا العشر»، ويمارس سلطته بأسلوب فيه من الاستقلال في الرأي أكثر بكثير مما لدى آلهة اليونان. لذا إن تحدثت حمارة، فتلك حادثة خارقة للعادة، ولا بد أن الرب دبرها لقصد خاص. وهي تأتي مع هِزّة عنيفة، ويجب أن تُستقبل بجِديّة. والرب، خلافاً لآلهة هوميروس، صاحب سلطان كلي الذكورة ومن دون مشاغل أنثوية، وليس متقلباً.

ومع أن «**سفر العدد**» يظل عملاً ما قبل علمي، فهو يساعد على التخلص من وهم أن التفكير العلمي يحل محل المعجزات. وسنكون أقرب إلى الحقيقة إذا قلنا إن التفكير العلمي جعلها ممكنة أولاً – بوصفها فكرة، أي هل هي صحيحة أم مغلوط فيها. وعلى المجتمع لكي يتصور المعجزات بأية حال أن يكون سائراً في طريق العلم: للتحقق من وجود طرق نظامية تحدث فيها الأشياء، مع مخطط في العقل لما يحدث في الأحوال العادية، مما يجعل أي استثناء بائناً ومفزعاً. وما دام الآلهة كانوا العلل الأولى للطريقة التي يؤدي بها العالم وظيفته، فقد استطاع إله إسرائيل أن يتقدم بعبّاده نحو رؤية ذلك أكثر مما استطاعت الشخصيات الإلهية الأولمبية غريبة الأطوار عند هوميروس. وعندما جاء العلم اليوناني، فاق أي علم حققته إسرائيل القديمة، ولكنه كان عمل اليونانيين الذين تركوا الأساطير الهوميروسية وراءهم، وانتقلوا إلى فكرة أعلى عن النظام الذي كثيراً ما كانوا يربطونه، كما ربطه الإسرائيليون، بالله الواحد العليّ.

وعلينا الآن أن نبحث في المعجزات بالروح ذاتها إذا كنا سنبحث فيها بطريقة مجدية، ونسأل هل حدثت. يجب أن نفكر فيها على أنها استثناءات، حوادث تأبى أن تتلاءم مع نموذج «ما يحدث في الأحوال العادية». والعلم في تطوراته الحديثة قد جعل ذلك النموذج أكثر دقة مما كان في أي وقت في ظل الآلهة، أو حتى في ظل إله الديانة الإسرائيلية الأوحد. وهو لم يغير الموقف من الاستثناءات. وكما سنرى، لم يُثبت كذلك أنها مستحيلة.

إن المعجزة هي استثناء، ولكنها ليست أي استثناء من حيث هو، أو أي شيء يتحدى معرفتنا وعاداتنا الفكرية.

تخيل أنك تنظر إلى منضدة بلياردو، هادئاً وغير مضطرب. في منطقة الوسط كرة حمراء. فجأة تتحرك من تلقاء ذاتها وتتدحرج إلى جوف. ولو كان لكرة أن تسلك مسلكاً كهذا بالفعل، لكان حادثة استثنائية ومن الصعب جداً تعليلها، ولكنها في ذاتها ليست معجزة.

وليست قابلية التصديق العلمي هي المسألة الرئيسية. وقد أعلنت فيزياء القرن التاسع عشر أن أمراً كهذا لا يمكن أن يحدث. ومنذ ذلك الحين حلت محل «القوانين» من النوع الصلب والثابت عبارات الاحتمال. ومن غير المحتمل على نطاق واسع أن تبدأ كرة في التدحرج من تلقاء ذاتها وتقصد، كما يظهر، إلى هدف حددته بذاتها. ومع ذلك فلعل تمايلاً جُزَيئياً طارئاً في الهواء في جانب منها يعطيها – نظرياً – دفعة نحو الجوف. مهما يكن، فتلك مماحكة. إن الأمر ممكن ولكن من بعيد الاحتمال أن يكون صحيحاً خارج التجربة، وخارج افتراضات المنهج العلمي. والعلماء حين يؤكدون سيادة الاحتمال بدلاً من القانون الثابت، ويعترفون بغير المحتمل، يقرّون بالبعد **المفرط** عن الاحتمال الذي يجبر حين يصادَف على إعادة التفكير والارتياب بوجود شيء مغلوط فيه. والمعلم الذي يستخدم منضدة البلياردو من أجل برهان عملي في الميكانيكا من شأنه أن يسلم بأن الكرة، لدى الممارسة، تظل ساكنة. وإذا لم يسلّم، فسيستنتج في الحال أن شيئاً ما قد تدخّل، من دون حتى أن يفكر في الميلانات الجُزَيئية الطارئة. وبمقدار ما تزول الاستثنائية، فإن الكرة ذاتية الهدف، وذاتية الشروع في السير، والتي لا يتدخل فيها شيء تكتسب القوة. وسيكون من دفاع الفيزيائي الخاص عن زعمه أن يدلي بهذه الحجة، «طيب، أي شيء **يمكن** أن يحدث، لذا لا توجد معجزات أبداً، وكذلك فهي ليست معجزة».

على أن المسألة الحقيقية تتعلق بالأحرى بالملاحظ لا بالواقعة. فإذا تدحرجت الكرة إلى الجوف من دون عون، وكان ذلك كل شيء، أفلا تشعر بالعَجب الذي من المفترض أن يصحب الإعجازي؟ ستكون مندهشاً، ولكن هل

ستكون مندهشاً على ذلك النحو؟ وقد تكون فزعاً، فهل ستأخذك هزة أو يعتريك رَوْع؟ وقد تكون الحادثة خلواً من المعنى. فلا تنقل رسالة، ولا تنطبق على وضع، ولا تتكشف عن يد خفيّة. والمعجزة ليست مجرد استثناء، بل هي استثناء ذو غرض. إن لها علاقة بالحياة الإنسانية، وذلك كذلك لأنه يوجد وراءها نوع من الفعل يمكن أن يربطه البشر بأنفسهم. إنها استثناء مقدّر، ومقدّر لسبب.

ممّن أو ممّ؟ أمن «قوة إرادة» ويلزية؟ وهل من شأن حركات كرة البلياردو الغريبة أن تكون إعجازية إذا كان السيد فوذرينغاي تحت المنضدة يملي عليها إرادته في أن تتقدم؟ إن قصص المعجزات الباكرة لا تشير إلى أي شيء من هذا النوع. ومشهد أخيل وفرسه عند هوميروس، برغم أنه ما قبل إعجازي في ذاته، فهو يلمح إلى المعجزات كلها في هذا الخصوص. والعجيبة لا يصنعها أخيل بل كائن إلهي. ويظل ذلك صحيحاً، مع مشاهد مختلفة، عندما يصل اليونان بعد هوميروس إلى فكرة المعجزات. والأرباب، الذين هم علل لأي نظام في الكون، هم علل كذلك لأحداث يبدو أنها تَحيد عنه. ولديهم احتكار التدخّل والتسوية.

وعلى سبيل المثال، لدينا السجل الرائع لنوع من مَحج «لورد» يوناني، هو معبد أسكلبيوس في «إبيداوروس» في اليونان الجنوبية. كان أسكلبيوس إله الشفاء. ولأنه في الأصل بطل مؤلَّه، لم يصل أبداً إلى مرتبة الأولمبيين، الذين قيل إن أحدهم، وهو أبولو، كان أباه. ولكن عبادته نمت إلى حد أنه صار إلهاً معتمداً تماماً وله معابد مرتبطة به. وازدهر المعبد الكائن في إبيداوروس في القرن الخامس ق.م. فما بعد. كان أكثر بكثير من مبنى. كانت تحيط به أسوار مثل منطقة كاتدرائية، وله مساحات واسعة من الأرض ذات مذابح في الهواء الطلق على حمامات ومسرح وصفوف من الأشجار الوارفة المفرَّج بينها بحيث يمكن أن ينام الحجاج.

وإلى حد كبير كان المكان ببسيط العبارة مشفى. وكهنة الإله هم الأطباء. ولكن عندما كان الحاج يمكث مدة في المنطقة، يمكن أن يزوره الإله ويساعده.

و«سجل معبد إبيداوروس» هو قائمة بما حدث فيه من حالات شفاء، ومعجزات تتخطى المعالجات الشافية. وحين يؤدي المعبد وظيفته، تُكتب أوصاف هذه العمليات على امتداد جدار خارجي لصف من الأعمدة، حتى يتمكن الحجّاج من قراءتها ويتشجعوا. ويقدّم المريض منحة (ليس من الضروري أن تكون نقدية؛ فيمكن، مثلاً، أن يرسم لوحة ملونة) وينام في أحد الأماكن المحددة. وعندئذ يمكن أن يظهر له أسكلبيوس في الحلم.

وفي بعض الأحيان كانت الصور الحلمية صريحة. رجل اسمه يوهيبّوس، استقر رأس حربة في فكّه، فحلم بأن الإله أخرجها وذهب بها بعيداً، وفي الصباح كانت قد زالت. ولكن كانت الزيارة في بعض الأحيان أشدّ رمزية. رجل تفشى فيه القمل فحلم أن أسكلبيوس ينظفه بمكنسة طويلة. وكانت العملية أشد تعقيداً أحياناً أخرى. إن شخصاً اسمه بانداروس من تساليا شوّهته علامة على جبينه، فوضع ضمادة على رأسه كما علّمه الإله، وفي الحال وجد أن العلامة قد انتقلت إلى الضمادة. ثم هناك صديق مشوّه بما يشبه تلك العلامة قد استعار الضمادة؛ ولكنه كان قد خدع المعبد بشأن التقدمة الموعود بها، وعندما نزع الضمادة وجدها عادت نظيفة، وعلى جبينه علامة باندروس إلى جانب علامته. ويمكن أن يؤدي المرء الحج لمصلحة غيره. إن أراتا من لاكونيا، التي كانت تشكو من مرض الاستسقاء، نامت أمها في المعبد وحلمت أن أسكلبيوس قطع رأس ابنتها وأفرغ السائل. وأراتا، في بيتها، حلمت بالحلم ذاته واستعادت صحتها عندما عادت أمها.

إن معظم حالات الشفاء المدوّنة ليست أكثر من حالات شفاء، ويجب أن تُنسب إلى أسباب طبيعية، أو إلى براعة الكهنة في المعالجة. وغيرها، كاختفاء رأس الحربة وانتقال علامة باندروس، فهي على الأقل تبدو إعجازية، وللحالة الثانية مغزى أخلاقي كذلك. ويُظهر التدوين أن المعجزات كانت قليلة، وأنه حتى حالات الشفاء البسيطة ليست كثيرة. وكان فيها ما يكفي لتعزيز الأمل والإيمان، وجذب مبالغ من أجل البقاء. إلا أنه من الواضح أنه لو كان الكهنة

قادرين على أن يستفيدوا من التعلّل بـــ «أسكلبيوس»، أو حتى أن يدّعوا بأنه قام بذلك في الماضي، لكان العدد المزعوم أكبر. وكان مفهوماً بوضوح – وأوضح من أن يفسح مجالاً للخداع – أنه وراء حدّ معيّن، ليس للعمل البشري سلطان على المادة. ولو اختار أسكلبيوس أن يقوم بمعجزة، لقام بها، ولكن كان الإله يعمل وهو في الغالب لم يختر.

وقد عاش المسرحي يوربيدس وكتب عندما كان معبد أسكلبيوس في عنفوان مجده. وكان موقفه من الآلهة ريبياً. ومع هذا نجد معالجته للمعجزات عند تناوله الأسطورة اليونانية هي ذاتها. وأشد مسرحياته غيبية هي مسرحية «**الباخوسيات**». وفيها حديث طويل من رسول ملكي، يخبر فيها ملك ثيبة عن نساء باخوسيات يستمتعن بالمسرّات على الجبل في وجد ديونيسي. وهو مفعم بالعجائب كأيّة فقرة في مسرحية يونانية. والنساء، وفقاً للرسول، يمتحن من الأرض طعاماً وشراباً إعجازيين، ولا يمكن إيذاؤهن. غير أن يوربيدس لا يشير لحظةً إلى أنهن ساحرات يؤدين السحر بما لهن من حق خاص؛ وفي عصر الذكر لم تعد رؤية هذا الأمر تُتوقع؛ والإله ديونيسوس يقوم بكل ذلك لهن، مُبلغاً سلطته من خلال العنزة المقدسة أو القضيب الذي يحمله عبّاده.

**رفعت إحداهن**
**يدها وضربت الصخرة، وعلى الفور انبجست دفقة**
**من ماء جارٍ رقراق. ووضعت أخرى**
**عصاها في الأرض المخفيّة. فكان هناك**
**نبيذ أحمر إذ أرسل الإله إليها**
**ينبوعاً قاتماً. ولو نشدت أية شفاه**
**جرعات أشد بياضاً، لضغطن بالأنامل الغاطسة**
**على التربة المعشِبة، فأتت ينابيع من اللبن**
**تتدفق من الأرض. وقضبان قصبية مكلّلة باللبلاب**

**جرت بالعسل، قطرة قطرة....**

**ومن غضب أهل القرية حمل أفرادها رمحاً وسيفاً**

**واتجهوا إلى الباخوسيات. فخشي الرب،**

**وكانت العجيبة. لأنه لم يستطع الرمح ولا السيف الشائك**

**أن يؤذي الصبايا ولا أن يلمسهن. ولكن القضيب،**

**القضيب الناعم والمفتول الذي أسرعت إليه أيديهن البيض،**

**اجتاح أولئك الرجال وأخمدهم، ففروا**

**مصابين بالدوار. يقيناً إن إلهاً ما كان في هذه الأمور.**

تلك هي كلمات إعادة إبداع شعرية مسرحية لقصة شعبية. ولكن المؤرخ هيرودوت، وضمن كتابته أحداثاً حقيقية من الذاكرة الحية، يذكر حادثة مشهدية واحدة على الأقل يفكر فيها على المنوال ذاته إلى حد كبير. يروي أنه عندما غزا الفُرس اليونان سارت قوة عسكرية إلى دلفي لتسلب معبد أبولو. فاستشار سكان دلفي رسول الوحي فأجاب أبولو إن في مقدوره أن يحمي معبده. وعندما دنا الفُرس خرج درع سحري من داخل المعبد من تلقاء ذاته؛ فتحطمت صخور من جبل بارناسوس وبدأت في الانحدار، دافنةً كثيراً من الفرس؛ وظهر عملاقان محاربان وهاجماهم. ففرّ الباقون مذعورين، يطاردهم جنود دلفي العاديون. ويحذر هيرودوت قراءه من أن هذا هو ما روي له، لا ما رآه. غير أنه شاهد الصخور وهي تتدحرج من الأعلى. لقد حمى أبولو معبده.

حتى في عصر انحطاط لاحق، عندما كان اليونان أكثر بعداً عن سرعة التصديق وعن الميل إلى الخرافات، نادراً ما غابت المسألة الأساسية عن البال. وجاء حين من الزمان، في الشفق الأخير للوثنية قبل الانتصار المسيحي، صار يصدّق فيه أن تماثيل كثيرة للآلهة تدبّ فيها الحياة وتقوم بأعمال شبه بشرية. ولكن لم يكن يُتصوّر أن التمثال في ذاته له خواص فائقة للطبيعة. ومرة أخرى، كان الإله هو العلة. ومهما كانت القوة التي يظهرها التمثال (وهذا متفق

عليه) فإنها تأتي من الكائن الإلهي غير المرئي الذي يمثله، وهو لأسباب تخصّه قد جعله يقوم بالعمل.

ولدينا خارج اليونان قصة أقدم وأعظم من أية قصة من هذه القصص، ومن المحتمل أنها أقدم قصة ذات محتوى إعجازي قوي في أي مكان. وهي تبين الفوارق الجوهرية التي لم يكن اليونان، مع كل حبهم للوضوح، دقيقين فيها، بل كانوا في الحقيقة يميلون إلى طمسها وهم ينحدرون نحو الخرافة. وهذه هي القصة العبرية التي تتضمن حوار بلعام مع الأتان بوصفه فصلاً من فصولها: إنها القصة البطولية عن ارتحال الإسرائيليين عن مصر، وفتحهم أرض كنعان، أرض الميعاد.

إن «**سفر الخروج**» التوراتي، الذي يفتتح القصة، هو جزء منها وفيه أشد المعجزات دلالة. في بادئ الأمر يكون الإسرائيليون عبيداً في مصر. وأحدهم، وهو موسى، يهرب إلى مِدين في صحراء سيناء ويتزوج فتاة من أسرة محلية. وبينما هو يرعى الغنم في المنحدر المنخفض لجبل حوريب، يكلمه الله من عُلّيقة ملتهبة، ويقول له أن يعود إلى مصر ويخرج مواطنيه من العبودية. ويتحيّر موسى من أن يقع الاختيار عليه على هذا النحو، ويتعذّر بأنه غير كفء للمهمة، فماذا يمكن أن يقدّم أدلة على مثل هذه الرسالة غير المسموع بها، سواء إلى الإسرائيليين أنفسهم أو إلى سيدهم فرعون؟

**قال الرب، «ما تلك التي بيدك؟» فقال، «عصاً» قال، «ألقها على الأرض». فألقاها، فإذا هي حية، فهرب موسى منها. ولكن الرب قال لموسى،«مُد يدك وأمسك بذيلها» – فمد يده وأمسك بها، فصارت عصاً في يده – «لكي يصدقوا أن الرب، إله آبائهم، إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب، قد ظهر لك».**

**وقال الرب أيضاً، «ضع يدك في جيبك.» فوضع يده في جيبه؛ وانظروا، عندما أخرجها كانت برصاء كالثلج. قال الرب، «أعد يدك إلى جيبك.» فأعاد يده إلى جيبه؛ وانظروا، عندما أخرجها، عادت لتكون كبقية جسمه.**

**قال الرب، «فإن لم يصدّقوك، أو لم يحفلوا بالآية الأولى، فقد يصدّقون الآية الأخرى. وإن لم يصدقوا حتى هاتين الآيتين أو لم يحفلوا بقولك، فستأخذ ماءً من النيل وتسكبه على الأرض الجافة؛ والماء الذي تأخذه يصبح دماً على الأرض الجافة».**

ويظل موسى يعارض. ويحتج بأنه لا يحسن الكلام. فيقول له الرب أن يعتمد على أخيه هارون، الذي هو مستعد، وسيكون مستعداً للمساعدة. وهكذا يعود موسى إلى مصر. ويعمل هارون متكلماً بالنيابة عنه. وتؤدّى «الآيتان» على الوجه الصحيح، ويؤمن الإسرائيليون. ولكن فرعون الذي لم يكن حاضراً عند تقديم الدليل، لا يتأثر برسالة الأخوين. ويستمع إليهما غير أنه يقول إنه لا يعرف شيئاً عن الرب، ويتهمهما بتشجيع العبيد العبرانيين على أن يكونوا عاطلين عن العمل ومستائين. والنتيجة الوحيدة للمقابلة هي زيادة مهمات العبيد. فيشتكي موسى إلى الرب، الذي يجيبه بأن عليه أن يذهب إلى فرعون مرة أخرى – ويعده – من دون أن يفسّر قوله – بأن الفرج آت.

والآن تحدث كلمة «المعجزة».

**قال الرب لموسى وهارون، «عندما يقول لكما فرعون، "هاتوا برهانكم بصنع معجزة" قل لهارون "خذ عصاك وألقها أمام فرعون، فتصير حية".» فذهب موسى وهارون إلى فرعون وقاما بما أمرهما الرب؛ وألقى هارون عصاه أمام فرعون وخدمه، فصارت حية.**

وينبغي أن يلاحَظ رد فرعون باهتمام.

**فاستدعى فرعون الحكماء والعرّافين؛ وقاموا، وهم سحرة مصر، بالعمل ذاته بوساطة فنونهم السريّة. إذ ألقى كل شخص عصاه، فصارت العصيّ حيّات. ولكن عصا هارون ابتلعت عصيّهم.**

مع هذا لا يستسلم فرعون. ولا يزال موسى يعمل في طاعة عمياء للرب، ويأخذ عصاه ويضرب ماء النيل الذي ينقلب دماً. «ولكن سحرة مصر قاموا بالشيء ذاته بوساطة فنونهم السريّة.» بعد ذلك تَصدر إشارة مشابهة

وتجلب وباء الضفادع. وفي ذلك ضاهاه سحرة مصر. ولكن عندما يتحول الغبار إلى رفوف من البعوض، يحاولون إلا أنهم يخفقون. ومن تلك النقطة فما بعد يُنزل موسى وهارون على مصر كوارث أسوأ فأسوأ من دون مزيد من التنافس. ويقال لنا إنه عندما جلبا وباء الدمامل، عانى منه السحرة مثل كل المصريين الآخرين. ويحاول فرعون تقديم التنازلات والتسويات، من دون أن ينجح. وبعد سلسلة أخرى من النكبات، التي تنتهي بموت الابن البكر في كل أسرة، يستسلم في النهاية ويغادر الإسرائيليون. وسرعان ما يندم ويطاردهم بجيش محمول على المراكب التي تجرها الخيول، وما ذلك إلا ليخضع للمعجزة التي تتوج كل المعجزات: ينشقّ البحر الأحمر ويسير الإسرائيليون عبره على أرض البحر، ولكن عندما يتبعهم المصريون يعود مدّ البحر إلى الارتفاع فيغرقون.

من الواضح أنه كانت هناك مباراة في صنع العجائب فاز فيها موسى. ولكن ماذا كان يفعل بالضبط؟ عندما يُطلَق على المناورة الاستهلالية بالعصا اسم المعجزة، فهل يعني ذلك مجرد نوع أقوى من السحر؟ لا. فالفارق حاسم، وهو ليس فكرة لاحقة جاء بها اللاهوتيون في عصور متأخرة؛ إنه يبرز مرة بعد أخرى، حتى هنا فيما يُقرأ مثل عجيبة بدائية. وحكماء فرعون وعرّافوه يقدّمون حيلاً «بوساطة فنونهم السريّة» – والعبارة تُستخدم في كل مرة. وخلافاً لهم، فإن موسى يمكن وصفه بأي شيء إلا الحكيم. فليست لديه فكرة عن مسألة كيف تحدث الظواهر. الرب يصدر الأوامر وهو يطيعها. إنه إلى أن تبدأ المعركة وتعطيه الثقة مذعور ورافض.

إن المعجزات التي تحدث لموسى هي أعاجيب يرسمها الرب الذي يسيطر على الطبيعة، ليدخل الرهبة في نفوس من يقمعون الشعب المختار. وإلى الآن فالتصورات العبرية واليونانية تسير على الخطوط ذاتها إلى حد كبير. تأتي المعجزات من مصدر إلهي. ولكن مقاومة فرعون، بمحاولتها القيام بعمل مضاد لتكذيب المعجزات، تقدّم مسألة إضافية. إنها ليست مقاومة لنظام إلهي منافس. إذ

يمكن أن نتوقع أن نسمع عن آلهة مصر يعارضون الرب، كما يحارب الآلهة الطرواديون آلهة الموالين لليونان في ملحمة هوميروس، ولكننا لا نسمع. والآلهة المصريون الأقوياء – رع وأوزوريس وسواهما – لا ينزلون إلى الميدان أبداً. لا يرد ذكر لآلهة مصر إلا في جملة واحدة عندما يَعِدُ الرب بتنفيذ حكم عليهم (١٢:١٢). وينظر مؤلفو القصة إليهم على أنهم أوثان عاجزة. وليس حماة فرعون من موسى كهنة بل سحرة. وعندما يعترفون بالهزيمة بعد وباء البعوض، يقرّون بالاختلاف بين عجائبهم وعجائبه. يقولون لفرعون: «هذه أصبع الله.»

ليست المعجزات سحراً. وحيل السحرة هي مجرد نتائج نمطية رتيبة يعرفون كيف يحدثون نسقها، «بوساطة فنونهم السريّة»، وهي تدهش أي شخص سواهم لأن الفنون ظلت سرية. وهي من نوعية حيل المشعبذ المسرحي الحديث. وسيكون هذا صحيحاً حتى إن كان هؤلاء السحرة سحرة حقيقيين، يؤدون أعمالاً بارعة يجهلها العلم. ولن يختلف الأمر كيفما تصورنا أنهم يقومون بحيلهم، فهم لا يصنعون معجزات. والمؤرخ اليهودي جوسيفوس يعيد سرد القصة في القرن الأول من التاريخ المسيحي، فيجعل موسى يقول لفرعون: «بالفعل، أيها الملك، أنا أترفع أيضاً عن فكر المصريين، ولكنني أجزم أن الأفعال التي قمت بها تفوق سحرهم كما تنأى الأشياء الإلهية عما هو بشري. وسأبين أن ذلك لم يصدر عن حرفة أو غش للحكم الصحيح، وإنما تنبعث معجزاتي من عناية الله وسلطانه.»

ليست المعجزات سحراً؛ أو لنعبّر عن ذلك بدقة أكثر، إنها متميزة من السحر كما يزعمه السحرة (حقاً أو باطلاً). إذ يُفترض أن السحر مجموعة من التقنيات لإحداث أحداث غريبة، أو تحقيق معرفة شاذة. ويُزعم أن في وسع البشر أن يتعلموا هذه التقنيات ويطبقوها، واعين، ومتعمدين، وعارفين إلى هذا الحد أو ذلك ما سيحدث. ومن ثم ينتمي السحر إلى النمط النظامي الذي ينتمي إليه العلم ذاته. وبالفعل فإن السحر الأشد يتداخل مع العلم: إن الخيمياء تؤول إلى الكيمياء، وعلم التنجيم إلى علم الفلك. ويصرّح الساحر بأنه يقوم بما لا يستطيع القيام به من

لم يكتسبوا معرفة وخبرة في هذا الموضوع، وينبهتون منه. بيد أنه يقوم به بنفسه. ولو حصل على مساعدة الأرواح أو العفاريت التي هي تحت إمرته. ولا توجد مسألة صنع معجزات في النظام. بل على العكس، فكونُ the magician's universe الساحر يحكمه قانون في كل أعماله، ولو أن بعض القوانين تبدو وهمية أو منافية للمعقول؛ وتقنيات التحكم بالنظام يمكن تعلّمها.

ومهما كانت ادعاءات الساحر الممتثل للمعايير المتّبعة شامخة، فهو في هذه الناحية يقف في الجهة التي يقف فيها المشعوذ. وقد يبدوان متشابهين كثيراً. وفي العام ١٨٥٦ كان الحكم الفرنسي للجزائر يهدده المرابطون – وهم رجال مسلمون مبجلون – حازوا على نفوذ في الشعب بتقديمهم عروضاً تنطوي على العمل العجيب، وأثاروا ثورة. فأرسلت الحكومة الفرنسية المشعوذ روبير أودان(١) الذي قدّم حركات سحرية أبرع وقضى على نفوذ المرابطين. وبالنسبة إلى الجزائري، لعله كان من الصعب أن يقول هل كان أودان يكشف أن المرابطين مجرد مشعوذين، أم يقوم هو ذاته بسحر حقيقي ومتفوق.

ونشأت شكوك متقاربة حول فنان حديث في الإيهام، هو «أوري جلر» Uri Geller، الذي يُصرّ على أن أعماله البارعة هي أكثر من شعوذة. ومناقشة جلر تفتح موضوعات مثل الإدراك الذي يعدو الحواس، وتبديل حالة الأشياء بالتأثير الذهني وحده، وعلم نفس الخوارق. وكما هي الحال بالنسبة إلى السحر، كذلك هي بالنسبة إلى هذه الأمور. إذا كانت حقيقية، وإذا كانت ما يزعمه المؤمنون بها، فهي ليست إعجازية أيضاً. فما يدّعى هو أنها تكشف قدرات إنسانية مجهولة، تنتمي إلى النظام الطبيعي وربما يمكن أن تُجلب إلى ميدان العلم. وهذا، مثلاً، هو موقف «آرثر كستلر» Arther Koestler في كتابه «**جذور المصادفة**». ويؤكد ليال

---

(١) روبير أودان Robert Houdin ( ١٨٠٥–١٨٧١): مشعوذ، يعدّ أبا الشعوذة الحديثة. ولد في «بلوا» Blois في فرنسا. صنع دمى سحرية وأشخاصاً آليين، وقدم سهرات سحرية في «الباليه رويال» Palais Royal (١٨٤٥–١٨٥٥). وفي سنة ١٨٥٦ أرسلته الحكومة الفرنسية إلى الجزائر للقضاء على نفوذ الدراويش بفضح معجزاتهم المزعومة.

واطسون Lyall Watson، مؤلف كتاب **«فائق الطبيعة»** من أول الكتاب إلى آخره أن الوقائع المحيرة التي يقدمها ليست فائقة للطبيعة. وقد حاول علم نفس الخوارق ابتداءً من (رائده) ج. ب. راين J.B. Rhine فمن بعده أن يدرس الإدراك الذي يعدو الحواس بالمناهج التجريبية. وهم بعملهم هذا يحاولون أن يقولوا في حاصل الأمر إن ظواهر الإدراك من دون الاستعانة بالحواس ليست إعجازية. والمسألة الرئيسية في التجربة هي أنها يجب أن تكون قابلة للتكرار، ومجمل القول، يمكن التنبؤ بها، وتحكمها القوانين وليست خارجها.

لاحظوا أنني حريص على الإلحاح على كلمة «إذا». فهذه الأمور ليست إعجازية... إذا كانت ما يزعمه المؤمنون بها. وليست أعمالاً سحرية بارعة... إذا كانت ما يدّعيه السحرة. وتبقى مسألة هي هل يعرف السحرة وعلماء نفس الخوارق، أو قد عرفوا في أي وقت، عمّ يتحدثون. فقد تكون بعض ظواهرهم حقيقية، ومع ذلك فقد يظل تفسيرها مغلوطاً فيه. وسوف نعود إلى هذا الموضوع. إلا أن المعجزة هي خلاف ذلك حتماً. فلا يُعتقد أنه يسببها بشر يطبّقون «فنوناً سريّة». ولا يُعتقد حتى أنها ناجمة عن قدرة لا يُدرك كنهها يمكن أن يستعملها بعض البشر حين يشاؤون من دون أن يفهموها. وهذه هي الناحية التي يقع فيها التعريف الويلزي في الغلط، ولذا فإن قصة ويلز، وإن تكن قطعة بديعة ممتعة، هي خارج الصدد. إن العمل الذي يسبب معجزة هو شيء **آخر**، متجاوز. وله علاقة بالعالم البشري وحاجاته، ولكنه ليس من ذلك العالم، ويؤثر فيه من الخارج. إنه «أعلى» ولا يمكن إرغامه، أو التنبؤ به، أو فهمه تماماً، ولو أنه قد يكون مدعوّاً. إنه يخلق أحوالاً خاصة، وبفعله ذلك يتواصل، يساعد أو يؤذي.

وخير تعريف وجيز للمعجزة هو أنها **استثناء مقدَّر إلهياً** – شريطة ألا نكون في استعمالنا كلمة «إلهي» نحتج بالحجة التي هي موضع خلاف. وإنه لصحيح أن المعجزات كانت تعزى تقليدياً إلى الآلهة، وفي معظم الأحوال، إلى الله الواحد في العقيدة اليهودية والمسيحية. ولكن الكلام عن أن المعجزة استثناء مقدّر إلهياً يجب عدم جعله يتضمن أن مثل هذه الكائنات الإلهية موجودة كما يُتخيّل. وليس، بالعكس، أن من الواجب جعل المعجزات تعتمد على وجودها.

لعلك تقول، «طيب، من الواضح أنه ليس هناك فائدة من الكلام عن المعجزات ما لم تثبت أولاً أن الله موجود ليقوم بها.» أو قد تقول، «طيب، أنا لا أؤمن بالله، ولذا لا فائدة من التكلم عن المعجزات.» يجب ألا يُسمح لأي تعليق منهما بأن يغلق النقاش. إن كلمة «إلهي» كما استخدمتها هنا، لا تشير إلا إلى **الشيء الآخر**. وقد فسر الناس هذا بأنه الله، أو مجال الآلهة، ولذا تبدو كلمة «إلهي» أفضل مصطلح. وربما كان الناس مخطئين. وقد لا يكون آلهتهم سوى رموز. إن ما تتضمنه كلمة الإعجازي على أقل القليل هو أنهم رموز **للشيء الآخر** الذي يكون هناك بالفعل، ولو أنه ليس لدينا اسم له. قد تؤمن بهذا أو قد لا تؤمن، ولكن السبيل الوحيد إلى بتر المعجزات من أصلها (إذا جاز أن يقال ذلك) هو دحضها. ولا أرى كيف يتم ذلك، وما دامت المسألة تبقى مفتوحة – ولا أكثر من مفتوحة – يمكن أن تستمر المعجزات في أن تناقَش.

لقد دوّن ب. د. أوسبنسكي P. D.Ouspensky، وهو من أتباع المعلم الباطني غوردجييف Gurdjieff، بعض لقاءاته مع **المعلم** في كتاب يسمى «**بحثاً عن الإعجازي**». يحاول في أول الكتاب أن يفسر استعماله للكلمة.ويدلي بحجته أن الحياة اليومية هي «فيلم ضعيف عن واقع زائف». ووراءه يوجد «واقع آخر يفصلنا عنه شيء ما، لسبب ما». ويحدث الإعجازي عندما نكون على اتصال بهذا الواقع المجهول، ولذا تُجعل أعماله مرئية لنا مدة لحظة. وينقل أوسبنسكي الفكرة ذاتها من دون إيراد الآلهة، أو الله. ولكن واقعه الآخر والأكثر حقيقية يمكن إلى حد ما أن يطلَق عليه الإلهي.

وهناك شيء آخر مهم للفهم، ولو أنه لا يكاد يكون جزءاً من التعريف. إن وراء المعجزات هو الاعتقاد بأن **الشيء الآخر** يوجد، وينسج مخالفاتِ النظام في الأنموذج؛ ولهذا الاعتقاد صبغة متمردة، متحدية. ومهما كان **الشيء** فهو يرفع الإنسان فوق قدره الظاهر.

لم يسبق أن كان تقدم التنظيم الاجتماعي، ونمو التصور العلمي لكون منظَّم بركتين خالصتين. كان رعايا الإمبراطوريات القديمة يشعرون أنه يُطبِق

عليهم قدر لا يلين، وتجور عليهم سلطات نائية، وتقهرهم وتحبطهم وتؤذيهم «الطريقة التي تسير بها الأمور». وكان المجتمع المنظَّم يعني لمعظمهم العبودية ودفع الضرائب والحرب. وكانت القوانين الطبيعية تعني لمعظمهم المرض والشيخوخة والموت، مع القليل الباقي من الإيمان الأقدم بالخلود. ومن حيث النتيجة فإن الإيمان **بشيء آخر**، قادر على قصف القيد، ساعد الكثيرين على الارتفاع فوق الهزيمة واليأس. ومن هنا بعض معجزات الدين الكبيرة. وبكل القوانين، كان الإسرائيليون في مصر مستعبَدين إلى الأبد، ولكن موسى جاء لإنقاذهم بإله وَسِعه أن يقضي على تيقّنات فرعون. وآلهة الشفاء أمثال «أسكلبيوس» حافظوا على الأمل حياً عندما لم يستطع الأطباء أن يفعلوا أي خير .ويظل الأعظم هو الانتصار على الموت اليقيني فوق كل يقين؛ لذا كانت معجزة المسيح العليا، التي تبزّ كل المعجزات الأخرى، هي القيام من الأموات.

وفي كل هذه الأحوال وكثير غيرها، تشتمل القصص على أرباب شخصيين. والمعجزات، ولا سيما في اليهودية والمسيحية، تقدَّم غالباً على أنها «علامات». وغرضها هو، على وجه الدقة، شدّ عَضُد المؤمنين بتأكيد أن الله موجود، وكلي القدرة، وحام أو محب، وقادر على إنقاذهم مما يحيط بهم من الشقاء والهلاك. وبرنارد شو في مسرحية «القديسة جوانا»(١) يأخذ هذه المسألة التي من الصعب أن تقبلها العقيدة السلفية: وهي أن المعجزة ليست بحاجة إلى أن تكون معجزة حقيقية أبداً، ما دام تأكيد الواقع الإلهي المخلّص يأتي من خلالها. يتكلم بطرك رِيس:

**المعجزة، يا صديقي، حادثة تخلق الإيمان. ذلك هو قصد المعجزات وطبيعتها. قد تبدو شديدة الإدهاش لأناس شهدوها، وبسيطة جداً عند من أنجزوها. ذلك لا يهم: إذا كانت تثبّت إيماناً أو تخلقه فهي معجزات حقيقية.**

---

(١) ظهرت مسرحية «القديسة جوانا» Saint Joan سنة 1923 عندما كان شو في السابعة والستين من العمر وفي كامل نضجه.

ويعترض عليه أحد الحاضرين:

**أتقصد حتى عندما تكون خِدَعاً؟**

يجيب البطرك:

**الخدع تخدع. والحادثة التي تخلق الإيمان لا تخدع. لذا فهي ليست خدعة، بل معجزة.**

وفي مرة أخرى، تسير بضعة أقوال إلى أبعد من ذلك:

**ليست المعجزات خِدَعاً لأنها غالباً - ولا أقول دائماً - بسيطة جداً وتدبيرات بريئة يقوّي بها الكاهن إيمان رعيته. وعندما تصطفي هذه الفتاة ملك فرنسا من بين كل رجال حاشيته، فلن يكون ذلك معجزة بالنسبة إليّ، لأنني سوف أعرف كيف يتم ذلك، ولن يزداد إيماني. أما الآخرون فإذا شعروا بهزة ما فوق الطبيعي، ونسوا طينتهم الآثمة في إحساس مفاجئ بمجد الله، فسيكون ذلك معجزة ومعجزة مباركة.**

بكلمات أخرى، حتى الحيلة الشعوذية يمكن أن **تكون** معجزة بالفعل، إذا تمت في جو إعجازي، إن جاز التعبير. من الصعب أن نوافق على هذا الخلط في المصطلحات، ولكن شو يُبرز جانباً مهماً في الموضوع. وربما يساعدنا على فهم علم النفس وأن نرى كيف يمكن التفكير في الإعجازي (أو شبه الإعجازي على أية حال) من دون إله شخصي مستوفي الصفات.

لأن ذلك يمكن أن يكون. فإذا أخذنا بيئة يحمل فيها الدين وزناً ضئيلاً، فمن شأن الدافع ذاته أن يظهر نفسه في إغراء المقامرة. والمعادل السيكولوجي للمعجزة عند ملايين الناس هو الفوز في لعبة يا نصيب كبيرة - الحادثة الاستثنائية تماماً والتي لا يمكن تصورها بعد، وتقدّم أمل الهروب من الكدح اليومي، ومن العمل الرتيب في صف التجميع أو في الوظيفة. وإذا اعتمد كل المقامرين على الحظّ دون سواه، فإن التوازي مع معجزات الدين لن يمضي إلى أبعد من ذلك. ولكن في الحقيقة كثيراً ما يظل الجانب الفائق للطبيعة، **الشيء الآخر**، موجوداً.

إنه يظهر في الخرافات التي لا عدّ لها ويتعلق بها المقامرون بشدة، وفي الصور الذهنية حول عامل غيبي يمكن أن يحدد اتجاه قوانين الاحتمال، ويجعل الاستثناءات في صالحهم. وسيدة الحظ أو «الليدي لك» Lady Luck قلّما تكون إلهة يتم الإيمان بها حرفياً (مع أنها كانت كذلك فيما مضى، تحت اسم الإلهة فورتونا)، ولكن ما تمثله هو بصراحة خارج النظام العقلي للأمور.

أمامي إعلان في صحيفة مقدّم من منجّم وتاجر في «الأشياء الصغيرة السحرية». في الأعلى صورة لزوجين يفتحان باباً كبيراً يفضي من شارع مظلم إلى حديقة مشمسة. وفي أسفل ذلك هذا العنوان.

## ادفع باب الحظ وافتحه

ثم تَرِد شهادة من شخص قد فاز فعلاً في اليانصيب. «إن السيدة أ.ت. وورستر أعطت دفعة لباب حظها عندما أخبرتها أنها تستحق تغييراً في الحظ.» والادعاءات التي تلي ذلك بالمعرفة الباطنية قائمة أساساً على علم التنجيم وعلم الأعداد السحرية («الأعداد المحظوطة»)، وهي إلى أبعد حد علمية زائفة. ولكن بقراءة كاملة، يقول المنجّم: «**أعطيك شيئاً سحرياً صغيراً هو شعار الجُعل** الذهبي المصري، الذي ظل يُعبد أكثر من خمسة آلاف سنة في الشرق الحافل بالأسرار بوصفه **ملك الأشياء السحرية الصغيرة !**) لماذا لا يرغب القراء أياً كانوا في مِثل هذا الشيء أو حمله؟ إن الحافز الوحيد الذي يخلق حتى الإحساس الخفيف هو فكرة متلبثة عن القوى فائقة الطبيعة، التي سوف تستثنيهم من أعمال الاحتمال، وتدفع الحصص المقسومة... حرفياً.

# الفصل الثاني

## المختـار

من الناحية التاريخية، تحيط المعجزات بالدين. إلا أنها لا تبرز بالتساوي في كل دين. فهي في بعض الأديان قليلة وهامشية. وفي غيرها، على الرغم من أن الأعاجيب المزعومة وافرة، فمن المشكوك فيه أنها يجب أن تسمى معجزات. وللموضوع منطقه، ولا تمكن مقاربته مقاربةً مرضية إلا بسبيل واحد: هو سبيل التراث الواحد الكبير الذي تم فيه إيجاد فكرة الإعجازي على أكمل وجه. وهذا هو السبيل الذي كنا قد توقفنا عنده، والذي يبدأ بـــ «العهد القديم» مع ديانة إسرائيل القديمة، ثم ينتقل إلى اليهودية والمسيحية.

والسبب الذي يجعل المخطط اليهودي – المسيحي يذهب بالفكرة إلى أبعد الخطوط يكمن في الأسلوب الذي يتصوّر فيه «**الشيء الآخر**». إن إلهه ليس كآلهة اليونان.

ومع أنه قد أُقرّ لآلهة اليونان بأعمال يمكن أن تدعى معجزات، فإن طبيعة تلك الأعمال ليست مضبوطة جداً، وقد مال الفكر اليوناني المتقدم إلى أن يتركها وراءه بدلاً من أن يحاول تعريفها. وكانت علاقة الآلهة بعالم البشر، في آخر ما يُتذرّع به، علاقة غامضة. كانوا هم «الآخر» بالفعل، ولكنهم ليسوا كذلك تماماً. ولا ريب أنهم كانوا في أعلى درجة، وفوق مستوى البشر، وخالدين. ووُضِعوا جانباً باتخاذهم مكاناً لهم في جبل أولمبُس. ولم يكن هذا جبلاً حقيقياً سمّي بهذا الاسم، بل هو مجال علوي في نوع من الرقيع الأعلى، يسمّى «الأيثر» aither. ومع ذلك فمهما كان مسكنهم متعذر الوصول إليه، فلم

يكن يُتصوّر أنه خارق الطبيعة حقاً، وفي الخارج حقاً. فقد ظل ضمن كوننا، وكذلك الآلهة، الذين حتى لم يمارسوا سلطة غير مقيدة، بل كان يصدّهم **القدر**. فهل كان لحادثة أن تكون إعجازية بحق إذا كانت ناجمة عن مجرد جزء في النظام الكوني، هو إله، يعبث بجزء آخر مثل حاجّ مريض في معبد؟ إن اليونانيين لم يفضّوا هذه المسألة. لم تكن مثيرة لاهتمامهم إلى حد كاف. وعندما ولّت وثنيتهم، انسلّت علاجات إله الشفاء أسكلبيوس وعملية دحر الإله أبولو للجيش الفارسي إلى زاوية النسيان.

كانت الألوهة عند الإسرائيليين أمراً مختلفاً. ولم يكن هنا سوى السلطة العليا الوحيدة التي تُحسب، وهي يهوه، باستخدام الاسم العبري للرب إله موسى. ولا يمكن أن نتيقّن ماذا قال موسى ذاته حقاً حول إلهه. ولكن أسفار «العهد القديم» في شكلها الحالي قد أُلفت بعد ذلك بقرون، على ضوء الرسالة التي أنشأها المعلمون المتأخرون، وخصوصاً الأنبياء أمثال أشَعيا. وإنه لواضح أنه في أي عصر يمكن إلى حد ما أن يسمى تاريخاً، فإن إله إسرائيل كان مختلفاً عن البقية بفارق كلي. كانت «آخَريّته» جذرية. وقد وجد قبل العالم، وكان سيد ذاته، وغير محدد بأي **قدر** أو يكتنفه أي أنداد إلهيين. صنع العالم بمفرده ثم حكمه. ولكنه يتجاوزه، يقف خارجه تماماً كما لم يقف آلهة الأمم الأقوامية(١). ومن ثم فإن أية عجائب يمكن أن يحدثها في العالم كانت استثناءات حقيقية وذات معنى، وليست متولدة من داخل النظام بل مقدّرة من الخارج؛ وهو وحده يمكن أن يقدّرها. وكان الإسرائيليون شعبه المختار. ويصوّر «العهد القديم» أعاجيب كثيرة قام بها الرب لمصلحتهم، كتلك التي تصاحب هروبهم من مصر.

---

(١) الأقواميون هم غير اليهود، ويقابلها في الإنجليزية gentiles، وفي العبرية الـ «قوييم». ولا يدل مصطلح gentiles على «الأمم» أبداً، كما جاء – للأسف – في ترجمات لبعض كتب ك.غ. يونغ لم يحالفها الكثير من التوفيق. راجع، مثلاً ترجمة كتاب يونغ «جواب إلى أيوب» المعنونة بالعنوان الشاذ «**الإله اليهودي**»، من دون أية إشارة إلى ترجمة العنوان الأصلي. دار الحوار للنشر، اللاذقية، 1986، ص 23 .

ومفكرو إسرائيل، والحاخامات اليهود الذين طرحوا أفكارهم فيما بعد، لم يسيروا في كل الطرق المؤدية إلى المفهوم القائل بأن العالم يجري مثل آلة، وخالقه منفصل عنه تماماً. وفي عصر علمي قد نشعر بأننا مرغمون على تصوّر أن الكون تحكمه قوانين طبيعية، وتدخل فيه المعجزات (إن وجدت) بوصفها تدّخلاً إلهياً... إذا لم نقل اعتراضاً. وليس هذا بممكن بعدُ في محيط «العهد القديم». ففيه يُدرك أن الطبيعة، إجمالاً، تسلك مسلكاً منتظماً وموثوقاً به، ولكنه كذلك لأن الله يحكمه على هذا النحو، ولا تحكمه النزوة. وبقطع النظر عن البشر – الذين هم أحرار في التمرد وكثيراً ما يتمردون – فإن كل الأشياء، الحية وغير الحية، تطيعه. وعموماً لديهم أوامرهم. ولكنه يستطيع، حسب مشيئته، أن يبطل تلك الأوامر بأمر خاص، وبتلك الطريقة يصنع المعجزات. ووفقاً لأحد المأثورات اليهودية، فقد علم سلفاً في أثناء الخلق أية معجزات ستكون مطلوبة في مجرى التاريخ، ودبّر مقدّماً ما يتصل بها من أشياء طبيعية. فالبحر، مثلاً، وافق على أن ينحسر عندما يريد الإسرائيليون الهاربون من مصر أن يعبروا آمنين. ومتى ما عبروا، عاد إلى حالته السابقة، أو بعبارة أخرى، إلى العمل على مألوف العادة.

وعلى ضوء العلم، لم يعد يمكن للّاهوتيين اليهود والمسيحيين اليوم أن يتبنّوا مثل هذه الرؤية الساذجة. عليهم أن يقبلوا أن الأمر الطبيعي واقع (ولو أنه واقع من صنع الله) يكشفه العلم، ثم يرسم خطاً يفرز الله وأعماله الخاصة بوصفها فائقة للطبيعة، وفوق متناول العلم كلياً. ولسنا بحاجة إلى الخوض في مجادلاتهم. والمسألة الوحيدة التي تهمّنا هنا، ونحن نقارب جملة قصص المعجزات في النصوص المقدسة، هي هل يمكن لهذا التوفيق أن يصمد في كل الأحوال ويسمح لهذه القصص بأن تكون صحيحة.

كانت الفكرة التي أُخذ بها إلى حد ما في القرن الثامن عشر، وإلى حد أكبر بكثير في القرن التاسع عشر هي أن العلم – أو، على الأقل، أسلوب التفكير الذي يقوم عليه العلم – قد تقدم إلى حد يدحض معجزات الكتاب المقدس؛ حيث فجّر

المعجزات برمتها. وأدلى الفيلسوف ديفِد هيوم بحجّته وهي أن خبر المعجزة لا يمكن أن يكون جديراً بالتصديق مع شهود أحياء، وهو أقل جدارة بالتصديق مع شهود أموات من آلاف السنين. وكان السبب الذي قدّمه هو أن افتراض أن «الطبيعة لا بد أن تسلك مسلكاً منتظماً على الدوام» معروف الآن أنه أقوى من أية شهادة على مسلكها بخلاف ذلك. ومن ثم، فقد يُقسِم عشرون شاهداً أنهم رأوا جثة تعود إلى الحياة. ولكن ما دامت التجربة كلها تؤكد لنا أن الجثث لا تفعل ذلك، فإن النهج العقلي يظل يرفض المعجزة، ويتبرأ من قصة الشهود على خير وجه نستطيع القيام به (كانوا جميعاً مخطئين؛ أو كانوا جميعاً كاذبين؛ أو أي سبيل آخر للنجاة نفضله، مهما كان بعيد المأخذ، لأن أي شيء أجدر بالتصديق من الخرق في التتابع النظامي للطبيعة). وفي الوقت المناسب جاء نقاد الكتاب المقدس، أمثال إرنست رينان، الذي أصدر سنة ١٨٦٣ كتاباً رائجاً جداً عنوانه «حياة يسوع» حاكه كله من بديهية أن المعجزات لا تحدث، ولذلك فإن القصة الإنجيلية يجب أن تُكتب من جديد للتخلص منها.

ولعله كانت لدى القارئ المحترس شكوكه، حتى في ذلك الحين. إن المؤلفين الذين أحدثوا أشد الجلبة كان من شأنهم هم أنفسهم أن يكونوا غير متّسقين، أو أن يحيدوا عن المسألة الحقيقية. وهيوم، مثلاً، يفسد قضيته بإثباته في كتاب آخر أن «افتراض» أن الطبيعة تسلك مسلكاً نظامياً على الدوام ليس له أساس منطقي. وخان رينان فكرة أنه حتى لا يعلم ما المقصود بالمعجزة، برفضه الاعتراف باحتمالها إلا إذا قام شخص بتشغيل شخص آخر حسب الطلب في شروط مسيطَر عليها – وهذا اختبار من الممكن تطبيقه على ساحر، ولكن لا يُحتمل تطبيقه على الله.

واليوم، فإن الفكرة القائلة بأن «المعجزات لا تحدث» وأن «العلم يدحضها» لا تزال جارية. ومهما يكن، فإنها محض عقيدة قطعية، وتجب إزالتها من الطريق لتقدير قيمة المعجزات في النصوص المقدسة. وقد يكون موقف اللاهوتيين صحيحاً وقد لا يكون، ولكنه يمكن الاحتفاظ به. فالعلم يدور حول ما يحدث نظامياً. وهو

مؤسَّس على التعميمات من دراسة أحوال كثيرة. والمعجزة استثناء، وهي حادثة مستقلة. إنها خارج شبكة التعميم. ولذلك هي خارج شبكة العلم.

ولا يزال معروفاً أن الدوغمائيين من غير المؤمنين بالدين يستخدمون الحجة القائلة بأن المعجزات لا يمكن أن تحدث لأن قوانين الطبيعة لا يمكن أن تُخرق. يقولون إنه لو خرجت عن القواعد حادثة مفردة، لتراكمت النتائج وانزلق الكون بأسره إلى الفوضى الشاملة. تنتمي هذه الحجة إلى العصر الفيكتوري وحتميته الصارمة أكثر مما تنتمي إلى عصرنا الأدعى إلى الحيرة وفيزيائه النووية. إلا أنها كانت حتى في العصر الفيكتوري مشكوكاً فيها.

أولاً، إن الاستثناء ليس استثناء. ولو خرج شيء ما عن القوانين الطبيعية تماماً، لما كانت لدى العلم وسيلة للتنبؤ بنتائجه. وقد ينزلق الكون إلى فوضى شاملة، ولكنه بعدئذ قد لا ينزلق مرة أخرى. ثانياً، ما دام الله – في المنهاج اليهودي – المسيحي هو ذاته مصدر القوانين التي تحكم الخلق، ففي وسعه أن يعلّق عملها. ونكتة الاحتجاج هنا هي المعجزة الهائلة في «**سفر يوشع**» ١٠: ١٢–١٤، فحين يحتاج يوشع إلى مزيد من الوقت لهزيمة الأموريين، تتوقف الشمس بأمر الرب، معطية نوبة إضافية من ضوء النهار. ويلحّ المعترضون (ولعل بعضهم يتذكر السيد فوذرينغاي Fotheringay) على أن الشمس لا يمكن أن تتوقف إلا إذا توقفت الأرض عن الدوران، وإذا توقفت، كان من شأن كل شيء سارح عن النظام أن يفلت. ولكن لماذا؟ إذا كان في مقدور الله أن يعلّق القانون الطبيعي في ناحية، فهو يستطيع أن يعلقه في غيرها من النواحي. إنه قادر على أن يجعل الاستثناء كاسحاً كما يختار، لا مجرد إيقاف الأرض عن الدوران، بل إلغاء قدرة المتحركات على الحركة على سطحها.

ليس من شأن أية فكرة من هذه الأفكار أن تدافع عن معجزة يوشع بوصفها واقعة تاريخية، بل أن تقتصر على الإشارة إلى أنه لا يوجد دحض منطقي فوري، حتى لعجيبة خارجة عن النظام كهذه. ويمكن تطبيق العلم – وبالمعنى الأوسع، الأنموذج العلمي في التفكير – على كتاب مقدس بكل أنواع الطرق. يمكن بكل تأكيد إظهار أن «العهد القديم» ليس تدويناً حرفياً للواقع من

مبتدئه حتى منتهاه. وعلم الفلك وعلم الجيولوجيا يدحضان قصة الخلق. وعلم الآثار القديمة وعلم الأعراق يدحضان بعض الحوادث التاريخية. والأصولية[1] لن تحل المسألة. ولكن الأصولية قائمة على سوء فهم لأية حالة، وعلى سوء فهم قريب العهد إلى حد ما. وبينما كانت الكتابات اليهودية والمسيحية الباكرة حول **العهد القديم** تجنح نحو الاعتقاد الساذج، فإنها تبدي إدراكاً كافياً أنه ليس كل المقصود يُفهم حرفياً. لذلك لا يستطيع العلم أن يفتتها على أساس المبادئ العامة. ولا بد لأية فقرة مذكورة، وفي جملة ذلك قصص المعجزات، من أن توزن وتقوّم باحتراس قبل إصدار أي حكم. ومن جديد ليست هناك إجابات فورية.

وعلى الرغم من أن العلم لا يستطيع أن ينقض المعجزات من حيث هي، ففي وسعه أن ينقض معجزات معينة، وتلكم حقيقة ينبغي أن تكون في أذهاننا عندما نتفحص كتاباً مقدساً. وفي أثناء قيامه بذلك يثير مسألة العكس- هل بوسعه يا ترى أن يثبت معجزة معينة. من الواضح أنه لا يستطيع القيام بذلك مباشرة للسبب الذي رأيناه وهو أن المعجزات هي خارج العلم. مع هذا فإن لمناهجه النقدية صلة بالمعنيين الإيجابي والسلبي على حد سواء. واليوم، إذا زُعمت معجزة، استطاع العلم أن يسبر الدليل. فيمكن أن يتخلص من المعجزة بتبيان أن الدليل ضعيف جداً، أو أن فيه فجوات خطيرة الشأن. وإذا كان الدليل جيداً، يظل بإمكان العلم أن يظهر أن الحادثة يمكن أن تفسرها الأسباب الطبيعية. وهذا هو الإجراء الذي تم بالنسبة إلى «المكتب الطبي في لورد» Lourdes، الذي يردّ كل حالات الشفاء في «لورد» تقريباً إلى أسباب غير إعجازية. ولكن نادراً، نادراً جداً بالفعل، أن تكون الوقائع قد جرى إثبات صحتها جيداً ولا يظهر تفسير طبيعي. وعندئذ يُعطى الإذن بأن تُدَّعى معجزة.

وسواء أكان إجراء «لورد» قد تمت متابعته بتدقيق كاف أم لا (سوف نعود إلى ذلك)، فالمنهج قائم على الواقع، وصحيح بالنسبة إلى **الكتاب المقدس**

---

(١) المقصود بالأصولية هنا الأصولية المسيحية، التي تعني الاعتقاد بأن «الكتاب المقدس» بقضّه وقضيضه من الله لفظاً ومعنى. وهي تختلف عن الأصولية الإسلامية التي تُطلق على الحركة التي تدعو إلى التقيد الصارم بالشريعة الإسلامية.

كذلك بمقدار ما يمكن تطبيقه على مسافة زمنية كهذه. علينا أن نكون متنبهين دائماً إلى كل إمكانية. ومن حيث القاعدة، علينا أن نقاوم المعجزات حتى النهاية. مع ذلك علينا أن نكون مستعدين لقبول أنها يمكن البرهان عليها في بعض الأحيان – أو أنها، على أية حال، مزكّاة بقوة شديدة – بالافتقار إلى أي بديل. ويمكن للتحري العقلي أن يظهر (آ) أن شيئاً ما حقيقي و(ب) أنه لن يشمله تفسير طبيعي معروف.

إذن كيف علينا أن نقدر قيمة المعجزات في **العهد القديم**؟ هل حدث أي منها، أم أن قيمتها محصورة في مساعدتنا على التفكير في الإعجازي؟ إن الأمر الأول الذي علينا أن نعرفه هو أن تلك القصص ذات أنماط مختلفة. ويمكن أن تُصنَّف تحت أربعة عنوانات.

إذا ابتدأنا من أقلها وجوداً حقيقياً، فإن النمط الأول هو «**الحكاية العجيبة**» البسيطة. والقصة التي تقع في هذا الباب هي ببساطة، وفي كل مظاهرها،مأثور شعبي شفوي. وفي **العهد القديم** القليل جداً من هذا الأمر، بسبب جدّيته، واهتمامه الدائم بالعلاقات بين الله والبشر. حتى أشد الحكايات البطولية بدائية، حين تُستخدم، تُخلَع عليها المعاني والمغازي الأخلاقية. وربما كان أقرب شيء إلى حادثة الحكاية العجيبة الخالصة هو مصرع البطل شمشون، رجل إسرائيل القوي. إن لديه فورة حاسمة من القوة الفائقة تمكّنه من تقويض معبد الفلسطينيين، ساحقاً نفسه وأعداءه في الخرائب (**سفر القضاة** ١٦: ٢٨–٣٠). وكما هو واضح من فقرة سابقة، فإن قوته مرتبطة بطول شعره. ويفقدها حين تقص دليلة شعره، ويصبح قيامه بالهدم الكبير ممكناً، عندما ينمو شعره مرة أخرى، من دون أن يلحظه الفلسطينيون. حتى هنا فإن الرب منخرط بصراحة. ويدعو شمشون ربه قبل أن يشدّ عمودي المعبد بعنف، ويبدو أنه صار أقوى مما كان من شأن طول شعره الفعلي أن يضمنه. إلا أن معجزة إلهية قائمة على موضوعة الشَّعر لا تحتاج حتماً إلى أن يقام لها وزن كبير. والحادثة البارزة الأخرى التي لها صفة الحكاية العجيبة هي

مغامرة يونان في «جوف الحوت» (**نبوءة يونان** ١: ١٧-٢: ١٠)، ولو أن المحاولات قد بُذلت لاكتشاف دلالة أعمق فيها.

ثانياً تأتي **الحكاية ذات الغرض**. والقصة التي هي من هذا الصنف تحمل وزناً أكبر من النوع السالف، ولكن تظل فيها الصفة الخيالية أو الأسطورية المميزة. وهي تُفهم على خير وجه لا على أنها تاريخ حرفي بل بوصفها أسطورة أو حكاية أخلاقية خرافية أو أمثولة رمزية، تروى لتعليم درس أو إثبات مسألة. ويمكن أن ننظر إلى إدراجها في كتاب مقدس على أنه استخدام مناسب للتخيل، أو أكذوبة كهنوتية، حسب الذائقة. وقضية أتان بلعام، ولو أنها تستخدم موضوعة الحكاية العجيبة، فإن تصنيفها هنا أصلح من أن تكون تحت العنوان الأول. فحادثة كهذه تكون معجزة لو وقعت، وهي كما رأينا مقدّمة في حد ذاتها بذلك الفهم. ومهما يكن، فهي لا تحتاج إلى أن تعد أكثر من حكاية أخلاقية خرافية تظهر قدرة يهوه على إتقان عمل ساحر وثني. وينطبق الأمر ذاته كثيراً على قصص إعجازية أخرى يبلبل الله فيها الأقواميين. إنه يرمي بناة بابل الكفرة بالبلبلة اللغوية (**سفر التكوين** ١١:١-٩). ويحطم وثناً فلسطينياً عندما يوضع تابوت عهده في مزار الوثن (**سفر الملوك الأول** ٥:١-٥).

ويحفظ «شدرك» و«ميشك» و«عبدنَجو» من الأذى في الأتّون الذي ألقاهم فيه نبوخذ نصر (**نبوءة دانيال** ٣: ١٩-٣٠). وقصة بابل، وهي أسطورة تفسر وجود لغات كثيرة، تستخدم هنا لإبراز تفوّق يهوه. وللقصص الأخرى القصد ذاته، كما تُبين خواتمها – إذ يُقهَر الفلسطينيون ونبوخذ نصر. ومرة أخرى ليست هناك حاجة حقيقية إلى البحث عن المزيد. فنحن لا نتعامل مع التاريخ، بل بالأحرى مع مادة قصة بطولية ومادة أدبية.

ومن المرجح أن الحالة شبيهة بصعود النبي إيليا إلى السماء في مركبة نارية (**سفر الملوك الرابع** ٢: ١١-١٢). ويقول المؤرخ جوسيفوس Josephus إنه ببساطة قد غاب عن الوجود. ويبدو خروجه بالمركبة شبيهاً بحكاية تُروى لتفسير اختفائه، بطريقة تنوه بقيمته في نظر الرب، الذي يُظن أنه قد رفعه إلى السماء.

ويمكن أن يوصف النمط الثالث من القصة الإعجازية في «العهد القديم» بأنه **التاريخ مزوّقاً**. فالقصة مبنيّة على شيء حقيقي، أو من المحتمل أن يكون حقيقياً. لدينا فيها صميم تاريخي. ولكن القصة تأسطرت، بنموها في القصّ، وصيرورتها أشد إثارة للعجب. وتنتمي معظم المعجزات العلنية التي يأتي بها الرب لموسى إلى هذا الصنف. وهكذا، فإن عدداً من الأوبئة التي ينزلها على مصر من الممكن جداً أن يكون قد حدث؛ ربما في خلال مدة أطول، وربما على نحو أقل فداحة، ولكن بقوة تراكمية كافية لإقناع المصريين بأن عبيدهم كانوا يجلبون لهم الحظ السيئ. حتى بعض الأوبئة الأكثر شذوذاً، كتحويل الماء إلى دم، هي حوادث ممكنة (بمعنى من المعاني) من دون أية معجزة حقيقية. فماء النيل يمكن أن يحمرّ بالكائنات الحية الدقيقة، أو بالرواسب الترابية الآتية من البحيرات الأثيوبية.

أما عبور الإسرائيليين البحر على الأقدام، عندما يخرجهم موسى من مصر (**سفر الخروج** ١٤: ٢١-٢٩)، فإنه يعكس احتمالاً معروفاً. وعندما لا يمكن أن ينشق البحر الأحمر لهم من دون معجزة حقيقية وكبيرة، فإن وجوده من المحتمل أن يكون خطأً جغرافياً. لقد عبروا «بحر القصبات» أو «بحيرة البَردي». وقد غيرت قناة السويس هذا الوضع، ولكن قبل حفر القناة كان الماء فيها ضحلاً جداً. وفي أوقات معينة من انخفاض الماء استطاع الفارّون أن يسيروا عبره. وكان من الممكن لتغير فجائي في الريح ومستوى الماء أن يردع المراكب المصرية التي يمكن أن تطاردهم. وكان هذا الإنقاذ بالنسبة إلى عقيدة إسرائيل أكثر من كاف لكي تنمو حوله. وهناك دليل ملموس على ذلك. إن مريم أخت موسى ترفع تسبيحة انتصار إثر ذلك (**سفر الخروج** ١٥: ٢١)- «سبّحوا الرب، لأنه قد تعظّم بالمجد. الفَرس وراكبه طرحهما في البحر» - وتوحي اللغة القديمة المهجورة بأن هذه التسبيحة هي أقدم شيء في «الكتاب المقدس»، ومن الممكن أن تكون قد أُلفت في الحال. ولكن المصريين لم يكن لديهم فرسان آنذاك، فيمكن لكلمة «الراكب» أن تعني «راكب المركبة».

ما نجده في قلب حكاية كهذه هو حادثة حقيقية كانت مدعاة للدهشة وفي الظاهر آتية بتدبير من الله، ولكن يظل من الممكن أن تحدث من دون معجزة. وإذا حدثت، فإن أكثر اللمسات الأخيولية – انشقاق البحر وارتفاعه مثل جدار على كل جانب، وغرق المطاردين بعودة البحر إلى ما كان عليه – يُقصد منها تضخيم الحادثة وتأكيد أن يد الرب فيها. (سمعت يهودياً أرثوذكسياً يدعوها على نحو يوافق المرام «ذات ألف نتيجة».) ويشبه ذلك سقوط أسوار أريحا، التي تنهار على صوت الأبواق الإسرائيلية بعد أسبوع من الطواف الطقسي حولها (**سفر يوشع** ٦: ١–٢١) وقد يكون حدث الانهيار مبنياً على معلومات متناقلة عن هزة أرضية. وبعدئذ بزمن طويل في «العهد القديم» (**سفر الملوك الرابع** ١٩: ٣٢–٢٥) نجد الرب ينقذ أورشليم من جيش سنحاريب، استجابة لدعوات الملك حزِقيّا، بإرسال ملاك يقتل مائة ألف وخمسة وثمانين ألفاً من الجنود الآشوريين. وقد شهد تدوين مستقل بصحة حصار سنحاريب. ويمكن أن يكون الجيش قد كسحه وباء؛ ومن المؤكد أن الملاك بمذبحته الهائلة هو صورة «ذات ألف نتيجة» عن العجائب التي يقوم بها الرب لشعبه. وفي هذا المثال كما في الأمثلة الأخرى **يمكن** أنه كانت هناك معجزة هائلة ومستوفية الصفات. لا يمكن دحضها. ولكن المصادر الآشورية لا تؤكد إلا أن الحصار قد تمّ الكفّ عنه. فكل ما يتطلبه تفسير الوقائع هو تأدية صغيرة، غير إعجازية، تُرفَع لتمجيد الرب الذي أنقذ أورشليم.

وتأتي رابعاً «**قصة المعجزة**» التي يمكن أن يُنظر إليها على أنها **حقيقية** ولكنها قابلة **لنزع اللغز عنها**. وفيها عدد من الأحداث التي وُضعت لتبدو إعجازية، ولكن في القص لا في الحوادث الفعلية. وربما حدثت فعلاً كما هو موصوف، ولكن من دون أية معجزة. والمؤلفون يودّون تقديمها بوصفها تبديات للقدرة الإلهية. وكان من شأن الناس الموجودين في ذلك الزمان – أو بعضهم، على أية حال – أن يفهموا طبيعتها. ويمكن أن نخمن ذلك بأنفسنا من الاستهانة بالتقديم، ومحاولة تفسير المعلومات ببساطة.

إن الرب يكلم موسى من وسط شجيرة عُليق تلتهب من دون أن تفنى (**سفر الخروج** ٣: ٢-٤). ومن الممكن أنها كانت «عُلّيقة غازيّة» أو «شجرة نبات كريتي طيب الرائحة» اشتعلت مصادفة. وعندما يهيم الإسرائيليون عطاشاً في البرية يضرب موسى صخرة فيندفق منها الماء (**سفر الخروج** ١٧: ٢-٦). لعله كسر قطعة من سطح جرف جيري، لإعطاء منفذ لينبوع ماء تحت الأرض. حتى في الحالة المشهورة والمستهجنة حول توقف الشمس من أجل يوشع (**سفر يوشع** ١٠: ١٢-١٤) فإن صميم القصة هو أنه أراد، ونال، مدة أطول من ضوء النهار ليقهر الأموريين الهاربين. لعل الأمر هو أن المطاردة قد جرّت جيشه من واد ظليل حيث كانت الشمس منخفضة وراء التلال، إلى بر مكشوف حيث لا تزال الشمس مرتفعة. ويظل هناك شيء من المبالغة، لأنه قيل لنا إن الشمس «توقفت في كبد السماء» مدة «يوم كامل تقريباً». أما بالنسبة إلى الحادثة الرئيسية فيمكن أن نظن أنها حقيقية، ولكن على أن جانبها الإعجازي أدبي وليس حرفياً.

ويمكن، بتحفظ، أن نُدرج تحت العنوان ذاته بضع حالات تناقَل فيها الموروث حادثة على أنها معجزة لأن أحدهم استخدم معرفة خاصة أو تقنية خاصة، لم تكن مألوفة في حينها. وهي عند الخبير إعجازية. وعند المشاهدين ليست بمعجزة. هناك مرتان على الأقل في سيرة إيليا، يبرز النبي في مشهد خارق للعادة تجعله المعرفة العامة اليوم أقل خرقاً للعادة. فعندما يموت غلام، أو يُعتقد أنه مات، يدعو إيليا ربه و«ينبسط على الطفل ثلاث مرات»، وفي إثر ذلك يعيده الرب إلى الحياة (**سفر الملوك الثالث** ١٧: ١٧-٢٤). أهذا تنفس اصطناعي؟ والمرة الثانية عندما يواجه إيليا أنبياء بعل على جبل الكرمل (**سفر الملوك الثالث** ١٨: ١٧-٤٠)، يثبت بمعجزة ظاهرة أن يهوه وليس بعل هو الإله الحقيقي: فاستجابةً لدعائه، وفي ظل تقدمة قربانية يشتعل الوقود من تلقاء ذاته. إنه في نطاق ما يقبل التصديق أنه استعمل عدسة محدبة تُحرق بضوء الشمس. وفي واقع الأمر كان الكرمل من الأماكن الأولى التي يُصنع فيها الزجاج. ولا ريب أنه ليست هناك حاجة إلى الإلحاح على أمثال هذه التفسيرات

«العقلية». والمسألة الأساسية هي أنها موجودة مع بعض معجزات «العهد القديم». وفي وسعنا، إن أردنا، أن نصدق القصة ومع ذلك نرفض المعجزة، بوصفها ليست أكثر من حذف المؤلف للتفسير.

ومن الصواب أن نميز صنفاً خامساً، شبيهاً بالصنف الرابع ولكنه ليس ذاته تماماً – هو قصة حادثة كانت **أعجوبة حقيقية في قديم الزمان**. ومن الممكن الجدال أن الحادثة لا تقتصر على أنها لم تحدث كما وُصفت، وإنما في ذلك الضبط للتأريخ والمكان كان بعيداً جداً عن فهم أي شخص أنه لم يكن هناك سبيل إلى تفسيرها إلا بعمل فوق مستوى البشر. والسبب، على أية حال، هو الجهل. ومن شأن التقدم المتوالي في المعرفة أن يمكّننا من تفسيرها.

وفي «العهد القديم» بضع قصص من هذا القبيل. ولكننا نعثر هنا وهناك على حادثة كان ينبغي أن تنتظر قدوم العلم لنزع خرقها للطبيعة، إلا أنه يمكن أن يتم ذلك الآن. يرسل الرب روحاً شريراً لإزعاج الملك شاوُل، فيعتريه ويسبب له سلوكاً لا يفسَّر (**سفر الملوك الأول** ١٦: ١٤، ١٨: ١٠-١١). وبعدئذ أجرى شاوُل لقاء مع رجل ميت، هو صموئيل صانع الملوك (**سفر الملوك الأول** ٢٨: ٨-٢٠). وفي كلتا الحالتين، لا يستطيع التفكير الإسرائيلي أن يتعامل مع الحادثة إلا على أنها ضيافة إلهية على حاكم لا يستحقها. وفي كلتا الحالتين، إذا كانت لدينا معلومات أفضل عن البنية الذهنية للشواذ، فلنا الحرية في أن نعتبرها تاريخية ولكن على أنها ناجمة عن اختلال ذهني. ويقوّي مظهر المعقولية اهتمام الإنسان ذاته بكلتا الحالتين. ويمكن للأسباب السيكولوجية أن تُفسِّر كذلك بعض تجارب الأنبياء الناشزة.

وسادساً وأخيراً، وبعد كل هذه الإسقاطات للمعجزات، لا بد أن تأتي «**المعجزة السليمة**» حيث لا توجد طريقة أخرى لتعليل المعلومات. هل تركنا أي شيء؟ وهل يقدم «العهد القديم» قصة واحدة تلبي المطلوب؟ يكاد يكون الجواب هو تأكيد النفي. فمعجزاته بعيدة في الزمان، والشهادة الشفوية متقطعة وغير ممحصة، بحيث يمكن أن نسوغ تصنيف كل الحالات تحت العناوين

الخمسة الأخرى. وفي الحقيقة، فإن عدة أمثلة تم اقتراحها هنا تحت العنوان الثالث والرابع والخامس من الممكن جداً ان يكون موضعها في الخلف أكثر، أي في مجال التخيّل.

وليس القول بذلك إسقاطاً للمعجزات نهائياً. فمن المحتمل أن يكون بعضها صحيحاً برغم كل شيء. ومن المحتمل أن بعضها قد حدث، وأن الرواية غير الإعجازية مغلوط فيها، ولو أنها متاحة. واليهود والمسيحيون الذين يريدون أن يصدقوها هم أحرار في ذلك. ولكن تصديقهم لها يجب أن يكون مسألة إيمان. يجب ألا يدّعوا أن منطقاً نزيهاً يؤيدهم. ويبدو أن النتيجة هي أن «العهد القديم»، بينما هو مسعف بالفعل للتفكير في المعجزات، أو حول أخبارها، فهو ذاته لا يزودنا بمعجزات مقنعة.

ومع هذا ليس هذا الحكم هو الكلمة الأخيرة. وقد يكون صحيحاً أنه في وسعنا أن نقدم الأعذار لكل معجزة في «العهد القديم» بالتفصيل. غير أن المعجزات هي عناصر من كل أكبر، وليست العناصر الوحيدة. وهو أكبر بكثير من أي عنصر من العناصر، وأكثر من حاصل لجمعها. وإذا نظرنا إلى ظاهرة إسرائيل التاريخية في كليتها، وجدناها أصعب بكثير من أن تفسرها أسباب طبيعية. وعلينا ألا ننظر إلى أبعد من أن الخبراء في «الدين المقارَن» قد أخفقوا إخفاقاً فاضحاً في تبيان كيف كان لهذه الأمة الصغيرة جداً، والعادية، والفقيرة ثقافياً أن تنتج مفهوم الإله، وسلسلة من الأنبياء، وأدباً عظيماً ليس له نظير بتاتاً عند الأمم الأخرى من النوع ذاته (بل حتى عند أمم أكبر). و«الكتاب المقدس» ذاته هو الرد الكامل على التحدي في أن الناس الذين انتحلوا لأنفسهم لقب «الشعب المختار» كانوا مجرد جمع من أناس قبليّين شبه همجيين، لا يختلفون عن المؤابين والأدوميين. فليست هناك كتب مقدسة ألفها المؤابيون والأدوميون.

لقد خلقت إسرائيل ديانة ارتفعت إلى ذرى لا نظير لها من الرفعة والتأثير، وعلى حد علمنا فإنها ليست «مجرد نمو» من شروط الوجود الإسرائيلي. كانت، في الحقيقة، ضد السليقة. وكانت إسرائيل في عصيانها

للعوامل والرغائب الطبيعية، التي يشهد بها الارتداد المستمر إلى عبادة بعل وهلم جرا، تتجرّ عائدة مراراً وتكراراً إلى تلك الديانة. وقد لا يوجد برهان على أن أية معجزة مفردة، على أن أية حادثة وحيدة في «العهد القديم» هي استثناء من معايير الكون. ومع ذلك كانت إسرائيل في كليتها استثناء من الأمم، أشدَّ الأمم غموضاً. وهذا ما يبرهن عليه التاريخ، والأنثروبولوجيا، وأي نظام معرفي يمكن أن يطبّق بوصفه اختباراً. وإسرائيل ذاتها، لإدراكها اختلافها جيداً، قد زعمت أن هذا هو ما قدّره ربها، الذي جل عن الطبيعة – والذي كان على وجه الدقة مصدر ما هو إعجازي. وهكذا يمكن أن يفسَّر سير إسرائيل بأنه معجزة معزَّزة في ذاتها، تستمر قروناً.

هل انهيار الباب السادس غلط، يسمح بأن ينسلّ منه عامل شديد الأهمية؟ وهل المؤمن الساذج محق برغم كل شيء؟ وهل علينا لكي نجعل لتاريخ إسرائيل معنى، أن نرفع بعض الأعاجيب إلى النهاية المعجزة أدبياً للسلّم، جاعلين ذلك التاريخ أشد فرادة بصورة محسوسة؟

إن من شأن اليهودي المتعلم جيداً أن يجيب «لا»، إلا إذا كان ينتسب إلى أشد المدارس الفكرية الأرثوذكسية صرامة. وسيكون جعل فرادة إسرائيل تعتمد على المعجزات بالتفصيل خطأ منظورياً، وإغفالاً للمسألة الرئيسية. قد يكون الرب قد قام ببعض الأعمال الخاصة أو لم يقم. وفي حياة شعبه المختار كان يعمل بصورة خاصة معه كله، ولو ليس بالأسلوب ذاته بالضرورة. وعندما كان الإسرائيليون يهربون من مصر، ربما انحسر الماء انحساراً طبيعياً. وليست المسألة المهمة هي أنه انحسر، وإنما أنه انحسر في اللحظة التي أرادوا أن يعبروا. أو إذا كنتم تفضلون، إنهم قد أُحضروا إلى هنالك في اللحظة التي كان موشكاً أن ينحسر. في كلتا الحالتين كان التواقت من عمل الرب. ومن جديد لعله عندما أشعلت تقدمة إيليا النار وهو في جبل الكرمل، قد استعمل زجاجة محرقة. ولكن الرب علمه كيف يستعملها، أو على أية حال، قد تيقن أنه سيعرف كيف يستعملها.

إن «العهد القديم» ذاته لا يعزل الإعجازي عزلاً صارماً. وهو في الحقيقة لا يرسم الخط الحديث بين «الطبيعي» و«غير الطبيعي». والإله الواحد يتجاوز خلقه ويقف فوقه، ولكن خلقه لا يسير من دونه مثل آلة. و«الكتاب المقدس» يقدم لنا صورة شاملة عن عمل الرب في عالمه، سواء من خلال المجريات العادية التي ندعوها طبيعية، أو من خلال الأحداث الخاصة ذات الأنواع المختلفة. وبعض الأحداث الخاصة هذه، تلك التي ندعوها المعجزات، غريبة بوضوح عن نظام الطبيعة كما هو في تدبيره المعتاد. وقد لا تكون غيرها استثنائية بالطريقة الواضحة ذاتها. مع ذلك فهي تؤلف معاً أنموذجاً هائلاً للتدبير. وفي الفكر اليهودي التقليدي، لا يهم كثيراً تمييز بعضها من بعض.

يظل هذا مبدأً سليماً. وحيث لا يزال بوسع المعتقد الديني أن يقدم مزاعم خطيرة الشأن في تفسير السر الديني الإسرائيلي، لا يكون ذلك بوساطة المعجزات الإفرادية. ومن النقاش حول مسألة هل سقط وثن أم لا عندما وُضع تابوت الرب أمامه لا تجنى إلا فائدة قليلة. والأحرى أن القضية تتعلق بالعناية الإلهية على نطاق أوسع. وسيتخذ الجزء الكبير من ذلك شكل الوحي الإلهي، كما هي الحال مع الأنبياء. وستكمن المعجزات الصريحة (إن وُجدت) ضمن مخطط أكبر ويجب أن تظل إلى حد كبير مسألة رأي، أو إيمان.

والمسألة التي يفضَّل أن تكون جديرة بالتأمل هي كيف يمكننا تصور العناية الإلهية، أو الوحي الإلهي، من دون المعجزات. هل يمكن تصور الرب يعمل بصورة خاصة في عالمه بطريقة تخلو من الإعجازي المباشر؟ أيوجد نوع متوسط من الحوادث ليس طبيعياً خالصاً ولا استثنائياً كلياً؟ إن تلك المشكلة ليست مجرد مشكلة متعلقة بالآثار القديمة، أو مقتصرة على دراسة «العهد القديم». إنها، مثلاً، تثير مسألة الدعاء برمتها. ففي العام ١٩٤٠ قام الكثيرون في إنجلترا بالدعاء من أجل عودة الجيش سالماً من دنكريك Dunkrik، ورأوا أن الجو الهادئ للإجلاء هو الجواب. ومع ذلك لم يلاحَظ شيء لا يدخل في نسق علم الأحوال الجوية. وهكذا هل تدخل الرب أم لا؟ إذا

تدخل، فكيف؟ وإذا تصرف بمثل ذلك بالنسبة إلى إسرائيل القديمة، فهل يمكن أن يضاف أي عدد من «العنايات الإلهية الخاصة» غير الإعجازية إلى معجزة إسرائيل الظاهرة ذاتها؟

أدلى اللاهوتيون بحجتهم أن الرب يمكن أن يتدخل في العالم وفي الأذهان البشرية من دون معجزة فعلية، لأنه خارج الزمان كما نعرف الزمان. إنه يعلم الوضع مقدماً، بما في ذلك أية أدعية تتلى، ويدبر الأسباب الطبيعية لإحداث النتيجة. والتشبيه الفجّ هو ضبط الساعة المنبهة. يعلم «س» أن «ع» سيحتاج إلى الاستيقاظ باكراً، ولذا يعطيه الساعة، ويضبطها لتنطلق في رنينها في السادسة صباحاً. تتكتك الساعة بهدوء في أثناء الليل، ثم عند السادسة فإن حاجة «ع» تتم تلبيتها: يرن الجرس. والأمر سواء، وهو من فعل «س». ولم يكن من شأن ذلك أن يحدث، وربما كان «ع» سينام إلى ما بعد موعد النهوض، وربما فَقد وظيفته، لو لم يعلم «س» مقدَّماً بحاجة «ع» ويرتب الآلية سلفاً طبقاً لذلك. وقد أصروا أن الإله بوسعه أن يعمل على هذا النحو، وعندما يعمل لا يكون في الطبيعة استثناء. وعندما يقدم معجزة، يكون الاستثناء. وفي تشبيه الساعة المنبهة، فإن المعجزة تنسجم مع دخول «س» في السادسة وقرعه الجرس بنفسه بمقرعة، وتسبيبه الآلية بأجمعها.

قد يكون هذا تمييزاً قابلاً للبقاء وقد لا يكون. سوف ننظر فيه مرة أخرى. ولكن «العهد القديم» لا يبينه، ولا يعدو أن يفرّق بوضوح بين الطبيعي وفوق الطبيعي. ومع ذلك فإنه يتضمن حوادث كثيرة، إذا كانت حقيقية، فهي إعجازية، وهو لا يفصل بين المعجزات والعمل الإلهي من أنواع أخرى. الإله هو «**الآخر**». وهو حاضر في كل ما نعرف أنه الطبيعة طيلة الوقت، وسلوكها العادي ناجم عن مشيئته. وبما أنه يتجاوزها كذلك بوصفه خالقها وسيدها، فهل يمكن أن ينقض قوانينه. ولكن إذا سألنا، هل كان وحي النبي أَشَعْيا يتطلب من الرب أن ينقضها أم لا؛ وهل كان في وسعه أن يدبر سلفاً أمر الكون بحيث يوحى إلى أَشعيا من دون معجزة أم لا – فإن هذين السؤالين شديدا الدقة. إن

الرب من خلال شعبه إسرائيل، ومن أجله يصنع عجائبه وهي مدهشة بالفعل. وتلكم هي رسالة «العهد القديم» في هذا الموضوع. وعلينا ألا نشتد في مطالبة مؤلفيه بالمزيد من الضبط لتحديد أية عجائب هي معجزات وأية عجائب ليست كذلك. فالتمييزات الأدق، الصحيحة أو غير الصحيحة، تظهر فيما بعد – وعلى الخصوص عند المسيحيين الذين يجيئون بعدئذ.

مهما يكن، فلدى بعض المؤلفين فكرة إضافية، تطور الموضوع في اتجاه آخر. وهي أنه يمكن للرب أن يصنع عجائب متعددة – حتى سلسلة كاملة منها – من خلال عضو واحد في الجماعة المختارة، مشكلاً تلك الجماعة بجعل الشخص برهاناً حياً على القدرة الإلهية. والشخص المستحسَن جداً لا يصبح ساحراً أو كائناً أعلى. وقد يكون، شأن موسى في الفصول الأولى من «**سفر الخروج**»، متردداً ومتحيراً. ويصلي إلى أقصى درجة، كما يفعل يوشع ضمناً عندما «يستمع الرب إلى صوت إنسان» ويوقف الشمس. ولكنه من خلال الانتخاب الإلهي، شخص ترتبط به الأحداث العجيبة. إنها تحدث بحضوره. إنها تشهد به، وتمنحه القدرة على تنفيذ مأرب إلهي.

وإلى جانب موسى، فإن إيليا مثال شديد الأهمية. وكذلك هو خَلَفُه أليشاع الذي يمارس شهادته ضد المرتدين بين القبائل الشمالية، والذي تشهد الأعاجيب باستمرار أنه أقرب شخص في الكتاب المقدس من السحرة في المأثورات الشعبية. وليس من السهل على الدوام تقرير بماذا تفسَّر أعمال أليشاع البارعة. وبعضها هزلي قليلاً. وأحدها مقزز بعض الشيء. وهو يقوم بعلاجات شفائية، ويعيد صبياً ميتاً إلى الحياة. ولكنه كذلك (مثلاً) يجعل ينبوعاً يعطي ماءً صالحاً للشرب بإلقاء ملح فيه. ويضيف لحماً إلى طعام من الخضرة فيبطل مفعول عشبة سامة. وعندما يُسقط حطاب رأس فأسه الفولاذي في النهر، يُسقط عصا في المكان ذاته فيرتفع رأس الفأس إلى السطح. وفي كل حالة من هذه الحالات فإن استخدام أليشاع لشيء مادي إضافي يقوّي الأثر الشبيه بالسحري. ومع ذلك فإن تلميحاته المتكررة إلى «دعائه للرب» يمنع القارئ من النسيان الطويل

لمسألة من أين تأتي القدرة. وهذا يصدق على أشد أعماله البطولية شناعة، مهما كان يُعتقد بأنها تتضمن.

**صعد من هناك إلى بيت إيل؛ وبينما كان يصعد في الطريق إذا بصبيان صغار خرجوا من المدينة وهزئوا به، قائلين، «اصعد، يا أصلع ! اصعد، يا أصلع !» فالتفت حوله، وعندما رآهم، لعنهم باسم الرب فخرجت دبّتان من الغاب ومزقت إثنين وأربعين صبياً.**

**(سفر الملوك الرابع ٢: ٢٣-٢٤)**

ومن خلال موسى وإيليا وأليشاع، وإلى حد أقل من خلال شخص أو شخصين آخرين، يقدم تراث إسرائيل عاملاً ثالثاً من عوامل الإعجازي، يظل مستمراً بعدئذ عندما تتحدد المعجزات بشكل أفضل. وإلى الآن كان لدينا (١) الاستثناء المقدّر، و(٢) الشيء المتعالي – الذي هو الرب، إذا تحدثنا بكلام الكتاب المقدس – وهو الذي يقدّر الاستثناء. هذان هما العنصران الأساسيان الوحيدان. إلا أننا في «العهد القديم»، وبعد ذلك بصورة متزايدة، نجد كذلك (٣) **الشخص في علاقة خاصة مع الإله:** شديد القرب منه، شديد الانسجام معه، بحيث يكاد يبدو أن المعجزات التي يقوم بها الرب من خلال ذلك الشخص هي من عمل الشخص. إنه لا ينجزها بقوة الإرادة أو بالتقنية، ومن المحتمل أنه ليست لديه فكرة عن كيفية حدوثها. مع ذلك هي تحدث، وتضعه جانباً.

واليهودية – أي ديانة الورثة اليهود للإسرائيليين، التي نشأت عن «العهد القديم» – قد جعلت هذه الفكرة أكثر وضوحاً، ونقلتها إلى مسافة أبعد كثيراً في تقديمها شخصين بارزين. كان أحدهما من الكتاب المقدس. والآخر جرى التنبؤ به على أسس من الكتاب المقدس.

كان الأول هو إيليا. سوف يجري التذكر بأنه في «**سفر الملوك الرابع** ٢: ١١-١٢» يغيب من دون أن يموت، يرتحل عن الدنيا في مركبة حقيقية أو رمزية. ولم تكن تلك نهايته، لأن الرب في أحد الكتب النبوئية المكتوبة مؤخراً (**نبوءة مَلاخي** ٤: ٥) يَعد بإرساله إلى الأرض من جديد. وقد توسع المعتقد

اليهودي في النص المقدس بجعله موضوعاً لمعجزة كبيرة، تعطيه مكانة فوق بقية البشر. لقد جعله الرب خالداً، وعيّن له مكان الشرف في السماء، حيث لا يزال متآخياً مع بقية الشعب المختار، وشفيعاً لهم. وقد قام برحلات عودة سرية، ليزور أخيار اليهود ويقدم لهم العون والراحة. وجرى التهامس بأنه قد ظهر في أشكال كثيرة – بوصفه زنجياً في إحدى الزيارات، وبوصفه امرأة في زيارة أخرى. وأعطته حكايات هذه المغامرات ثلاثة أدوار دنيوية رئيسية: بوصفه عوناً للفقراء والمتواضعين، ورفيقاً للعلماء والحكماء، ومنقذاً من الخطر.

ونشأت المعجزات المساعِدة من المعجزة الرئيسية في حياته المتواصلة. إذ بدا أن الإله قد وهبه تفويضاً تاماً بإنجازها. وروت إحدى القصص كيف صالح رجلين من أهل المعرفة هما يهوذا وحِيّا، اللذان كانا متقاطعين. ذهب إلى يهوذا متنكراً بهيئة حِيّا وشفاه من ألم الأسنان. ومن تلك اللحظة عادا صديقين من جديد. ووفقاً لقصة أخرى، درأ إيليا مصيبة حين تسبب حاخام يدعى ناحوم في غضب الإمبراطور الروماني. وقد عُين ناحوم في مهمة أن يحضر للإمبراطور علبة من المجوهرات هديةً من يهود المدينة. وفي الطريق، سرق اللصوص المجوهرات وملؤوا العلبة بالتراب. وحين فتح الإمبراطور العلبة، ظن أن اليهود يهينونه، وهدد بمذبحة كبيرة. فظهر إيليا متنكراً بهيئة أحد مستشاريه، وأخبره أن التراب من نوع خاص لا يعرفه إلا اليهود. وعليه أن يبعث به إلى جنوده الذين يحاربون لإخماد فتنة. فقذفوه على المتمردين، فتحوّل إلى وابل من السيوف كسرتهم وهزمتهم. وأعاد الإمبراطور العلبة إلى ناحوم، وقد ملأها بنفسه بالمجوهرات.

كانت أشد مهمات إيليا تقع في المستقبل. وكان من شأنه أن يعود كما جرى التنبؤ في «**سفر ملاخي**» ويهيئ السبيل إلى المسيح الموعود، صانع العجائب ذي السلطة العليا في المعرفة اليهودية الجماعية. كان يُنتظر أن يكون المسيح أقرب إنسان إلى الرب. ولقبه يعني «الممسوح بالزيت». ويُذكر المسح بالزيت في نص مقدس أول مرة بوصفه طقساً من طقوس المَلَكية. ومن شاوُل

فمن بعد، كان ملوك إسرائيل يكرسّون بالزيت فيسجّلون بذلك نواباً أرضيين عن الرب. وبعدئذ صارت الكلمة تستخدم استخداماً استعاريّاً، بمعنى الاختيار الإلهي لتنفيذ مأرب خاص. ثم بعدئذ، عندما كان اليهود خاضعين للسلطة الإمبراطورية، صار «الممسوح بالزيت» زعيماً خصوصياً يُتوقع أن يظهر لمساعدتهم. وفي البداية كان يصوَّر بلغة رصينة نوعاً ما، بوصفه مجرد سليل لداود من شأنه أن يحرر إسرائيل من الهيمنة الأجنبية، متوافقاً مع عهود الرب من خلال الأنبياء. ولكن بما أن السيطرة الأجنبية كان فرضُها يترسّخ باطّراد، فقد اتسع الأمل وزادت بهرجته.

وقد أُعلن أن المسيح، «سيتحزّم بالقوة» التي بها «يقضي على الحكام الفاسقين» عموماً ويؤسس مملكة تدوم إلى الأبد، ويجعل كل الأقواميين [ غير اليهود ] صاغرين أمام الرب. ويستقبل الشريعة من جبل صهيون. وستصحب ظهوره الأعاجيب المذهلة. وسيعود إيليا إلى الظهور بوصفه رسوله، وسيساعده في حكمه. وسيولم المسيح وليمة كبيرة تؤذن بزمن الوفرة. وسيكون هناك ازدياد هائل في الإثمار، وازدهار في القفار، وكذلك إشراق للشمس. وستطيح بأعدائه النار والزلازل. ومع الحالمين الأكثر جرأة، سيصبح النصير الإنساني في التجديد الكلي للعالم. وسيشهد حكمه انبعاث الأموات الصالحين. سينقل الإله أجسامهم إلى فلسطين، وهناك سيعيدهم إيليّا إلى الحياة، ليستمتعوا بفردوس اسمه «جنة عَدْن» ستكون مزروعة في الشرق.

لم يولَع كل اليهود بمثل هذه الرؤى المتطرفة، والذين أُولعوا بها اختلفوا على البرنامج. على أن التوق إلى «الممسوح»، المخلّص، مهما كان المدى الدقيق لعجائبيته، قد ازداد قوة على الدوام. والوعد بأمجاده خفف عبء الخضوع لروما، وبقي عزاءً بعد أن خبا الأمل العاجل في النصر.

# الفصل الثالث

## الربُّ معنا

بدأت المسيحية مع فئة يهودية تزعم أن المسيح – واسمه أتى من الكلمة العبرية Messiah التي ترجمت إلى اليونانية بكلمة khristos ومنها اشتُقّت الكلمة الإنجليزية Christ – قد جاء فعلاً كما تمت النبوءة، ولو لم يكن ذلك كما جرى التوقع. وقام تلامذة يسوع الناصري بالتبشير بذلك. وأماته الحاكم الروماني بيلاطس زهاء العام ٣٠ للميلاد. وبرغم ذلك أعلنوا جازمين أنه كان المسيح الموعود. وكان كل وعظهم، وبالفعل كل المعتقدات الدينية التي نجمت عنه، محاولة لشرح معنى التجربة الغامرة التي كابدوها. ويسوع، عندهم، ليس كمثله إنسان آخر. حتى صلبه قد أكد مجده الفريد بدلاً من أن يقضي عليه، لأنه لم يبق ميتاً. بل عاد إلى الحياة، ورأوه وتحادثوا معه عدة مرات قبل اختفائه النهائي من الأرض.

كان المسيحيون الأوائل مدركين جيداً أن مسيرته في الحياة لا تتلاءم مع النموذج المتعلق بالمسيح الموعود. لم تكن هناك مملكة يهودية منتعشة. فأعطوا لمفهوم المسيح المخلّص معنى جديداً. ووصل التعليم المسيحي إلى اللب في فكرة أن الإله قد حقق النبوءات لا بمجرد إرسال إنسان أو «مسحه بالزيت»، وإنما باتحاده معه. كانت هذه هي عقيدة **التجسّد**. وأعيد طرح الإله بوصفه كائناً أشد تعقيداً، وليس شخصاً واحداً، بل هو ثالوث يضم ثلاثة أقانيم هي **الآب**، **والابن**، **والروح القدس**. والأُقنوم الثاني، الابن، قد وُلد على الأرض بوصفه

يسوع المسيح. كان يسوع بشرياً تماماً، وكذلك إلهياً. وقد خصص له «**إنجيل متّى**» نصوصاً نبوية، تتضمن نصاً يقول «سيدعى اسمه عِمّانوئيل، الذي يعني الربّ معنا.» وبدلاً من أن يأتي المسيح بثورة سياسية، قيل إنه أتى بنوع روحاني من الثورة أعظم وأعمق. واستطاع يهود قلائل أن يمتثلوا لهذا التخلي عن آمالهم، أو لمفهوم ألوهة المسيح الذي جرى الارتباط به. وفي مدى عُمر تولى زمام الأمور مهتدون غير يهود.

ووصفُ الكنيسة لأصولها، كما اتُّفق عليه في الشطر الأخير من القرن الأول للميلاد، يظهر في الأناجيل الأربعة المعتمدة (وقد أُلف غيرها، ولكنه رفض بوصفه غير صحيح). وفيها يروى كيف ولد يسوع من خلال معجزة، هي **الولادة البتولية**، وكيف صنع المعجزات حين شاء في أثناء حياته العامة. وذلكم، على الأقل، هو المفهوم الضمني في كل موضع من النصوص، ربما باستثناء آية واحدة في «**إنجيل مرقس**» (٦:٥)، مفادها أنه عندما عاد إلى بلدته الأم، «لم يستطع أن يقوم هناك بعمل قوي، إلا أنه وضع يديه على بضعة مرضى فشفاهم»- وسبب شبِه إخفاقه هو عدم إيمان المحليين. ولكن حتى هذا قد يشير إلى جو غير مناسب، وإلى استحالة معنوية لا إلى استحالة واقعية. وفي كل النصوص الأخرى يبدو قادراً على القيام بأي شيء، على الفور، من دون أية تقنية من التقنيات المرتبطة بالسحر. وبالنسبة إلى المسيحيين الذين كانوا يروون هذه القصص عنه، لم تكن هناك قطيعة مع المبدأ القائل بأن الله وحده يصنع المعجزات، لأن يسوع **كان** الإله – ابن الآب الإلهي – بالإضافة إلى أنه إنسان.

والعمل الإلهي الذي حرك العجلات في سيرته، وهو الحَبَل به في رحم مريم العذراء، قد ميّز فرادته. فمن جهة كان بشراً، بشراً من الناحية الجسدية وبشدة، لأنه ولد من امرأة. ومن جهة أخرى كان أكثر من إنسان كذلك، لأن عملية الإنجاب الطبيعية قد حل محلها إذن إلهي آمر. وظهر الجنين في رحم مريم بمشيئة الآب السماوي من دون أي نوع من الإلقاح. فلم يكن يسوع ابناً لرجل.

والطرف الآخر لسيرته الدنيوية هو قيام يسوع من القبر بعد ثلاثة أيام من موته. وكانت هذه معجزته التتويجية، التي تغلبت على الموت وفتحت أبواب الحياة الأبدية لكل من آمنوا به. وقد تخطت أية معجزة من معجزات «العهد القديم». إذ كان يمكن فيها لإنسان حي أن يبعث إنساناً ميتاً، بإذن إلهي، كما فعل إيليّا. ولكن الميت بحد ذاته قد انتهى كما هو معهود. فلا يعود في استطاعته أن يفعل شيئاً. وليس في مقدوره أن يعيد نفسه إلى الحياة، ما لم تكن فيه ألوهية بالإضافة إلى البشرية. وعلاوةً، فإن يسوع، وفقاً للمسيحيين، حين قام من الأموات لم يكن جثة أعيد إحياؤها على الإطلاق. بل ظهر في جسم نُشوري غامض، مجيد، وغريب (ما دام حتى أقرب أتباعه لم يتعرفوا إليه في الحال دائماً)، وقادر على أن يجتاز الأبواب المغلقة، وينتقل من مكان إلى مكان، وأخيراً «يصعد» مغادراً هذه الدنيا كلياً. ولم يكن القيام من الأموات مجرد انتصار على الموت، فقد ألمع إلى نمط للحياة جديد، وإلى خلق جديد، سيدخل فيه كل المباركين في يوم من الأيام.

وبين المعجزتين في البداية والنهاية يقع صنع العجائب الذي تقدّمه رعاية يسوع. ومن كل الوجوه فإن هذا الصنع أقل تفوقاً، وأسهل بحثاً. وتعكس المأثورات الإنجيلية حوله النزاع بين ما يتوقعه منه من ينظرون إليه على أنه المسيح، وما فعله في واقع الأمر. ويظهر ذلك في معجزة واحدة على الأقل يؤديها، وكذلك، وعلى نحو أوضح، في معجزتين يرفض أن يؤديهما.

وفي قصة «**الإغواء**» في البريّة، التي تباشر تعليمه العام، يلّح عليه الشيطان أن يتصرف كما يجب أن يتصرف المسيح، وأن يصنع المعجزات طبقاً لذلك. عليه أن يحوّل الحجارة إلى خبز. وعليه أن يلقي نفسه من سطح هيكل أورشليم، مثبتاً من هو ببقائه معلقاً في الهواء، فيرفض يسوع كلا المقترحين، ومعهما، الموضوعات المتميزة المرتبطة بالمسيح المنتظر – الرخاء المادي فائق الطبيعة كما يتضمنه المقترح الأول – وإدخال الخشية في نفوس الناس بالخزعبلات (مثل ساحر لا يعترف بوجود الله) كما يتضمنه المقترح الثاني. ويغويه الشيطان مرة

أخرى بأن يعرض عليه كل ممالك الأرض. ويرفض من جديد، مديراً ظهره لأخيولة السلطة المتصلة بالمسيح الموعود.

والمعجزة الأولى التي يؤديها بُعيد ذلك، لا توصف إلا في «**إنجيل يوحنا**» ٢:١-١١. ويعترف المفسرون أنها شاذة، وغير متلائمة مع المعجزات التي تليها. يحضر حفلة عرس في قانا الجليل. وينفد الخمر. تلفت أمه انتباهه إلى المصيبة وتتوقع منه أن يقوم بعمل. وفي البدء ينتهرها، قائلاً إن ساعته لم تحن بعد، ولكنها تصرّ. ويقول للخدم أن يملؤوا ست حُقق بالماء، وعندئذ سيبدو الماء خمراً. والكمية منافية للمعقول - أكثر بكثير من مائة غالون[١]، تستلزم عملية طويلة لافتة للانتباه وعبثية إلى حد كبير من اجتلاب الماء من البئر. ومن الواضح أن المقصود أكثر من إعادة الملء. والمعتقد أن مفتاح القصة يكمن في النبوءة بوليمة المسيح الموعود، عندما سيولم المسيح لأتباعه. فمن شأن الفرط الهائل في وفرة الخمر أن يكشف من هو يسوع. ولكنه، وهو قادم حديثاً من مواجهته مع الشيطان، غير راغب في التطابق مع الصورة التي رفضها منذ قليل. وبالرغم من ذلك، فتحويل الماء إلى خمر شبيه جداً بتحويل الحجارة إلى خبز. ولا يمتثل إلا تحت ضغط أمه (وهو امتثال مقدّر له أن يكون ذا نتائج بالغة الأهمية).

بعد هذا، تشير القراءة غير المتحيّزة إلى برودة العلاقة بين يسوع وأقاربه. وفي «**إنجيل مرقس**» ٣:٢١ يحاولون أن يضعوه تحت الحَجْر بوصفه مجنوناً. وتصوّره قصص المعجزات يتصرف بطريقة من المحتمل أن تهيّج، ولكنها كذلك تحيّر وتخيّب الأمل.

وقلة من أعماله البارعة هي غير عادية تماماً بمعنى مجرد الروعة. ولها جو أخلاقي لم يجر توقعه من قبل. حتى عندما يُطعم خمسة آلاف شخص ببضعة أرغفة وبضع سمكات، لم تكن حفلة غداء إعجازية بل فعلاً من أفعال

---

(١) الغالون gallon: مكيال سعته ٤,٥٥ من الليترات.

الشفقة. وحتى عندما يسير على الماء، لا يقوم بذلك في ضوء النهار ليذهل الحشود، بل يقوم به في الليل ويأتي لمساعدة تلامذته في زورقهم. وليست معظم المعجزات مثل هاتين المعجزتين بأية حال. إنها أعمال شفاء، جسمي أو ذهني – معالجة أمراض، وإخراج عفاريت من ضحايا مختلّة العقل – وهي تمضي مع تعليم يسوع بوصفها براهين على المحبة والمسامحة الإلهية، وعلى قدرة الخير على أن يتغلب على الشر، وعلى الوعد بالحياة المتحولة. وهي في بعض الأحيان تشير وراء ذاتها نحو مواقف خاصة جديدة. والتشديد على الشفاء هو ذاته يتحدى المعايير الأخلاقية لذلك الزمان. فقد كان الوثنيون يميلون إلى احتقار المرضى؛ وأسكلبيوس، بوصفه إلهاً يهتم بهم، كان استثنائياً. وكان يهود كثيرون بعدُ أقسى قلباً، ينظرون إلى المرض على أنه عقاب إلهي على الذنب. ولا تتضمن أعمال يسوع الشفائية مجرد تعاطف مع المصابين بالأمراض، بل كذلك رفع عبء الذنب.

حتى إن كانت هذه المعجزات مجرد أساطير، فإنها تظل أساطير رؤية جديدة، لا مجرد سحر. والكلمة اليونانية thaumasion، وتعني الحادثة التي يُتعجب منها، لا تحدث إلا مرة واحدة (**إنجيل متّى** ٢١:١٥). والكلمة Teras، ومعناها حادثة أُعجوبية، ليست كلمة شائعة كذلك، ولا تُستخدم وحدها للإشارة إلى معجزات يسوع. والمصطلحات الإنجيلية المفضلة هي مصطلح semeion ومعناه «علامة» أو «آية» ومصطلح dunamis ومعناه «قدرة» أو «عمل القدرة».

جرت محاولات لتصنيفها. واقترح سي. إس. لويس C.S.Lewis ستة عنوانات – الخصب، والشفاء، والتدمير، والسيطرة على الأشياء غير العضوية، والنقض، والكمال أو التمجيد. وتحويل الماء إلى خمر، وإكثار الأرغفة والسمك، يُعد من قبيل «الخصب». ويتحدث «الشفاء» عن نفسه: يشفي يسوع من الجذام، والشلل، ويعيد سلامة العقل بإخراج الأرواح الشريرة من الجسم. و«التدمير» نادر، ولكنه يحدث مع شجرة تين يحكم عليها بألا تثمر ويسبب لها الجفاف (**إنجيل متّى** ٢١: ١٨–٢٠) – وهي حادثة قد ترمز إلى

تعنيف المؤسسة اليهودية، بما فيها من تعلق مفرط وعقيم بـــ «الشريعة». وتشتمل «السيطرة على الأشياء غير العضوية» على التحكم في الجو (**إنجيل مرقس** ٤: ٣٧-٣٩) والسير على الماء. ويعني «النقض» غالباً إعادة الموتى إلى الحياة، كما في حالة لَعازَر (**إنجيل يوحنا** ١١)، حيث تُجعل عملية طبيعية تذهب في نقيض اتجاهها، مع تجربة باكرة ومحدودة في الخلق المتحوّل حين سيستيقظ كل الموتى. و«الكمال أو التمجيد» ينطبق في الأكثر على قيام يسوع ذاته من بين الأموات، فصارت الحياة الجديدة مرئية آنياً.

ويقصد الكتّاب الإنجيليون حتماً أن يعتقد قراؤهم أن معظم معجزات المسيح قد حدثت حرفياً، وكانت إعجازية بالمعنى الحرفي. وآمن المسيحيون الأوائل حتماً بأنها حدثت، وكانت إعجازية. ومهما يكن، فالتشديد الحصري على السؤال، " ماذا حدث حقاً "؟ هو سؤال مهم كذلك، وغالباً ما يكون أهم. وبعض الأحداث، كحادثة شجرة التين، قد يُقصد منها حقاً أن تكون حكاية مجازية ذات مغزى أخلاقي. وقد يكون بعضها «تأثيرات خصوصية وليست وقائع حقيقية» – نتائج للتعبير عن الأمور بطريقة هي قديمة وشرقية وليست حداثية وغربية. وينطبق ذلك على عدة معجزات هي علامات تصاحب المسيح وليست أعمالاً مباشرة منه، ومن ذلك الانتشار الغريب للأشباح في زمن موته (**إنجيل متّى** ٢٧: ٥٢-٥٣): «وانفتحت القبور كذلك، وقامت الأجساد الكثيرة للقدّيسين الذين كانوا نياماً، وخرجوا من القبور بعد قيامته وظهروا لكثيرين.» لعل هذا أن يكون صدى للمأثورات الرومانية، كما يستخدمها شكسبير، في النُذر الطيفية عند ارتحال يوليوس قيصر من هذه الدنيا.

وبطريقة مماثلة علينا أن نكون محترسين من التعديل الشديد جداً، وأن نلجأ مراراً وتكراراً إلى التفسير بأن «الكاتب لا يمكن أن يقصد أن هذا حدث حقاً، بل هو مجرد رمز أو تزويق». ويكاد يفضّل على الدوام أن يكون المعنى الحرفي هو قصد الكاتب، سواء أقبلنا أنه حقيقة تاريخية أم لا. يضاف إلى ذلك أن الحوادث التي من شأننا أن نحلف أنها كانت «رموزاً» أو «تزويقات»، إذا

ظهرت في كتاب قديم، فقد تحدث في بعض الأحيان. فقد قرأنا عن الظلمة التي تغمر الأرض كلها عند الصلب، ومن السهل أن نفترض أن هذا الأمر أخيولة خالصة أو حكاية مجازية، لأن الطبيعة لا ترتبط بالشؤون الإنسانية. ومع ذلك فإن «المجلس الفاتيكاني» سنة ١٨٧٠، عند تصويت الأساقفة على العصمة من الخطأ، انقطع فجأة شعاع الشمس في صيف روما، وانهمر وابل مخيف من المطر على المدينة. ودوّن الأساقفة «تصويتاتهم الإيجابية» واحداً واحداً في شبه ظلمة، بمصاحبة ومضات البرق وزمزمات الرعد. وقال بعض المراقبين إن الرب كان يبدي غضبه على معصية إعلان البابا معصوماً من الخطأ. وقال غيرهم إن الشيطان كان يُظهر غضبه، في تصويت قوّى عدوّه الأرضي الرئيسي. والمعنى، إذا كان هناك أي معنى، قد يكون مشكوكاً فيه. والواقعة ليست عرضة للشك. وقد وردت في صحيفة «التايمز».

وكيفما اخترنا أن نرى هذه المعجزات، فإن شيئاً واحداً هو المؤكد. إنها لا تقدَّم بوصفها حيلاً شعوذية تحكّمية، و«براهين» على تبشير ديني سيبقى على حاله من دونها. وبالفعل فمن حيث هي براهين فقط، سيكون معظمها مشكوكاً فيه ولو حدثت كما وُصفت تماماً. ستكون هناك ثغرات دائماً، والذين لا يرغبون في أن يقتنعوا سيعثرون عليها دائماً. والمسيح ذاته ينكر فكرة الإقناع بمعجزة. ففي أمثولته عن الغنيّ والمتسول لَعازَر (**إنجيل لوقا** ١٦: ١٩-٣١)، يتخيل غنياً، يتعذب في حادس، ويتوسل إلى إبراهيم أن يعيد لَعازَر الميت إلى الأرض، لتحذير إخوته من العقاب الأبدي الذي ينتظرهم. ويتوسل عبثاً.

**قال إبراهيم، «إن لديهم موسى والأنبياء؛ فليسمعوهم.» فقال، «لا يا أبت إبراهيم؛ بل لو ذهب إليهم أحد من الموتى، لتابوا.» قال له، «إذا لم يسمعوا موسى والأنبياء، فلن يقتنعوا إذا قام أحد من الأموات.»**

وعلى العموم، ففي السنوات الباكرة للكنيسة لم يكن يؤكَّد أن المعجزات تبرهن على أي شيء، بفضل إعجازيتها من حيث هي. ولا نسمع عن أقواميين كثيرين قد هدتهم أخبارها. ولم تكن الاستجابة الوثنية المعهودة على الأكثر هي

عدم التصديق، بل السؤال، «ماذا يبنى على ذلك؟» ولا ريب أنها كانت خارج المألوف، ولكن العالم الروماني كان مليئاً بصانعي العجائب المزعومين، وتطلب الأمر تمحيصاً جدياً لرؤية الاختلاف. يضاف إلى ذلك أن الأرواح الشريرة يمكن أن تفعل أشياء مدهشة أيضاً. وروعة أعمال المسيح عندما يُعترف بها، لم تكن تعتمد أبداً على خرقها للمألوف بل على أنها تحمل تلك القيمة الأخلاقية، ذلك الجو، تلك الرسالة المتماسكة، التي جعلتها فريدة. وفي بعض الأحيان كان يشعّ فيها شيء أسمى من بشري، وأسمى من السحر. وفي إثبات تلك المسألة، كان المسيحيون يقفون على أرض ثابتة. وكان صنع العجائب الوثني، عادةً، متقطعاً وخالياً من الهدف. ولم ينتج العالم الكلاسيكي إلا كتاباً واحداً ربما كان يُقصد منه أن يكون إنجيلاً منافساً يؤسس شخصية منافسة للمسيح، هو الحياة التي أُضفيت عليها الصبغة الرومانسية لفيلسوف اسمه أبولونيس، وقد كتبها فيلوستراتوس[١] في القرن الثالث. ويلاحَظ تماماً كم هي العجائب في تلك القصة ضعيفة، ومفككة، وخالية من القصد. كان المرء يتوقع من وثني مثقف أن يقوم بعمل أفضل.

واليوم، وعلى ضوء العلم النقدي والمعرفة الحديثة للعلاقات بين الذهن والجسد، فإن مفعول المعجزات بوصفها برهاناً مباشراً يبقى أصغر. ولكن إذا حدثت، يقال، حسناً، قد تكون لدى يسوع موهبة شفائية... أو لعل الشهود لم يفهموا ما رأوه... أو هذا، أو ذلك. وفي أقصى حد ممكن فإن المعجزات قد لا تبرهن في ذاتها على أكثر من أن قدرة تفوق البشر كانت تعمل. وقد تكون وقد

---

(١) هو «فلافيوس فيلوستراتوس» Flavius Philostratus ( زهاء 170 – 245 ): سفسطائي يوناني. درس في أثينا، واستقر في روما، حيث كتب قصة مُمثلّة عن الفيلسوف والرائي اليوناني «أبولونيس من تيرانا». Apollonius of Tyrana ( زهاء 3 – 97 )، الذي كان يرّحب به بوصفه حكيماً وصانعاً للمعجزات، وتمت عبادته بعد موته. وبعد قرن من رحيله كتب فيلوستراتوس كتاباً عنه خلع عليه خياله وقدّمه بوصفه نوعاً من المنافس الوثني للمسيح.

لا تكون إلهية بالمعنى المسيحي. وربما كانت أو لم تكن جيدة بحق. وعلينا مثلما كان على أجدادنا، وإن لم يكن للأسباب عينها تماماً، أن نقبل أن السبيل الوحيد إلى تناول هذه الأعاجيب هو أن نتجاوز أعجوبيتها.

ومرة أخرى نقول، تكمن المسألة الأساسية لمعجزات المسيح في معناها، فيما يُعتقد أنها تبوح به عنه، ومن خلاله، عن الإله. إنها محبوكة في النسيج بدقة شديدة بحيث لا يمكن أن تنفتق. وبمعنى من المعاني فإن قصة المسيح بكاملها هي عن معجزة فائقة واحدة، هي **التجسّد** ذاته، الإنسان الذي من صنع الإله. وكل معجزاته بالتفصيل تنبع من هذه المعجزة، وإن جاز القول، مشمولة بها. ومادام **التجسّد**، إذا حدث أصلاً، فريداً في التاريخ، فمن المشكوك فيه كم هي المسافة التي يمكن أن نطبّق عليها ضوابط النقد العادية. فلا شيء يشبهه شبهاً كافياً لعقد المقارنات واستخراج الاستدلالات.

والتعليق الواضح هو: «إذن هو مجرد مسألة إيمان لا بحث. هل تؤمن أو لا تؤمن. والمسيحي (المسيحي التقليدي، على أية حال) يشتري الرزمة كلها ويضعها خارج المحاجّة العقلية. ربما لا تمكن تخطئته، ولكن لا يوجد أي سبب يفسّر لماذا يجب على أي شخص غيره أن يتفق معه.» على أية حال، ليست المسألة بسيطة تماماً إلى هذا الحد. توجد هنا مشكلة، قد تمّ الإلماع إليها منذ قليل، ولا يمكن طردها بالإنكار وحده. وإذا رفضتَ الرزمة المسيحية، فقد يسألك بحق ما هي الرزمة البديلة التي تقدّمها لتفسير الوقائع.وبالرغم من كل ذلك، فقد جاءت الكنيسة إلى الوجود بحكم الواقع التاريخي، مدّعية أنها بدأت بسبب حوادث كيت وكيت حدثت فعلاً، ومن ضمنها المعجزات. إذا كان وصفها باطلاً، فما هو الحق إذن، وكيف نشأت أصلاً. وبوجه خاص، هل تستطيع أن تتخلص من الإعجازي وتظل تفسر الوقائع.

يزعم معظم الناس أن هذا يمكن أن يتم. ففي وسعنا أن نشذّب كل ذلك ويبقى معنا «يسوع التاريخي» البشري فقط، الذي أدمجته الحكاية الخرافية في المسيح المنتظر الإلهي؛ أو ربما في «أسطورة مسيح»، أي في قصة رمزية

تهذيبية عن مخلّص لم يوجد. ومن دون الدخول في التعقيدات التي تحيط بهذه المسألة، يستحق الملاحظة أنه على الرغم من البغض الذي أثاره المسيحيون الأوائل، لم نسمع عن أن قصتهم دُحضت أو حتى نقضت، أو عن أن أي يهودي أو روماني يردّ عليهم **بحقيقة** معادية عن يسوع. وإذا أخذنا في الاعتبار كم من شأن هذا أن ترحب به السلطات، فإنه لا يمكن أن تكون قصة المسيح واضحة البطلان كما يود أن يوحي بذلك مؤلفون حديثون كثيرون. وتجدر بالملاحظة كذلك أنه إذا كانت الأناجيل اختلاقاً إلى حد بعيد، وقد لُفقّت حكاية أن يسوع هو المسيح، فعلينا أن نسأل لماذا جعله الكتّاب **لا يشبه** المسيح، بل رافضاً صنع نوع المعجزات التي كانت متوقعة، ومتجافياً عن السلطة الدنيوية. إن أية محاولة نقدية لتقديم الأسباب تنشأ ضد الوجود الواضح للحقائق الصلبة التي لم يستطع المسيحيون ولا أعداؤهم أن يتجنّبوها.

وهناك تأمل آخر، قد يكون أشد إثارة للاهتمام، ومن المؤكد أنه أدعى إلى الحيرة. ففي قرن ونصف قرن، زعمت سلسلة كاملة من النقاد المتضلّعين من العلم، من دافيد شتراوس[1] وإرنست رينان ومن بعدَهما، أن «المعجزات لا تحدث»، وقاربوا الأناجيل وفي الذهن تلك العقيدة، واستنبطوا حيوات بديلة ليسوع. وحاولوا جميعاً أن ينجزوا عملية التشذيب وأن ينصرفوا إلى شخص

(١) هو دافيد فريدريش شتراوس David Friedrich Strauss (1808– 1874) لاهوتي ولد في لودفيغسبورغ Ludwigsburg في ألمانيا. درس من أجل الكنيسة في توبنغن Tubingen ، وحاضر فيها بوصفه تلميذاً لهَيغل. وفي كتابه «يسوع الحي» Leben jesu (1835– 6)، وقد ترجمته جورج إليوت إلى الإنجليزية سنة 1846، قدم الحجج بأن العنصر فائق الطبيعة في الإنجيل هو مجموعة من الأساطير التاريخية خلقتها حكاية شعبية مجازية. وأثار **الكتاب عاصفة من الجدال** إلى حد أنه تم عزله، وكذلك حُرم من شغل الأستاذية في زوريخ سنة ١٨٣٩. ومن أعماله الرئيسية كذلك كتابه عن «العقيدة القطعية المسيحية» سنة ١٨٤٠-١٨٤١. وبعدئذ عَمل في «لودفيغسبورغ» و«دارمشتات» حيث صار عضواً في هيئة تشريعية وظل يواصل الكتابة.

غير إعجازي، أو إلى أسطورة يبتكرها أشخاص غير إعجازيين. ولحق بهم حشد طويل من الإجابات المتناقضة. لقد اكتشفوا أن يسوع كان مجرد شافٍ، أو طارد للأرواح الشريرة، أو واعظ أخلاقي؛ وأنه كان داعية حل سلمي، واشتراكياً، ونبياً للديمقراطية، **ومعلماً إسينياً للصلاح**، ويهودياً قومياً، ومجنوناً؛ وأسطورة شمس، وأسطورة نمو النبات، وفُطراً يُحدث الهلوسة. وفي بعض الأحيان يظهر بصورة مبهمة إجماع من النقاش حول «يسوع التاريخي» ويدوم عدة سنوات، ولكن الطريقة التالية في النقد تستبدل به إجماعاً آخر على الدوام. يضاف إلى ذلك أنه لم يكن لأي شخص ذلك التأثير الساحق الذي من دونه لا يكون للتاريخ الكلي للمسيح معنى. ولم تتمكن أية صورة جديدة من أن تفسر تأسيس الكنيسة لذاتها أبداً. كان يمكن لأية صورة منها أن تلهم عبادة طفيفة، ولم يكن ممكناً أن تلهم المؤسسة التي جاءت إلى الوجود.

كذلك فإن السؤال «إذا لم يكن هذا، فماذا؟» لا يجاب عنه. والاستخلاص الآمن الوحيد هو أن الواقع كان أغنى وأحفل بالأسرار مما كان تحليله المدّعي يرغب في أن يعترف. ولا ريب أن عملهم كان ذا بال. فقد قاموا باكتشافات تنطوي على قيمة هائلة في فهم الأناجيل. وما أخفقوا في عمله مع كل مصادر البحث الضخمة والمتنامية دائماً هو توفير قصة تحل محل الأناجيل، وتنزع فائق الطبيعة وتترك يسوع المتبقي الذي يحمل الإقناع.

إن المنطق يقودنا، بسبب غيابهم، إلى أخذ صورة المسيح في كليّتها — المعجزات وكل شيء — وأن نؤولها على أفضل وجه نستطيعه. والجدال المفصّل حول قيمة الشهادة الشفوية، وحول مسألة هل تعطينا الأناجيل تقارير شهود عيان، هو جدال قديم العهد إلى حد ما. ومحتوم أن يكون غير قاطع. فيمكن تبرير بعض المعجزات عقلياً. ويمكن التعامل مع بعضها على أنها رمزية. ويمكن ردّ بعضها إلى «طريقة — التعبير — عن الأشياء» التي هي ليست طريقتنا. ولكن من العبث إسقاطها على أنها خرافة. وقد حاولت أجيال من الباحثين ذلك، وانتهى بها الأمر إلى ارتباك لا رجاء من زواله حول طبيعة

ما يبقى. إن الرزمة رزمة. إما أن نقبلها جوهرياً ونؤمن بمعجزات المسيح، وإما أن نواجه السؤال «إذا لم يكن هذا، فماذا؟» ونواجه الحقيقة القائلة بأنه إلى الآن، لم يقدّم أحد بديلاً معقولاً يبقى بعد التمحيص ويفسر النتيجة التاريخية. إما أن الأمر حدث كما استخلصت الكنيسة إلى هذا الحد أو ذلك، وإما حدث شيء آخر يظلّ غامضاً غموضاً كليّاً.

وفي القرن العشرين جال السؤال «إذا لم يكن هذا، فماذا؟» جولةً طارئةً غريبة، خارج النقاش حول الأناجيل ذاتها. فقد طَرح تحديّاً على أثر من أشهر الآثار المقدسة، هو «**الكفن المقدس المحفوظ في تورين**». إذ زعم بعضهم أنه دليل مادي على أعظم معجزات يسوع، وهي **القيام من الأموات**.

و«الكفن المقدس» محفوظ في صندوق في **كاتدرائية تورين** [في إيطاليا] ولا يُعرض للمشاهدة إلا نادراً جداً. وهو قطعة مستطيلة كبيرة من الكتّان طولها ثلاثة عشر قدماً، بالية جداً وحتماً قديمة جداً. وعلى امتداد طولها بقعتان ضاربتان إلى اللون البني، ترسمان بغموض شكلاً بشرياً، وتُريان من الأمام ومن الخلف. يقال إن هاتين البقعتين هما أثران تركهما جسد المسيح. ويفترض أنه، بعد الصلب، قد كُفّن ووجهه إلى الأعلى وقدماه قرب أحد الطرفين. وكان الطرف الآخر مرفوعاً آنذاك، ونازلاً من رأسه إلى قدميه، يرصّ الجسد، الذي ينطبع على القماشة من أعلى ومن أسفل. وفي داخل البقعتين البنيتين نقط حمر. يقال إنها دم.

إن مثل هذا الأثر هو في ظاهره أبعد ما يكون عن الاحتمال. ولا يعود التاريخ المثبت لهذا الكفن إلا إلى القرن الرابع عشر، عندما كان في «ليري» Lierey، قرب مدينة «تروا» Troyes في فرنسا. وثمت أسس للاعتقاد بأنه كان من قبل في القسطنطينية وجاء به محارب صليبي إلى وطنه. ومهما يكن، فقد كان التدوين قبل الحروب الصليبية قريباً من الخالي. والتوثيق بذلك المعنى الذي له الآن معدوم كلياً. ومشكلة الكفن لا تتصل بالتوثيق بل بالرؤية.

وفي العام ١٨٩٨ صُوِّر الكفن فوتوغرافياً أول مرة، وكانت النتائج غير متوقعة. ومسوّدة الفيلم، بنقلها مواضع الضوء والظلمة، حوّلت البقعتين البنيتين الطويلتين إلى صورة مزدوجة (من الأمام ومن الخلف) لرجل طويل، ذي وجه حزين وملتح ونبيل. ومهما كان السبب الذي خلق هذه الصورة فقد كان من الواضح أنه أدق وأدعى إلى الاهتمام من تماسّ بسيط مع جسد. ولو انضغطت القماشة وانكبست، لَتتبّع الأشكال الخارجية للجسد، لكان من شأن أية رسوم تنطبع عليها أن تكون محرّفة. ولكن لم يكن هناك أي تحريف. ولو انبسطت برفق، لكان في الطبعة العليا، المقابلة للصورة الأمامية التي تشمل الوجه، فراغات في المواضع التي لم تمسّها القماشة. ولكن بدا أنها كاملة.

عندما نُشرت الصورة الفوتوغرافية، أشار «بول فينيون»Paull Vingon، وهو محاضر في السوربون، وبجرأة، إلى أن الكفن حقيقي وأن العلامات المميزة ذات أصل كيميائي، وزعم أن العرَق الذي على الجثة قد استجاب مع الأعشاب المستعملة في الدفن لإطلاق بخار قادر على طبع القماشة. وقام باحث بيولوجي محترم، هو «إيف دلاج» Yves Delage، بتقديم هذه النظرية في محاضرة قرأها في «الأكاديمية الفرنسية للعلوم». وبما أن دلاج كان من اللاأدريين، وليس له مأرب ديني، فقد جذب بحثه اهتماماً واسعاً. واستمر النقاش حول الكفن على نحو متقطع منذ ذلك الحين. وأعلن أطبّاء أن لطخ الدم، وغيرها من آثار الأذى الجسدي، تتفق مع ما يمكن أن يُتوقع إذا تحمل الإنسان الذي في الكفن ما هو موصوف في الكتاب المقدس من الضربات، والتعذيب بالسوط، والتتويج بالأشواك. وبالإضافة إلى ذلك، هناك تفصيلات صحيحة، ولكنها مخالفة للأفكار التقليدية التي من شأن مختلِق أن يتّبعها. فمثلاً، إذا صلب إنسان من دون دعامة كافية لوزن جسمه، فإن المسامير ستضطر إلى أن تنساق عبر معصميه، لأن اللحم في يديه سيتمزق؛ وسيكون أحد الآثار الجانبية لذلك هو عمل انعكاسي يجعل الإبهامين يتجهان إلى الداخل. وهنا يفترق الشخص المرسوم على الكفن على نحو صحيح عن تخيّل الفنانين. فآثار المسامير في المعصمين، والإبهامان يتجهان إلى الداخل.

من هنا فإن النظرية الطبيعية في المزيّف لها صعوبات يجب التغلب عليها. والمدافع الكبير عنها، وهو القسّ «أوليس شفالييه»Ulysse Chevalier، قد لعب ما اعتقد أنه ورقة رابحة بنبشه عبارة قالها «أسقف تروا» سنة ١٣٨٩. قال الأسقف إن الكفن (وكان آنئذ في الأسقفية) مرسوم وملون والرسّام قد اعترف. ومن شأن الفهم المشترك أن يقبل تلك العبارة الباتّة. والبليّة هي أن ذلك لا ينطبق على الكفن وهو الآن في تورين، ولو أن أحدهم يمكن أن يكون قد نسخ نسخة عنه. فالصورة التي في تورين ليست غشاء كما من شأن التلوين أن يكون، بل هي في عمق النسيج. وليس لصباغ قروسطي أن ينطبع على القماش بتلك الطريقة. ولو صادف أن اخترع فنان ألواناً مائية، لكانت انتشرت على امتداد الخيوط وخلّفت خطوطاً محيطية مليئة بالعيوب. كذلك هنالك الحقيقة الغريبة للصورة وهي أنها مسوّدة. لا توجد عملية تبهيت تدريجي معروفة يمكن أن تصنع هذه الصورة. ورسم صورة ملونة في حالة المسودة عسير للغاية – يكاد يكون مستحيلاً من دون تصوير فوتوغرافي يكون مرشداً للعمل – وهو عديم المعنى كلياً، ومن غير المحتمل أن يحدث مع مزيّف لم يكن في وسعه أن يتنبأ كيف ستكشف آلة تصوير عمله ذات يوم. وفضلاً عن ذلك، من المشكوك فيه أنه كان في مستطاع فنان من القرن الرابع عشر أن يفعل أي شيء بمنتهى الدقة والحيوية، ومن اليقيني تقريباً أنه لم يكن في وسع فنان كهذا أن يصيب في الوصول إلى الأذى الجسدي. فالمعرفة لم توجد.

لذا فإن نظرية الخدعة تسير في زقاق مسدود. ولكن كذلك، وا أسفاه، تسير نظرية حقيقية الكفن، كما يعلنها العلماء. ولم يفلح فينيون في أن يصنع بخاراً طابعاً مثل ما افترضه في صورة المسيح. والتجارب بمحاذاة خطوط أخرى أخفقت بالتساوي. لقد تشكلت صور بالبخار وبالوسائل الأخرى المشار إليها ولكنها لم تتشكل بالصفات المميزة ذاتها. ومن الواضح أن بقع الكفن لم يكن تلوينها ممكناً، ولم يكن ممكناً أنها من فعل الجثة كذلك، من خلال أية عملية طبيعية تم العثور عليها الآن.

هل الخلاف المستحكم كامل. ليس تماماً، ولكن تضمينات الحل الوحيد المعروف قد يُعتقد أنها مقلقة للبال. وهذا هو إسهامي الوحيد في دراسة الإعجازي. كانت تجربتي قوامها تحمية حِلية نحاسية صفراء ذات رسمة محفورة، وبسط منديل أبيض على المعدن الساخن مدة لحظة. وكانت النتيجة صورة يشكلها لفح الحرارة، لها تلك الخصائص الموجودة على البقعتين الطويلتين على الكفن. وفي المسودة الفوتوغرافية كانت إعادة إنتاج جيدة للرسمة، ولها تأثير في العمق.

والجسد البشري، حتى الجسد الحي، لا يمكن أن يترك صورة من اللفح كهذه الصورة في مجرى الأحداث الطبيعية. هيهات أن يسخن إلى الحد الكافي. ولكن وفقاً للأناجيل، فإن جسد المسيح لم يكن يتبع المجرى الطبيعي للأحداث. وهو بطريقة فائقة للطبيعة قد عاد إلى الحياة. مَن في وسعه أن يقول ماذا سيحدث في مثل هذه الحال؟ ألعلّه اندلاع مفاجئ للإشعاع – للإشعاع القادر على صنع صورة، كالصورة التي لفحتها الحرارة في داخل المنديل؟ نستطيع أن نقول إن الكفن من الممكن قد صار كما صار، إذا كان يلف جثة مصلوب حدث لها شيء خارق للعادة. أهو القيام من الأموات؟

هذه هي رؤية الكفن التي حظيت ببعض القبول عبر السنين. إنها تبدو غير محتملة في الطبيعة. ولكن ليس لدينا بديل له مظهر المعقولية. وأكرر أنه لم يبيّن أحد كيف يمكن لجثة أن تطبع هذا الأثر من دون «شيء خارق للعادة». إنه من العبث أن نفترض أن الكفن قد استُخدم لتجليل إنسان مصلوب ولكنه ليس يسوع. فلو أن الأمر اقتصر على أنه مات ودفن لما ترك آثاراً على هذا النحو. أما التزييف، فيبدو أن الجودة الفنية والتشريحية ممتنعة بالنسبة إلى القرن الرابع عشر. على أية حال، كيف تمّ التزييف؟ ولو حدث أن فناناً خارج المألوف قد جعل معدناً بالحجم الطبيعي نافراً واستخدم تقنيتي في اللفح، لما صدّقتُ أنه يستطيع أن يطبقها على مثل هذه القماشة الطويلة. فليس الكفن منديلاً. كان من شأنه أن يخفق ويرتخي ويمس المعدن على غير سوية

واحدة، ومن المحتمل أن يحترق من الداخل في بعض الأماكن قبل أن يلتقي السطح في غيرها.

وكما هي الحال مع القصة الإنجيلية ذاتها، فإن الخيار القائم بالنسبة إلى «كفن تورين المقدس» هو بين الإعجازي وما يتعذر فهمه. والإعجازي جواب من نوع غير محدد. وإذا لم يكن هذا، فماذا؟

ولنتذكر أن اليهودية قد أنشأت فكرة العلاقة الخاصة بالله. وواصلت المسيحية الفكرة وجعلتها أشد تماسكاً. إذ ما دام المسيح **هو** الإله، فقد أقام رسله مثل هذه العلاقة. ويروى لنا في سفر «أعمال الرسل» عن معجزات تحدث لهم أيضاً، بعد أن رحل. وهي كمعجزاته. وهم في الحقيقة استمرار له، وتأكيد لحضوره الإلهي غير المنقطع. إن بطرس وزملاءه يبرئون المرضى، ويطردون العفاريت، ويبعثون الموتى. ومهما يكن، فإننا لم نسمع عن أية معجزة أخرى تشير إلى السيطرة على الطبيعة غير الحية، كالسير على الماء.

وفي عالم توافر فيه سحرة معترف بهم، فإن صنع العجيبة المسيحي، الحقيقي أو المفترض، كان عرضة لتأويل يُخفض من قيمته. فهل كان مجرد سحر متفوق؟ إن سفر **أعمال الرسل** (٨: ٩-٢٤) يصور بطرس مصطدماً مع «سيمون الساحر» حول هذه المسألة. وسيمون معروف من مصادر أخرى. كان ساحراً ذا مقام رفيع، ومؤسساً لفرقة له صارت مصدر فرق دينية أخرى، هي التي تدعى الأنظمة الغنوصيّة. ويبدو أنه قد خضع للمعمودية المسيحية وتأثر بالمعجزات، ولكنه اعتقد أنها تؤدى من خلال قدرة باطنية، ويمكن أن يُنعَم بها على الناس عند الطلب وأن تستخدم عند الطلب. ودنا من بطرس ويوحنا وعرض عليهما نقوداً مقابلها، بنيّة إنشاء صحبة صناع المعجزات. إلا أن بطرس رفض بعنف. «لتذهب فضتك معك إلى الهلاك، لأنك ظننت أنك تستطيع أن تحصل على هبة الله بالمال !» فانصدم سيمون وذهب. هنا يجري التنصل من فكرة السحر. مهما يحدث فهو هبة الله، وليس نتيجة تقنية، تباع وتشترى مثل سلعة.

ويقدّم وصف يهودي معاد ليسوع رأياً آخر. هذا الكتاب تلفيق، كُتب بعد ذلك بقرون وهو خلو من القيمة من الناحية التاريخية. ويظل مثيراً للاهتمام لما يُقر خفيةً بصحته. إنه يكتب أن يسوع كان مشعوذاً، والمعجزات قد تمت بالسحر الأسود الذي يستخدم باستحضار قدرة الشيطان. والجدير بالالتفات هو أن المؤلف لا ينكر المعجزات، كما ينكرها المعادون للمسيحية اليوم. وبما أن تراث يسوع قد أوجدها فلا بد أنها كانت أقوى من أن تزال، حتى عند خصوم الكنيسة.

ولأن ذلك كذلك، فإن قصص أتباعه ذات العجائب إلى هذا الحد أو ذلك، لا بين شخصيات «العهد الجديد» وحدها بل كذلك بين خلفائها، كان لها أن تؤثر على الدوام في المستمعين. وهي تستأثر بنصيب من تقدم الكنيسة بعد القرنين الأوّلين أكبرَ من نصيبها في الفترة الباكرة. ومع تناقص قوة روما وتقدّم الخرافة، تكتسب العجائب المسيحية من يسوع فَمن بعده هالة «البرهان» التي لم يبد في الأصل أنها تمتلكها – على الأقل، لم يبلغ أي شيء مثل هذا الحد من [التأثير]. ولاحظ مؤرخ حديث (ربما بظلّ من التحامل) أننا إذا حكمنا من كتابات «المبجّل بيد»[(١)] فإن الأنغلو–سكسونيين قد اهتدوا إلى المسيحية بسلسلة من الحيل الشعوذية.

وواصلت الكنيسة الكاثوليكية ربط المعجزات بقدّيسيها طوال الدرب إلى عهد «الإصلاح الديني» وما بعده. وقدمت هذه العجائب المتأخرة مشكلة

---

(١) هو «القديس بيد المبجل» Venerabel St Bede ( زهاء ٦٧٣–٧٣٥ ). لاهوتي وباحث ومؤرخ، ولد في «مونكويرماوث» Monkwearmouth قرب درهام Durham. كتب مواعظ، وكتباً عن حياة القديسين، ورؤساء الأديرة، وتراتيل، واقوالاً مأثورة، وأعمالاً في علم تعيين التواريخ، وعلم النحو، وعلم الفيزياء، وشرحاً للعهدين القديم والجديد؛ وترجم «إنجيل يوحنا» إلى الأنغلو – سكسونية قبيل وفاته. وكان أكبر عمل له هو كتاب باللاتينية عن «التاريخ الإكليروسي للشعب الإنجليزي» ecclesiastica gentis anglorum، الذي أتمه سنة ٧٣١، والذي هو المصدر الوحيد القيم للتاريخ الإنجليزي الباكر. ورُفع إلى منزلة القديسين سنة ١٨٩٩.

للبروتستانتيين، فيما أنهم قد انسلخوا عن الكنيسة على أساس أنها فاسدة، وصارت سيرتها ممعنة في القدم جداً، لم يستطيعوا أن يعترفوا بها كثيراً. وكانت المعجزات البابوية تتضمّن أن «عاهرة بابل» لم تخسر رضى الله كما زعم البروتستانتيون. لذا حاولوا أن يقدموا الحجج على أن معجزات القديسين التي كانت باطلة، يمكن تمييزها من المعجزات في الكتاب المقدس، التي كانت حقيقية. وقد تبين أن هذا الموقف من الصعب الاحتفاظ به. وكما أشار أجرأ النقاد حالياً، فإن الحجج التي كانت مستخدمة ضد الحجج الزائفة، يمكن أن تستخدم كذلك ضد الحجج الحقيقية، وتكذيب المسيحية برمتها. ولم يستطع البروتستانتيون أن يتفقوا على مسألة أين يوضع الخط الفاصل. وبينما وقف بعضهم ثابتين في إنكارهم المعجزات بعد العصر الرسولي، تردد غيرهم، وسمحوا بأن يستمر ذلك قرنين، أو ثلاثة قرون أو أربعة قبل أن يتلاشى. وفي غياب إجماع مضاد، اكتفى الكاثوليك بأن كرروا أنها لم تتوقف أبداً.

ولم يؤثّر الاعتراف العام منذ القرن الثامن عشر بأن معظم قصص المعجزات خرافات في موقف روما الأساسي. ففي السياق الكاثوليكي يمكن أن تظل المعجزات تحدث. ويُزعم في الحقيقة أنها تحدث. وسوف نرى أن جل الحالات البائنة في السنوات الأخيرة هي من هذا النوع. وتختلف الآراء حول مسألة هل وجدت في أي وقت معجزات بروتستانتية. وقد اعتقد جون وزلي John Wesly أنه شهد حالات شفاء غير قابلة للتفسير وناجمة عن الدعاء أو الصلاة، غير أنه لم يولها كبير أهمية.

وتحتوي سير القديسين الكاثوليك، أو سيرهم الزائفة، على معجزات كثيرة كمعجزات الرسل – من شفاء وطرد أرواح شريرة وهلم جرّا – مع أصداء مباشرة للمسيح من حين إلى آخر، من مثل إطعام حشد بخبز قليل (رُويت في الأزمان القريبة من الحديثة عن العامل الإيطالي الشاب القديس جون بوسكو John Bosco). وتحتوي كذلك على حوادث هي محض حكايات عجيبة، كما حين يَعبر أحد المبشرين البحر على مذبح عائم، أو حين يعلّق

راهب جبّته على شعاع من أشعة الشمس. وتحتوي بالإضافة إلى ذلك على أعمال بارعة يمكن أن توصف بأنها خارجة عن الحد الطبيعي: كقراءة الأفكار، مثلاً، والتجليات التي هي من قبيل ما يظهر في الرؤى، و«التموقع المزدوج» – أي أن يوجد المرء في مكانين في وقت واحد. وبعض الحكايات من الصنف الأخير حكايات رائعة حقاً. ففي السنوات ١٦٢٠ – ١٦٢٣، كانت «ماريا داغريدا» Maria d'Agreda وهي راهبة إسبانية، تبشر هنود نيومكسيكو في حين تعيش عيشة متواصلة في ديرها. (لم تدخل ماريا فعلياً في عداد القدّيسات، ولكن تبشيرها هو في ماهيته إنجاز قديسي.)

والحوادث التي هي من قبيل الحكايات العجيبة هي أدب شعبي مسيحي، محوّر غالباً عن الخرافات ما قبل المسيحية. وعموماً يمكن تكديسها إلى مالا نهاية من دون إضافة قدر كبير إلى إعمال الفكر في المعجزات. والأعمال البارعة الخارجة عن المألوف يُفضّل إرجاؤها في الوقت الحاضر. وبعضها، ولو بصعوبة نقول مثل أعمال الأخت ماريا، تستحق أن تؤخذ على محمل الجد، ولكن على أنها صنف يقع في موضع في سياق آخر. والأكثر إثارة للاهتمام في هذه الآونة والأنسب بالضبط هو نمط من المعجزة غير متعلق بالكتاب المقدس إلى حد ما، ويقوّي التأكيد المسيحي ليد الله، بوصفها متميزة من إرادة الإنسان. وهذه هي المعجزة التي تتم لا **بوساطة** القديس أو من **خلاله** بل **من أجله**، من دون أي قصد منه، وربما من دون إدراك لها، بوصفها أمارة على علاقته بالإله. ولهذه المعجزات نوع من السابقة في «عيد العنصرة» (**أعمال الرسل** ٢: ١–٤)، عندما نزل «**الروح القدس**» على الرسل في ألسنة النار، وألهمهم أن ينطقوا بلغات مختلفة. ولكن عيد العنصرة كان وظيفياً، وعَهد إليهم بمهمتهم. وتلك هي الأمارات التي تعطى للقديسين ولا شيء أكثر من ذلك.

وتنتمي معجزات «الارتفاع والتحليق في الهواء» إلى هذا الصنف. ولا ريب أنه ليس القديسون والقديسات في العالم المسيحي هم الوحيدون الذين

يرتفعون عن الأرض. إذ يقال إن اليوغيين[1] الهنود يقومون بالعمل ذاته. ولكن بينما يقوم اليوغيون بذلك بأنفسهم، بتركيز الفكر، فإن القديسين يرفعهم في الهواء تغير سماوي فجائي. فلا يبذلون جهداً شعورياً، وليست لديهم فكرة حول كيف يحاولون ذلك إذا أرادوه.

لا يُروى عن الكثيرين الارتفاع في الهواء. وتشتمل القلة المفضّلة على عدة أشخاص لهم تميز كبير، روحانياً وفكرياً. ومنهم الفيلسوف القديس توما الأكويني، والناسكة الدينية والمؤلفة القديسة تيريزا من أفيلا، وصديقها الشاعر الصوفي القديس يوحنا الصليب. ويقال إن الأمر يحدث عادة في لحظات الوجد، ويكون هادئاً وغير مثير، وهو حركة إلى الأعلى بضع بوصات. ومهما يكن، فإن أفضل حالة مشهود بها هي حالة راهب كاثوليكي إيطالي مغمور، وكانت تحليقاته أكثر بكثير من بضع بوصات، وأكدها شهود عيان، ومن بينهم بروتستانتيون، بحيث صار مؤرخون من خارج الكنيسة ميالين إلى تصديقها. وهذه القصة محيرة جداً إلى حد أن الشيء الوحيد الذي بوسعنا فعله بشأنها هو إيجاز أهم ما فيها والانتقال إلى ما بعدها.

ولد القديس «جوزيف من كوبرتينو» Joseph of Cupertino سنة ١٦٠٣. كان في حداثته غبياً وحالماً. وعندما سُمح له بالدخول في جماعة فرنسيسكانية عاملاً في الإسطبل، تعاون معها نوعاً ما، ورُسم كاهناً وهو في الحادية والعشرين. وفي أحد الأيام، عام إلى الأعلى ووجد نفسه واقفاً على المذبح. وعدة تحليقات فوق ذلك التحليق أقنعت رؤساءه في الدير بإرساله إلى البابا أوربان الثامن Urban VIII لامتحانه. وارتفع في الهواء أمام البابا. وفي غضون السنوات التالية كانت موهبته، إذا صح أن تسمّى كذلك، تجيء وتروح، وازدادت التحليقات طولاً.

---

(١) اليوغيون yogis: مفردتها اليوغي yogi وهو الشخص المتمكن من اليوغا. واليوغا yoga نظام فلسفة هندوسي يهدف إلى وحدة الذات الصوفية مع الكائن العليّ في حالة الإدراك الكامل والسكينة عبر تمارين جسدية وذهنية.

كان يثيرها على الدوام دافع الفرح، وليس الفرح الديني بالضرورة. فقد تكفي الموسيقى أو الألوان. وكان جوزيف يطير عندما يعزف الرعاة على مزاميرهم في الكنيسة في عيد الميلاد. ويطير عندما ينبه أخ من الرهبان على الجمال في السماء. وعُرف في الكنيسة أنه يرحل خمس عشرة ياردة، وكان إبداء الراهب ملاحظة حول السماء يسوقه إلى قمة شجرة. وفي بعض الأحيان كان الطيران تتقدمه رقصة ارتجالية، ولكن لا يوجد دليل على أن هذا العمل كان تسخيناً مقصوداً، أو أنه كانت لدى جوزيف قدرات تتصل بوسيط روحاني أو أي شيء من هذا القبيل. وخلّف الانطباعَ بأنه ربّاني بريء، وساذج محبوب. ويبدو أنه كان لديه شيء من التحكم في أثناء طيرانه عندما يحدث، ويُظهر إحساساً بالفكاهة. وفي إحدى المناسبات أجفل وجيهاً إسبانياً وزوجته بالتحليق فوق رأسيهما. وفي غيرها أخذ مسافرين معه، مثل نبيل في نوبة جنون، فشفاه بحمله عالياً في حومة ربع ساعة. ويصل عدد الشهود الذين رأوا تحليقات جوزيف إلى المئات. وكان من بينهم من سيصبح في المستقبل الرياضي والفيلسوف لايبنتس Leibniz. وقد اهتدى دوق لوتري كان مسافراً مع جوزيف إلى الكاثوليكية بمشاهدته يرتفع عن الأرض، من دون تغيير في وضعية الجسم، وهو راكع أمام المذبح.

تكلمنا كثيراً عن الأعلى ارتفاعاً في الهواء. والمعجزة الأخرى ذات البركة الإلهية التي تماثل هذه المعجزة هي ارتسام العلامات، أي انطباعات الجروح في اليدين والقدمين مما يذكّر بجروح المسيح، وتكون أحياناً مع جروح أخرى في الجسد والرأس، انسجاماً مع طعنة الرمح (**إنجيل يوحنا** ١٩: ٣٤) وإكليل الأشواك. وقد يكون من المهم أن الجروح قد استوعبت جروح اليدين كما صُورت، ولا شك، في الكفين، لا كما من المرجح أن تكون في المعصمين. وليس أول شخص مذكور في السجلات بأقل من فرنسيس الأسيسي. ففي سنة ١٢٢٤ رأى فرنسيس رؤيا عن ملاك من المرتبة العليا وهو مصلوب، وبعدئذ وجد أنه قد طُعنت يداه وقدماه. ومنذ ذلك الحين تم تأكيد أكثر من ثلاثمائة حالة.

جلّها مشكوك فيها، وأكثر الحالات الصحيحة القليلة ربما كانت نفسية – جسدية. وفي العام ١٩٣٢، أحدث الطبيب النمساوي، أدولف لخلر Adolph Lechler آثار جروح على إحدى المريضات من دون أن يصيبها بأذى، وذلك بإيحاء التنويم المغناطيسي، ثم نقض عملية المعجزة.

مهما يكن، كانت هذه المريضة قيد المعالجة من الهستيريا، ومن المؤكد أن الهستيريا لم تكن واردة في أشهر الإصابات الحديثة. و«بادره بيو» Padre Pio (بيو فورجيونه Pio Forgione)، وهو راهب كاثوليكي إيطالي مثل جوزيف من كوبرتينو، قد توفي سنة ١٩٦٨ بعد حياة طويلة سوية فاعلة للخير، وفي خلالها درس أطباء من شتّى الاقتناعات آثار جروحه من دون التركيز على سبب طبيعي لها. وكان بيو، وهو كادح حي الضمير من أرومة فلاحية، مضت أعوامه الأحد عشر الأولى في ديره من دون أن يبدو ملحوظاً، إلا في ناحية واحدة. فعندما يمرض، كانت درجة حرارته ترتفع كثيراً إلى حد أن تكسر ميزان حرارة طبي، ويظهر أنها ٤٥ درجة مئوية – أي ١١٢ درجة على مقياس فارنهايت. وفي العشرين من أيلول، ١٩١٥، شكا من آلام توهن العزيمة في يديه، وقدميه، وفي جنبه. بعد ذلك نادراً ما كان في راحة جسدية تامة. وبعد ثلاث سنوات انهار في الصلاة، بحضور الأعضاء الآخرين في جماعته. وظهرت الجروح، النازفة بغزارة، في الأماكن التي شعر فيها بالألم.

وظلت آثار الجروح عليه في بقية عمره. وأبقت الضمادات النزيف تحت السيطرة. وكان محجماً عن فكّها ولو بإمعان النظر فيها، وليست لديه الرغبة في أن يكون بؤرة لعبادة شخصية. ووجد الأطباء الذين فحصوا الجروح أنها محيّرة ولو أن بعضهم افترضوا وجود نوع نادر من الإيحاء الذاتي.

وأصبح ذائع الصيت بأنه مرشد روحاني، لطيف جداً ونبيه، من دون أية إشارة إلى عدم توازن فيه. وكانت حالات الشفاء الإعجازية تروى بين الناس الذين جاؤوا إليه. وهناك شخصان يشكوان من قصور في أعينهما، وعاجزان عن النظر من الوجهة الطبية، أخذا يريان بعد زيارتهما لـــ «بادره بيو» وإدلائهما باعترافات

له وأعلنا أنه قارئ أفكار وأنه كان يعرف ما سيقولانه له قبل أن يتكلما. وكان يُقَرّ له بقوة كشف المغيّب وبالتموقع المزدوج ويقال إنه حتى قبل انجراحه المرئي قد ظهر للجنرال الإيطالي «كادورنا» Cadorna وأقنعه بالعدول عن إطلاق عيار ناري على نفسه بعد الهزيمة. ولم يعرف كادورنا الراهب الذي رآه وسمعه في خيمته، ولكنه تعرف إليه بعدئذ. وفي أثناء عودته من المذبح أقبل عليه «بيو» وهمس: «لقد نجوت نجاةً محظوظة، يا صديقي».

إن الارتفاع في الهواء وارتسام الجروح هما نمطا المعجزة الرئيسيان اللذان يكون الشخص المقدس فيهما مستقبِلاً سلبياً للقدرة الإلهية. والأعراض الأخرى للقداسة التي تسير على المنوال ذاته هي حرارة الجسم التي تكاد لا تصدَّق، كما هي الحال مع «بادره بيو»، والرائحة الطيبة الرقيقة، وهي تُنسب إليه كما تنسب إلى عدد من الآخرين. ويُزعم أن بعض القديسين يبقون على قيد الحياة مدة مذهلة من الزمن بقليل من الطعام أو من دونه. كذلك فإن الشخص المعروف بالتقوى حين يتم إخراجه من القبر بعد مدة طويلة من موته، فمن شأن جسده ألا تشوبه شائبة. ولا ريب أن هذا معروف أنه يحدث لغير القديسين (أذكر أنني قرأت أن الأفّاك المفلِق البارون مونشهاوزنBaron Munschhousen كانت جثته بطيئة جداً في التفسخ)، ولكن يبدو أن ذلك أكثر تكراراً مع المحبوبين من الكنيسة، ويؤخذ في الاعتبار في إجراءات رفعهم إلى منزلة القديسين.

عند التفكير في العدد الكبير من المعجزات ذات القدسية، الإيجابية والسلبية على السواء، نجد أن الكاثوليكيين الأشد حكمة يُعنون بأن يضعوا التمييزات المناسبة نصب أعينهم. ومهما طمست الخرافة المسألة، فهم لا يزعمون أن قديساً يمكن أن يسبب المعجزات باتخاذ رأي، أو تدبير تقنية للقيام بها، أو تعليم أي شخص أن يجترحها. ولا باستطاعة إنسان أن يرغم يد الله بمحاولته أن **يصبح** قديساً – بأن يكون شديد الصلاح، أو يستكمل الإيمان الكلي.

وفي هذه المسألة الأخيرة، فإن كثيراً من الأسى غير الضروري قد سببّته قراءة حرفية جداً لقول من أقوال المسيح (وربما بين البروتستانت أكثر من

الكاثوليك) وهو الوارد في **إنجيل متّى** ١٧: ٢٠: «لو كان لديكم إيمان مقدار حبة من بزر الخردل، لقلتم لهذا الجبل، انتقل من هنا إلى هناك فينتقل؛ ولن يستحيل عليكم شيء.» من المؤكد أن هذه الكلمات مجازية. ولكن كثيراً ما فُهمت على أنها تعني أن الإيمان قدرة سحرية تعمل آلياً، ولذا في مستطاع أي شخص لديه كفاية منه أن يجترح معجزات عندما يشاء، مثل السيد فوذرينغاي في قصة «ويلز». من الغباء أن نفترض هذا الأمر، وهو شديد الأذى لما ينطوي عليه إذا كنت تشعر بالثقة بإيمانك ثم خابت المعجزة. وفي رواية سومرست موم «**عن العبودية البشرية**»، يشجَّع غلام أعرج على الاعتقاد بأنه لو كان لديه قدر كاف من الإيمان لشفي من عرجه. وعندما لا يحدث ذلك، فالتعليق الوحيد الذي يقدّمه ناصحه القسّيس هو أن إيمانه لا يمكن أنه كان كافياً. وبالنظر إلى أهمية الإيمان للخلاص، فإن مثل هذا القرار قد يدفع مسيحياً سريع التأثر نحو اليأس، أو رفض دينه لأسباب مغلوط فيها.

وليست الفكرة مغلوطاً فيها وحسب بل هي كذلك باطلة في تأكيدها بطلاناً خطيراً. وأكبر أصحاب الفكر في الكنيسة، ومنهم مثلاً «**تيريزا من أفيلا**»، ينظرون إلى هذه الأمور نظرة يشاركهم فيها أمثالهم في الشرق. إن المعجزات تُجترح، أجل، من خلال أشخاص مقدّسين ومن أجلهم. وعندما تحدث تكون علامات على تقدّم روحي. وهي كذلك قد تفيد الآخرين، بالشفاء من المرض أو نزع الأرواح الشريرة. ولكنها في ذاتها ليس لها كبير أهمية. والإنسان القدسي الذي يؤكد معجزاته من المحتمل أن يضلّ. وأي شخص حاول أن يحتذي مثال القديسين على أمل الفوز بالأفضال الروحانية من شأنه أن يكون أضلّ منه سبيلاً.

وينطوي الكثير من المعجزات على خطر أن تضلل المرءَ المعجزات الزائفة. وهذه، وفقاً للتراث الكاثوليكي، لا تحتوي على مجرد ما لا نهاية له من أعمال الخداع وخداع الذات عند المسيحيين، بل كذلك على صنع عجائب الإغواء بأفعال شريرة. وبالنسبة إلى ظواهر الروحانية، ومنها مثلاً، ارتفاعات الوسيط الفيكتوري الشهير «دانيال هوم» Daniel Home في الهواء وتحريكاته

للموائد بقوة الأرواح، تعوّد التفسير الكاثوليكي أن يقول (ولا يزال كذلك في بعض الأماكن) إنه تسببها العفاريت بقصد الخداع. إن العفاريت لا يمكن أن تصنع معجزات حقيقية، وإنما لديها قدرة محدودة خارجة عن المألوف، مثل الذين يقومون بالسحر الأسود وتتحالف معهم. وبإمكانها أن تقوم بأمور مفزعة. ويمكن أن يبدو أنها تقوم بأمور أخرى أشد ترويعاً ولو بمجرد الغش: هكذا فإن حالات الشفاء الآتية منها ليست حالات شفاء حقيقية.

وقد تبدو الحيلة الشيطانية مثل معجزة إلهية، في ذاتها وفي ذلك الزمان. وعندما طار «دانيال هوم» من النافذة – كما أكد شهود لنا – لم تكن الحادثة مختلفة، في ظاهرها، عن طيران القديس «جوزيف من كوبرتينو». ولتمييز المعجزة الحقيقية من المعجزة الباطلة، هناك حاجة إلى تقدير قيمة الخلفية، والناس المعنيين، والجو الأخلاقي، والتضمينات والعواقب. وقد أجرى «هوم» ذاته هذا التقدير باختصار، أو حَسب أنه أجراه، وكانت النتيجة أنه نبذ أعماله البارعة وصار كاثوليكياً، ولو أن ذلك لم يدم. فالمعجبون به إعجاباً راسخاً، والمتأثرون على نحو غير نقدي بأعاجيب التوسطات، قد احتالت عليهم (في قراءة كاثوليكية) أرواح خبيثة تستعمله حتى أوصلتهم إلى أوهام سقيمة.

وما دام القديسون قريبين إلى الله، فهو يواصل العمل من خلالهم ومعهم بعد موتهم. إنهم في حضرته في السماء، والقدرة الإلهية تستجيب لالتماساتهم. وقد بدأ المسيحيون يقدّمون الأدعية أو الصلوات إلى الشهداء في زهاء القرن الثالث للميلاد، وربما قبل ذلك. وكان التسويغ الوارد في الكتاب المقدس لذلك هو في رؤيا **القديس يوحنا** ٦: ٩–١١، في مقطع يصوّر الذين قتلوا في سبيل الإيمان بأنهم وهم في السماء مدركون لآلام المسيحيين على الأرض، ويدعون إلى الحكم الإلهي على المضطهِدين.

وعندما أصبحت المسيحية ديانة الإمبراطورية، لم يعد هناك شهداء. واعترفت الكنيسة تدريجياً بعبادة قديسين آخرين. وحالاً لم تصبح السماء على اتصال بالأرض من خلال أقنية كثيرة موافق عليها وحسب، بل كذلك منظّمة

في شُعَب مثل مجمع الآلهة الوثني. وصار القديسون الأفراد رعاة للبلدان (فالقديس جورج لإنجلترا)، وللمهن (فالقديس كريسبين لصناع الأحذية)، ولكثير من فروع الحياة. والذين ظلوا أحياء بعد العمليات التطهيرية الفاتيكانية ما زالوا يحظون بالاهتمام عند الإصابة باعتلالات صحية خاصة (أنت تدعو إلى القديس بليز عندما تشكو من مرض في حلقك)، أو يساعدون على تذليل صعوبات معينة (أنت تدعو إلى القديس أنطوني حين تفقد شيئاً). وكثيرا ما كان عون القديسين مرتبطاً بمزاراتهم. وقد يعطى استجابة لدعاء حاج إلى المنطقة، أو قد يقوم الشخص المساند بالحج بعدئذ لتقديم الشكر، كذهاب الأصحاب في حكايات تشوسر إلى مزار «توماس أ بيكيت» Thomas a Becket في كانتربري.

ولدى القديسين قدرات في السماء فوق قدرات البشر على الأرض، ويستطيعون أن يعملوا بطرق شتى. ويأتي عونهم أحياناً على شكل معجزات تامة تجترح عند طلبهم. وهذا الجانب للإعجازي مهم، لأن الكنيسة كانت تميل إلى تبني الرأي القائل بأنه ليس ثمت دليل آخر على أن أي شخص كان قديساً بالفعل. وإذا كان، فهو الآن في السماء، ومن الصواب تبجيله والدعاء إليه. غير أن الدليل الوحيد الذي يجعلنا متيقنين من مكان وجوده هو صنع المعجزات عبر شفاعته.

على ذلك فهي تؤدي دوراً حاسماً في رفعه إلى منزلة القديسين. وهذا يعني الاعتراف الرسمي بأن شخصاً ما هو حقاً قديس، وأن عبادته مسموح بها. ولا يحدث هذا بالمصادفة أو بين عشية وضحاها. يجب أن يكون هناك طلب أولاً، وقد يستغرق إنشاؤه سنوات، بل قروناً. فعندما تقتنع روما أن الكثيرين من المؤمنين يريدون أن يكون هذا الشخص «مرفوعاً على مذابح الكنيسة»، كما جاء في العبارة، تُتخذ خطوات معينة. إحداها هي السبر المفصّل لكل ما هو مدوّن عن المرشح. والأخرى هي حذف العبادة المؤقتة والمتحيزة. ويسمح للكاثوليك بأن يصلّوا معاً من أجل المعجزات عبر شفاعة المرشح، وفي بعض الأحيان يُشجَّعون على ذلك. ونظرياً، يجب أن تتم خطوتان على الأقل. وإذا تمّتا يمكن أن يتقدم نحو الإعلان رسمياً أنه قد أظهر في حياته درجة

بطولية من القداسة، وهذه مرحلة مؤقتة، تعقبها مرحلة الاعتراف الرسمي بأنه قديس. وليست أية خطوة من هذه الخطوات يقينية. أحياناً تتلاشى قضيته. وأحياناً لا تجتاز إلا جزءاً من الدرب. وهناك عدد كبير من الذين تم الإعلان عن الدرجة البطولية من القداسة في الحياة ولم يُعترف بأنهم قديسون ولذلك يُعرف الواحد منهم بـــ «المبارك كذا وكذا» وليس بـــ «القديس».

وقد تكون الصلاة من أجل معجزة أمراً خاصاً. فعندما يمرض أحدهم مرضاً ميؤوساً منه، فقد يصلي الكاثوليكيون من أجل أن يشفى ذلك الشخص من خلال شفاعة المرشح. وقد حدث هذا سنة ١٩٧٦ مع رفع الشهيد الاسكوتلاندي جون أوجيلفي[١] إلى منزلة القديسين. وكانت قواعد تقرير متى يمكن أن يعدّ الشفاء إعجازياً قد وضعها في القرن الثامن عشر بنديكت التاسع، البابا ذو الميول العلمية. وعلى سبيل الاحتياط ضد الادعاءات المتسرعة، جعل من الواضح أن روما لن تعتبر الحالة معجزة إذا أمكن أن يصل إليها تفسير طبيعي. وفي حالة المعرفة الطبية في ذلك الحين لم يكن العائق بالغاً. ومهما يكن، فقد أضاف سبعة شروط إيجابية لا تزال مطبّقة، ومرة بعد مرة، ستجعل رسامة القديسين نادرة بالفعل إذا جرى الالتزام بها بصرامة مع كل مرشح. وهي:

١- أن يكون المرض خطيراً جداً، وشفاؤه محالاً، أو على الأقل عسيراً جداً.

٢- ألا يكون المرض آيلاً إلى الزوال أو أن يكون من نوع يمكن أن يتحسن بحال من الأحوال.

---

(١) هو القديس جون أوجيلفي St John Ogilvy (١٥٧٩/٨٠-١٦١٥) ويوم عيده هو العاشر من آذار. كاهن يسوعي وشهيد، ولد في «بناف» Bnaff من منطقة «غرامبيان» Grampian في اسكوتلاندا. عمل في «إدنبره»، و«غلاسغو» و«رنفرو»، وصلب في غلاسغو لدفاعه عن التفوق الروحاني للبابا. وتم الإعلان أنه أظهر في حياته درجة بطولية من القداسة سنة ١٩٢٧ وأخيراً رُفع إلى منزلة القديسين سنة ١٩٧٦. وهو الشهيد الوحيد المعترف به رسمياً في اسكوتلاندا بعد الإصلاح الديني.

٣- ألا تعطى له معالجة طبية، أو إذا أعطيت، فيجب إثبات عدم نجوعها بوضوح.

٤- أن يكون الشفاء فجائياً، وفورياً.

٥- أن يكون الشفاء تاماً.

٦- ألا يكون الشفاء مناظراً لنقطة تحوّل في المرض تُحدثها أسباب طبيعية.

٧- ألا تكون هناك بعد الشفاء معاودة للمرض موضوع البحث.

وحالات الشفاء التي يمكن أن يُحكم بأنها تلبي هذه المطالب يُعرف أنها تحدث. وفي سلسلة أعمال «جون أوجيلفي»، رجل هوعلى ما يظهر في ساعات موته من مرض السرطان يتعافى فجأة. إلا أن شروط البابا بنديكت لصنع معجزة صعبة الإثبات جداً بحيث كان يجري التسامح معها قليلاً في بعض الأحيان.

والقديس إلى جانب التدّخل الشخصي من السماء يظل حاضراً على الأرض من خلال رُفاته. وقد ورث المسيحيون الفكرة من اليونان، الذين كانت معابدهم يودع فيها ما يُزعم أنه عظام أبطالهم، وممتلكاتهم مثل أسلحتهم وآلاتهم الموسيقية. غير أن رُفات المسيحي كانت خواصّه أشد فاعلية.

من المشكوك فيه معرفة كم كانت البداية مبكرة لتعظيمهم على أنهم أكثر من أشخاص بالغي الأهمية. وعندما أُحرق على الوتد «بوليكارب من سميرنا» Polycarp of Smyrna سنة ١٥٦، جمع تلامذته عظامه وحفظوها. وفي القرن الرابع تم اختزان فِلذ الميت المقدس الصغيرة في علب خاصة أُطلق عليها أوعية الذخائر المقدسة. وفي سنة ٣٠٤ نسمع عن زوار يغمسون قطعاً من الكتان في دم شهيد ويحتفظون بها ميراثاً ذُرِّياً. وبعيد ذلك يجري التكلم لا عن بقايا القديسين وحسب، بل كذلك عن أشياء ترتبط بهم ولو ارتباطاً واهياً (كالثياب التي ارتدوها والكراسي التي قعدوا عليها) على أنها موجبة لصنع العجائب الإلهية. وفي أوائل القرن الخامس بلغت المرحلة التي يستطيع فيها القديس أوغسطين أن يشير إلى معجزات تجترحها الأزهار التي تلمس وعاء

رفات مقدس، ويجترحها النفط من المصابيح الموجودة في كنيسة شهيد، ويجترحها التراب من «الأرض المقدسة». وضمان الكتاب المقدس لنجوع الرفات ضئيل، ولكنه موجود. ففي **سفر الملوك الرابع** ١٣: ٢١ يعود ميت إلى الحياة بسبب مسّه عظام النبي أليشاع. وفي سفر **أعمال الرسل** نجد أنه حتى في حياة بولص يشفى المرضى بالملابس التي لمسها.

والانتشار الهائل وغير المعقول للبقايا المقدسة في الأزمان اللاحقة خارج عن الصدد الآن. وهو ينطوي على محاولات الزعم أن أشياء متنوعة هي بقايا من شخصيات في «الكتاب المقدس» ذاته؛ ومن هذه البقايا فإن «الكفن المقدس» لافت للنظر حقاً ومعظم البقايا الأخرى منافية للمعقول. وكما هي الحال مع الاعتراف بقديس، فإن المعجزات تؤدي دوراً في نمو عبادة البقايا بوجه عام. وفي قرون كثيرة، إذا أثير السؤال هل هذه البقية المقدسة حقيقية، لم يكن هناك إلا اختبار وحيد مقبول. هل تصنع معجزات؟ فإذا كانت تصنعها، صدر الحكم بأنها جزء من القديس أو من ممتلكاته التي يُزعم انتسابها إليه، وأنها وسيلة لعمله في الشؤون الدنيوية. وما دام اجتراح البقايا للمعجزات نادراً ما يخضع للتمحيص النقدي، فإن التفكير الرّغبي يحدثها في جموع غفيرة وبذلك يحكم بصحة البقايا الكثيرة التي ليس له الحق في تصديقها.

وفي حادثتين من أشهر الحوادث، تواصلان جذب الحشود، فإن صنع المعجزة هو لبّ القصة. إن كنيسة في «لوريتو» قرب «أنكونا» في إيطاليا تحتوي على Santa Casa أو «البيت المقدس»، الذي يقال إنه المسكن الفعلي والواقعي لمريم العذراء في الناصرة. ولم يكن نقله من منطقة الجليل عمل أيد بشرية بل عمل الله ذاته، وكان على ثلاث مراحل. وفي العام ١٢٩١، فإن البيت (وما زال سليماً بعد ثلاثة عشر قرناً) قد غادر أسسه وطار عبر الفضاء إلى «فيومه» Fiume [في كرواتيا] على البحر الأدرياتيكي. وبعد ثلاث سنوات انتقل إلى «ركاناتي» Recanati. وبعد مدة قصيرة وصل إلى مستقره النهائي على بقعة من الأرض تنتمي إلى «الليدي لوريتا» Lady Lauretta،

ونشأت حولها بلدة «لوريتو» Loreto. وبما أن المعجزة الرئيسية تُعزى إلى ماض بعيد، فقد أثبت «البيتُ المقدس» ذاتَه باجتراحه معجزات كثيرة أصغر منها منذ ذلك الحين.

والحالة مختلفة نوعاً ما عن تلك البقية الأخرى المقدسة والشهيرة، وهي دم القديس جانواريوس St Januarius. فهنا ليست الأعجوبة المحورية هي حادثة جرت في الماضي بتَّة واحدة، وإنما هي حدوث متكرر في الحاضر. وجانواريوس، الذي استشهد سنة ٣٠٥، هو القديس الشفيع لمدينة نابولي، وفي كاتدرائية نابولي، كانت تُرفع في الأيام المقدسة صورة كبيرة له قبل احتشاد المصلين. ويعرض المطران للأنظار قارورة زجاجية ذات مقبضين. ويمكن أن تشاهَد فيها مادة قاتمة يقال إنها دم متخثر من القديس. ويهزها المطران ويفتلها؛ ويصلي الناس؛ وبعد مدة قصيرة، وعادةً لا دائماً، يتميع الشيء القاتم. وخيبة حدوث ذلك هي فأل سيء للمدينة. وفي العام ١٩٧٧ عُرض التميّع في التلفزيون بصورة ملاصقة نوعاً ما، ومع أن أي شخص مال إلى الاعتقاد بأن الأمر حيلة، قائمة على أن المقبض مجوّف وفي داخله سائل، فإنه لم يرَ شيئاً يثبت غير ما حدث.

وظل أداء القديس جانواريوس العلني حياً في النفوس من القرون الوسطى إلى عصر أشد ريبية. ولم تبق كذلك معجزات أخرى كثيرة. وكان في الكثير من العبادة تامّة النمو للقديسين في العالم المسيحي القروسطي ما هو فاسد، وأحمق، ويستدعي الشفقة. كذلك كان فيها الكثير مما هو محرّك للنفس ومحبّب، مع إحساس عميق بالجماعة الإنسانية، وأخوّة الأحياء والأموات. ولكن جلّ الولاء الذي أُدي للقديسين، هذا وذلك، مهما كان مفعماً بالحماسة، تظلله عبادة كائن راحل آخر – كما كان الأمر فعلاً في لوريتو. وفي هذا ارتفعت القصة المسيحية للإعجازي إلى ذروة ثانية. وفي خلال ذلك بدأت سلسلة من الأحداث وضعت المعجزات على ضوء جديد ولم يصل مصطلحها بعد.

# الفصل الرابع

## السيدة التي يطيعها إلهها

كما قلت في موضع آخر، إن عبادة **العذراء المباركة** أشد تأثيراً في النفس من كل تواريخ الحالات السيكولوجية. ولا ريب أنها أكثر من ذلك بكثير. على أن إمعان التفكير في مريم وفي الرؤية الكاثوليكية لها هو تبيّن التغيّر في سير المسيحية والاعتراف، في أثناء ذلك، بنمط جديد من التفكير في الإعجازي. إن التي تغدو ملكة كل القديسين هي فوقهم في الطبيعة وفي الجلال. وتثير عبادتها مسائل لا تثيرها عبادة القديسين عموماً. وكما سيتضح الآن، فإن للمعتقدات المتعلقة بمريم وبصنعها السماوي للعجائب أهمية خارج نطاق الكاثوليكية. إنها تقدم مفاتيح لظواهر تبدو لدى النظرة الأولى غير مترابطة.

وأصول عبادة **أم المسيح** غامضة. ولكن من المؤكد أنها جاءت تحقيقاً لحاجة موروثة عن الأسلاف أخفقت الكنيسة حتى ذلك الحين في تلبيتها. وسيعاد ذكر أن الأرباب الذكور قد صعدوا إلى أعلى السلطة في الألف الثاني قبل الميلاد باقتلاع ألوهية الإناث القديمة وحلولهم محلها. ومعهم أتت أنظمة الحكم المطلق ذات القانون الكوني التي أنتجت فكرة الاستثناء بوصفه احتكاراً إلهياً، ومن ثم فكرة الإعجازي. وحكموا في العالم اليوناني – الروماني طيلة العصر الكلاسيكي. وكانت المسيحية الباكرة **بمخلّصها** الذكر وثالوثها استمراراً على امتداد الخط ذاته. ولكن وراء الوثنية العامة في ذلك الزمان، كان يتلبّث حنين إلى الألوهية الأنوثية، ببهائها وغموضها وما طال فقدانه من أمل في

الحياة الأبدية. وفي بداية العهد المسيحي، كانت شخصيات الربّات «ديميتر» و«إيزيس» تتمتع بحياة جديدة في «العبادات السرية». وهي لم تكن لعامة الناس؛ بل كانت حصرية وغالية الثمن؛ ولكن المقبولين أعضاءً فيها كانوا أناساً من أصحاب المقام الاجتماعي، ولهم تأثير لا يتناسب مع أعدادهم. وأخيراً، ففي عبادة مريم طلع من الماضي الشيء القديم والتقويضي ذاته وبقوة أكبر واقتحم المسيحية ذاتها – لا المسيحية الضعيفة، المكافحة لعهد الاضطهاد، وإنما عقيدة الإيمان الكبيرة المنتصرة في القرنين الرابع والخامس.

من أين جاءت عبادة مريم؟ فبما هي شخصية من شخصيات «العهد الجديد» لا تقول أو لا تفعل أي شيء يسوّغ تمجيدها اللاحق بالشكل الذي يكون عليه. وتشير القراءة الصحيحة بعض الشيء إلى أن ابنها صار متغرّباً عنها، وأن أوائل المسيحيين، ربما باستثناء يوحنا، لم يكن لهم كبير صلة بها. وهي غائبة عن تقديم الروايات حول «القيام من الأموات»، حيث كنّا نتوقع أن نقرأ عن تعزية يسوع لها وهو يعزّي الآخرين القريبين منه. وإذا كان لعبادتها أي أساس تاريخي، فقد يكمن جزئياً في الأحداث اللاحقة غير المدوّنة التي أحيت أهميتها في أعين بعض المسيحيين على الأقل. ويتحدث المذهب الكاثوليكي عن «صعودها» أو ارتفاعها إلى السماء. ومع أن هذه الفكرة من غير الممكن إعادتها إلى زمن أقدم من القرن الخامس، يبدو أنها مبنية على اعتقاد شعبي أقدم بأنها قد وصلت إلى مجد خفيّ ونهائي، ودخلت في الأبدية بوصفها نظيراً أنثوياً لإيليّا الذي لا يموت.

مهما كانت طبيعة هذا الاعتقاد، فقد كان له تأثير ضئيل جداً في التعليم الأرثوذكسي. وفي أكثر من ثلاثمائة سنة، لم يشر أحد في الكنيسة أية إشارة تنم عن النظر إلى أن **العذراء** حضور حي، وكيان يمكن أن يصلّى له أو يمكن أن يكون له فعل في العالم. وبمقدار ما يمكن أن يتبين، فإن أول فئة عبدتها ونادتها «مليكة السماء» كانت طائفة من النساء يلقّبن بـــ «المكحّلات». ورجل الكنيسة

الوحيد الذي يكتب عنهن هو مطران يدعى «إبيفانيوس»[1] في القرن الرابع، ويعاملهن بازدراء ويقول «لا يعبدنّ أحدٌ مريم». بيد أن هذه العبادة كانت تنتشر، وبرغم هجوم إبيفانيوس، فقد كانت تتغلغل في الكنيسة عندما كان يكتب.

وأول ذكر معروف للصلاة لمريم على أنها عمل صحيح ومحمود يقوم به كاهن بصفته الرسمية ورد في موعظة قدّمها في القسطنطينية القديس غريغوريوس النازيانزي (من نازيانزوس of Nazianzus). ويكاد يكون تاريخها الدقيق هو تشرين الأول ٣٧٩. يروي غريغوريوس قصة (قصة خيالية أخلاقية، وليست تاريخاً) عن عذراء مسيحية، اسمها جوستينا، استحوذ عليها شغف آثم بوثني قبرصي. وللتغلب على ذلك صامت، وقبّحت هيئتها لكي تبدو غير جذابة. وعلاوة على ذلك، توسّلت إلى مريم العذراء أن تعينها، أن تعين عذراء في خطر. وبهذه الطريقة جاءها الدعم الروحاني، فبقيت سليمة. واهتدى القبرصي إلى دينها، محتذياً بمثالها.

كانت العبادة المريميّة تتقدم في النصف التالي من القرن، وحظيت بموافقة الكنيسة في **مجمع إفسوس** سنة ٤٣١. بعد ذلك كان نجاحها هائلاً. وجاءت معظم قوتها الدافعة من الشعب لا من رجال الدين. ثم في وقت لاحق كانت الطاقة الإبداعية للعبادة ديمقراطية، ووحدها محاولات ضبطها وتحديدها كانت استبدادية. وفي بادئ الأمر لم يكن الحافز الرئيسي إلا التعطش الموروث عن الأسلاف إلى الإلهة الأنثوية. وكان السبب الثاني هو أن الثالوث قد أوغل في البعد، فغدا غير مفيد (إذا أردنا تلطيف الكلام) في الكوارث المحدقة بالعالم الروماني، ولذا صارت الحامية الأمومية القريبة مطلوبة بحماسة.

---

(١) القديس إبيفانيوس St Epiphanius (زهاء ٣١٥-٤٠٣)، وهو مطران جزيرة سالاميس Salamis في اليونان (٣٦٧-٤٠٣)، ومن مواليد فلسطين. خصص جل حياته للدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ضد الهرطقة. عمله الرئيسي هو «دحض كل الهرطقات» Panarion ، وهو كتاب ينقصه الاعتدال، ولكنه مصدر قيم لتاريخ اللاهوت.

لا ريب أنه كان لا بد من وجود التسويات. والنساء المكحّلات جعلن مريم إلهية بالفعل. ولم يستطع الإكليرسيّون ذلك. بل رسموها في منظومتهم بوصفها أم الإله، وهو لقب صحيح وإن يكن منطوياً على المفارقة ما دام يسوع كان إلهاً، ووضعوها في موضع خاص، تحت الثالوث ولكن فوق بقية البشرية. وتشكّل لأجلها نوع خاص من العبادة. فالعبادة التي يستحقها الله دون أي كائن آخر سُمّيت «لاتريا»[١]، والتعظيم الذي يستحقه القديسون سمي «دوليا»[٢]، وأعطي لعبادة مريم – أو تعظيمها – اسم خاص هو «هايبر دوليا»[٣]، وهو مخصص لها فقط.

وحدثت أولى المعجزات المريمية المدوّنة في المكان الذي روى فيه غريغوريوس حكاية جوستينا. ويبدو أن تأييده لممارسة الصلاة للعذراء قد خلّف أثراً عميقاً. وبُعَيد ذلك شيدت كنيسة جديدة في موقع المبني الذي كان يعظ فيه في القسطنطينية. وهنا، وفقاً لمؤرخ اسمه «سوزومن» Sozomen الذي كتب في أربعينيات القرن الخامس، حَدث أن:

**كانت قدرة إلهية متجلية هناك، وكانت مسعفة سواء في رؤى اليقظة أو في الأحلام، غالباً للإغاثة من الأمراض الكثيرة وللذين أمضّهم تحوّل مفاجئ في شؤونهم. والقدرة معزوّة إلى مريم، أم الإله، العذراء المقدسة، لأنها تتجلّى على هذا النحو.**

---

(١) لاتريا latria: كلمة يونانية الأصل دخلت اللاتينية ثم الإنجليزية في القرن السادس عشر، وهي تعني «العبادة التي تقدّم إلى الله وحده».

(٢) دوليا dulia: تعني «التعظيم الممنوح للقديسين» في الكنيسة الشرقية وفي كنيسة الروم الكاثوليك. وهي مأخوذة من اللاتينية وتعني فيها «الصلاة»، واللاتينية أخذتها من الكلمة اليونانية douleia التي تعني في الأصل «العبودية».

(٣) هايبردوليا hyperdulia: تعني «التعظيم الفائق الممنوح لمريم العذراء» وهي تضيف السابقة hyper ومعناها «فرط» أو «زيادة» إلى الكلمة المشروحة في الهامش السابق، ويصبح المعنى الحرفي «فرط التعظيم».

«تتجلى على هذا النحو» – من الواضح في أربعينيات القرن الخامس أن الأنموذج المريمي قد صار معروفاً. وليست الحال أن نموذج المعجزة الذي كنا ندرسه قد أُبدل في أذهان المسيحيين، في ذلك الحين أو بعده. فقد واصل المسيحيون الاعتقاد بأن النظام الطبيعي مستمد من الربّ، وعلى الرغم من حدوث الاستثناءات، فإن الربَّ ذاته هو الذي أقحمها فيه. وما من كائن آخر له القدرة؛ وأقصى ما كان يمكن أن يقال هو أن الربَّ يختار أحياناً أن يقوم بذلك من خلال شخص معيّن. وبهذا المعنى وحده، يمكن لقديس، على الأرض أو في السماء، أن يكون صانع معجزة. ولكن حالة مريم تفاجئنا بـ «شخص معيّن» معجزاته فريدة. وهي بإحياء حكم التميز النسوي قبل احتكار الإله للاستثناءات، على منوالها، تعدّل ذلك الاحتكار تعديلاً دقيقاً من دون أن تتحداه مباشرةً.

وعلى الرغم من وجود كل الربّات في الخلفية، فإنها تظل ضمن الحدود المرسومة ولا تصبح هي ذاتها إلهة. حتى إن أكثر مُقدّسي مريم العذراء تطرفاً يعترفون بأنها كائنة مخلوقة. وبما أنها كانت تبدو إنساناً، ولكنها إنسان على علاقة فريدة مع الله، كان لها هذا الدور الساحر في تاريخ المعجزات، وافتتحت سبيلاً آخر للنظر فيها.

وللكثير من أعياد **العذراء** المميزة طرازه الأوّلي في حكاية خرافية يونانية وحيدة. وقد صارت الطراز الأوّلي لحكاية فاوست كذلك (وغوته بعد أن يموت بطله فاوست ويُنقذ برغم كل شيء، يعيد مريم إلى القصة).

ويقال إن ثيوفيلوس الأَدَني (ثيوفيلوس من أَدنة[1] Theophilus of Adana)، كان مسيحياً خائباً فوق حدود التحمّل، فاستشار ساحراً يهودياً. وقاده اليهودي إلى اجتماع أشخاص يرتدون الأردية البيض ويحملون الشموع، ويتوسطهم الشيطان. وطلب الشيطان من ثيوفيلوس أن يوقع عهداً على إنكار المسيح، فوقّعه، وتحسنت حظوظه. غير أنه أدرك أنه كان يسير على درب

(١) أدنة Adana: مدينة هي الآن في تركيا.

جهنم. وجذب تبكيتُ ضميره ملاحظة **العذراء** وشفقتها. ولم تقتصر على أن تتشفع له وتُنيله مغفرة الله، بل أرغمت الشيطان على رد العهد، الذي عاد إلى يدي ثيوفيلوس. وقدّم إقراراً علنياً وأُحرقت الوثيقة المودية إلى الهلاك.

من وجهة نظر مسيحية صارمة، فإن المبادئ الأخلاقية في هذه الحكاية ملتبسة. ويبدو أن ثيوفيلوس قد كسب من الناحيتين. ومع ذلك فإن العجيبة التي تجترحها من أجله هي نموذج لعجائب أكبر بكثير. وعبادة مريم التي نشأت وترسخت في العصور الوسطى لم تكن مجرد صيغة من عبادة القديسين أكثر ثراء. بل كانت ثورة الإنسانية في داخل نظام الكنيسة المتمسك بالنص والمتمحور حول الله. كانت وسيلة للنجاة من الكُلاّب، سواء من خلال معجزات فعلية أو من خلال استثناءات من نوع أعمّ.

ومن الواضح أنه كانت لها جوانبها المالية، وتشويقها لرجال دين غير متزوجين يَنشدون التصعيد. وقد يكون الأنوثيون على حق عندما يدلون بحجتهم أنه بتوجيه تبجيل الرجال إلى امرأة مثالية في المقام الأعلى، يكون رجال الكهنوت قد تركوهم أحراراً في مواصلة معاملة النساء الحقيقيات بقسوة واحتقار. وقد يكون الأنوثيون على حق كذلك عندما يدلون بحجتهم أن التشديد على **الأم العذراء** و«الطهارة» الأنثوية هو شجب لخصائص المرأة قاطبة من منطلق متحيز للذكر. كانت كل هذه العوامل حاضرة ولا ريب، مع أنها لم تستنفد محتويات العبادة، لأن شيئاً أقوى من الكهنوت – هو في الحقيقة الألوهة الأنثوية – كان يشق طريقه باستمرار. وعبّرت عن ذاتها في شخص بشري، ولو لمجرد أنه لم يكن من الممكن لها أن تفعل أي شيء آخر بين المسيحيين؛ وكانت النتائج مذهلة. وامتدت بجلال إلى الفن والشعر والموسيقى والهندسة المعمارية. وهنا لسنا معنيين إلا بالتأثير في أفكار المعجزات. ونعتقد عموماً أن مريم بينما تظل إنساناً حتى في مجدها السماوي، تستطيع أن تسبب الاستثناءات في المخطط الإلهي إلى هذا الحد أو ذلك من دون نهاية. إنها لم تقتصر على قلب نظام الطبيعة، بل قلبت كذلك النظام الروحاني، وقاعدة القانون الإلهي على

أعلى مستوى. وكان في وسع القدرة التي كانت قدرة الإله وحده أن تتحول من خلالها، في واقع الأمر، إلى قدرة ضده.

ومنطق هذه الرؤية يستحق التفحّص. فمقام مريم الفريد قد وجد أول تعبير واضح عنه عند جرمانوس Germanus، الذي كان بطرك القسطنطينية في القرن الثامن. في ذلك الحين كانت الكنيسة الشرقية في الإمبراطورية البيزنطية أشد تعلقاً بمريم مما صارت عليه الكنيسة الغربية. وكان القوّاد البيزنطيون يلتمسون منها الإرشاد قبل أن يخوضوا معركة، ويعهدون بقواتهم إلى رعايتها. وسفن الأسطول الحربي تحمل صورتها. ومن أجل الاستخدام الطقسي ألّف شاعر اسمه رومانوس Romanos ترتيلة في تمجيدها، أطلق عليها «أكاثيستوس» Akathistos (ومعناها «عدم القعود» لأنه كان يتوقع من كل شخص أن يقوم لها، كما يقوم لنشيد وطني). والترتيلة تحييّها بوصفها مصدر الحقيقة المسيحية كلها، وقوة الشهداء، وقاهرة الشياطين، وفاتحة الجنة. وفي العام ٦٢٦، عندما دحرت القسطنطينية حصاراً همجياً، أضيفت إلى الترتيلة أبيات أخرى جعلتها أنشودة تقديم الشكر. وفي سنة ٧١٧ رُدّ حصار آخر، ويُزعم بأشد الصراحة أن نفوذ مريم في السماء هو السبب. وعقد البطرك جرمانوس مهرجاناً إجلالاً لها، وألقى موعظة قدّم فيها مزاعم أشد شموخاً.

وفي حاصل الأمر تحدث عنها بوصفها «المخلّصة المشاركة» للمسيح؛ «لا أحد، يا سيدتي كلية القداسة، يُنقَذ إلا من خلالك». كذلك قدم فكرتين حاسمتين. ومع أنهما لم تُقبلا عموماً في الحال، فقد ازدادت شعبيتهما بالتدريج مع تقدّم العصور الوسطى، في الكنيسة الغربية وكذلك في الشرقية.

كانت أولى البدعتين هي جعل مريم قدرة مستقلة، وعند أكثر المسيحيين أشد جاذبية من الإله. وكان يجادل أن الإله يمثل **العدل** المجرد والمحض، وبما أن معظمنا آثمون، فمن المحتمل أنه محكوم على معظمنا بالذهاب إلى جهنم... أي، وفقاً للتطبيق الصارم للقواعد الإلهية. ولكن القواعد يجب ألا تقلقنا كثيراً، لأن **أم الإله، مليكة السماء**، تمثل **الرحمة** وتريد أن تضع القواعد جانباً. إنها

تستطيع أن تخالف الإله لمصلحة الإنسان وتخالفه، ويخاطبها جرمانوس مرة أخرى: «أنت تصرفين التهديد العادل والحكم بالعقاب الأبدي، لأنك تحبين المسيحيين... لذا يلتفت إليك الشعب المسيحي باطمئنان... يا ملاذ الخاطئين».

يمكن الاعتراض على هذا بأنه مهما كانت مريم لطيفة ورحيمة، فللرب الكلمة الأخيرة. قد تتشفع لآثم، ولكن كيف يتبين لجرمانوس أنها تستطيع أن تغير سير الطبيعة لفائدة الآثم ما لم يوافق الإله. إنها تستطيع أن تطلب إليه فقط. إلا أن جرمانوس لديه مزيد من القول. فبدعته الأخرى هي المعتقد المدهش جداً أنه يمكن لمريم أن تصدر أوامر إلى الإله. فالمسيح أطاعها على الأرض. ولذا، وبما أنه **الأقنوم الثاني** في الثالوث، فهو لا يزال يطيعها في السماء. «أنت، لامتلاكك سلطة أمومية على الرب، يمكن أن تحصلي على غفران وفير حتى لأكبر الآثمين. لأنه لا يمكن أن يقصّر عن سماعك، لأن الرب يطيعك عبر كل الأشياء وفي كل الأمور، بوصفك أمه الحقيقية».

ويمكن الاستشهاد بنصين إنجيليين لدعم هذه الفكرة. أحدهما، ولا شك أنه كان في ذهن جرمانوس حين ألّف موعظته، موجود في **إنجيل لوقا** ٢: ٥١. «ثم نزل معهما» - أي مع مريم ويوسف - «وأتى الناصرة، وكان مطيعاً لهما؛ وكانت أمه تحفظ كل هذه الأشياء في قلبها.» مهما يكن، لا يشير هذا النص إلا إلى فتوّة يسوع، لا إلى زمن بعثته التبشيرية في سن الرشد. وقد أُشير إلى النص الآخر قبل جرمانوس بثلاثة قرون، ويعود ثانية بعده بوصفه الركن الأكبر في نظرية المعجزات المريمية الخاصة. ففي **إنجيل يوحنا** ٢: ١-١١ نقرأ قصة حفلة العرس في قانا، حيث يقدّم المسيح «آيته» الأولى. وقد لاحظ الباحثون الحديثون أن ما جرى من تحويل الماء إلى خمر هو طريقة غريبة لإعلان المسيح عن نفسه. فالمعجزة، مع ما فيها من فائض هائل لم يكن بإمكان الضيوف أن يشربوه، شبيهة بخُزعبلة علنية أو حيلة شعوذية لا تتلاءم مع أعماله اللاحقة في الشفقة والشفاء. ومهما كان الأمر، ففيها تفصيلة كثيراً ما يتم التمسك بها وهي أن المسيح يبدو محجماً عن إنجاز المهمة كلياً. وأمه هي التي تقول له، «ليس لديهم خمر»، وتحثه

بصراحة على أن يفعل شيئاً. فيجيبها بعجرفة بأن زمنه لم يحن بعد. وبرفضها أن تتلقى كلمة «لا» جواباً، تدفعه إلى العمل. ومن هنا يمكن أن يُستدل، وقد استُدل، أن أم الإله يمكن أن تأمره بأن يصنع معجزة.

حين قُدّم هذا الامتياز لمريم بدا أنه يكسر احتكار الإله. ويمكن أن يظل معنياً على الدوام، ولكنه عندما أخذت أمه تهتم صار منفّذاً بدلاً من أن يكون صاحب سلطة بما له من حق. ولم يجر الإقرار الواضح بأن الجِدّة جِدة. وافلح اللاهوتيون الذين قبلوها – وقبلوها أكثر فأكثر في العالم المسيحي، بدعم شعبي شديد الحماسة – في جعلها متماسكة في صيغة عبقرية. قالوا، إن كل المعجزات هي بالفعل من عمل الرب. وهو وحده السلطة العليا. ومن الناحية الفنية، فإن مريم هي كالقديسين عموماً: لا تستطيع إلا وضع الالتماسات. ولكنها مختلفة عن كل الآخرين لأنه لا يرفض ما تطلبه. ولذا، ولأغراض عملية، يطيعها إلى حد تعليق قوانينه حين تريده أن يعلّقها.

ويمكن أن يحاول لاهوتي حديث أن يستصغر هذا الأمر. قد يقول، «طيب، أجل، ولكن كل هذا يعني أن العذراء مقدسة إلى أعلى درجة ومتحدة مع الله اتحاداً كاملاً. إنه لا ينكرها، ولكن ذلك لمجرد أنها تعرف مشيئته، وأكثر معرفة من أن تقدم أي التماس من شأنه أن يرفضه.» على أن ذلك ليس الأسلوب الذي كانت الكاثوليكية الشعبية في العصور الوسطى تنظر به إليها. في تلك الأيام كانت لها مشيئتها ويمكن جعلها محسوسة. وما دامت تستطيع، من خلال ابنها الوفي، أن تحصل على أي معروف ترغب فيه، فهي كلية القدرة. ومع هذا وحتى لو كانت كذلك فهي ليست بذاتها إلهية، وذلك التحديد منحها القوة. وكانت بتمثيلها الرحمة في مواجهة العدل الإلهي، نصيرة البشرية الآثمة. وبرغم أنها هي ذاتها لم تأثم، فقد ظلت تنتمي إلى نوعنا الآثم، واستطاعت تدبير استثناءات لمصلحته وهي تزداد تفهماً له كل ذلك التفهّم.

وكان ارتقاء مريم في أوربا الغربية تدريجياً. وكادت عبادتها في البداية تقتصر على إيطاليا. وهناك آثار باكرة لها في إنجلترا. وقد كُرّست لها الكنيسة

الأولى في غلاستنبري Glastonbury، ويشير قسيس من القرن السادس إلى شخص يحلف يميناً على مزارها، من المحتمل في الكنيسة المذكورة. ويقال إن «آرثر» Arthur (الملك) قد حمل صورتها إلى المعركة. ولكن في هذا المكان وفي غيره، عندما كانت قصص المعجزات المريمية تتحوّل إلى دُرجة في أوائل القرن العاشر، لم يكن المد يجري بقوة وبصفة حاسمة حتى القرن الثاني عشر؛ والنظرية التي فحواها أن مريم يمكن أن تدبر كل شيء لأن الرب لا يقول «لا» لالتماساتها، تظهر بين الكتّاب الغربيين في زهاء ذلك الزمن.

ويعرض راهبان من «المنظمة الرهبانية البنديكتية» هذا الرأي. ويقدّم «غيبرت من نوجنت» Guibert of Nogent حجته وهي أن شريعة الإله تلزمه بأن ينفذ رغباتها، بسبب وصيته – وهي إحدى الوصايا العشر – بأن تكرّم أباك وأمك. «كما هو ابن صالح في هذا العالم يحترم سلطة أمه التي تأمر ولا تطلب، فإنه [ المسيح ] وهو الذي لا ريب كان خاضعاً لها فيما مضى، لا يمكن، وأنا على يقين، أن يرفض لها أي شيء.» والبنديكتي الآخر، «جفري من فندم» Geoffrey of Vendome يستشهد بمعجزة قانا وحكاية ثيوفيلوس على السواء، ويقدّم العبارة النابية قليلاً وهي أنه على الرغم من أن الربَّ قادر على كل شيء، فإنه ليس قادراً على رفض أي شيء لأمه.

إن الفورة القروسطية الكبيرة للعبادة المريمية لم تحبّذ هذه الأفكار المتطرفة منذ البداية. وكانت تأخذ مكانتها الحقيقية في وقت من الأوقات. وكانت مريم في كاتدرائيتها الجديدة الباهرة – في «شارتر» Charter و«ريمس» Riems و«أميان» Amiens و«روان» Rouen و«بايو» Bayeux و«باريس» – تحكم بوصفها «مليكة السماء»، ولكن من دون فرز دقيق لمقامها. غير أن الحظوظ المتعلقة بالأسر الحاكمة قد منحت جلالتها السماوية وجهاً جديداً. وفي أواخر القرن الثاني عشر كانت إحدى الشخصيات المهيمنة في أوروبا أمّ ملك، تدعى «إليانور من أكويتين» Eleanor of Aquitaine. وفي منتصف القرن الثالث عشر، كانت أمّ ملك ثانية، هي «بلانش من كاستيل» Blanche of

Castile ذات حضور وشوكة وراء ابنها لويس الرابع الذي يُعد قديساً. وعلى ذلك من السهل أن تصبح مريم «أم الملك» في السماء، مع المسيح بما هو ابنها البار مَثّل لويس. وصار **الثالوث** خاضعاً لاقتناعها على نحو يمكن أن يفهمه الناس العاديون غير الكهنوتيين.

في تلك الأثناء أخذ المسيحيون يشعرون بالحاجة إلى حامية، إلى حد ما كتلك الحاميات التي كانت لدى الإمبراطورية الرومانية عندما تبوأت **العذراء** العرش أول مرة. وبينما كان القرن الثالث عشر عصر إنجاز، كان كذلك عصر ارتفاع قلق البال. وكانت إحدى المصائب الجارحة هي إخفاق الحملات الصليبية. لقد ظفر الإيمان والحماسة بالنصر أول مرة، في سلسلة من الحروب الدينية، ومنح المسيحيين إحساساً بالبركة الإلهية. ولكن حدث العكس عندما قام غير المؤمنين بهجوم مضاد، واستردوا معظم الأرض الضائعة، فبدا أن البركة قد سُحبت. كان هناك خوف جديد في الخارج، وإحساس بأن شيئاً ما سار سيراً مغلوطاً فيه على نحو ما، وقد جاء في ظل تقريع الربّ. كانت محبته لشعبه يُعترف بها بالمعنى المجرد، ولكنها غير واضحة للكثيرين. والإحساس المشابه بنأيه كثيراً ما يتم الشعور به بحدّة على المستوى الفردي. وحركة الكنيسة باتجاه نظام مذهبي قاس ومتمسك بالنص جعل استرضاءَه يبدو أصعب فأصعب، وكذلك الفوز منه بالمكافآت، أو النجاة من الحكم النهائي. لذا وقع أشد الآمال بريقاً على **العذراء المباركة**، التي كانت أقرب إلى الفانين الخاطئين، ومتعاطفة مع ضعفهم، وكانت رحيمة في حين كان الربّ عادلاً، وتستطيع أن تقف أمامه للدفاع عمّن أحبوها. وتحت ضغط تلك الحاجة، نشأت ونمت أفكار جرمانوس والرهبان الفرنسيين.

وقد وُجدت مأثورات شعبية متفرقة عن «معجزات سيدتنا». وفي القرن الثالث عشر وُضعت مجموعات مكتوبة، وصارت الصفة الخاصة لهذه المعجزات أكثر وضوحاً. وكانت فكرة سلطة مريم على الإله تتمكن في الحكاية الشعبية. وتروي إحدى القصص كيف ذهبت فعلياً لزيارة ابنها في السماء

لتطلب معروفاً من أجل شخص صلّى لها... كما كان من الممكن أن تذهب **بلانش أمّ الملك** لتقول كلمة للملك لويس بحق تابع من الرعية. وتروي قصة أخرى كيف اشتكت جماعة من الشياطين منها. قالت الشياطين إنها مع الربّ تعرف أين هي. وهي تستطيع أن تعتمد على عدله، وإذا حُكم على روح بالهلاك، فسوف يسلّمها لها. ولكن مريم أصرّت على التدخل، وأنقذت الفريسة من الشياطين. ولا يمكنك أن تقول متى ستنتوي أن تتشفع للآثم؛ والرب (وهذا يزيد الشياطين احتجاجاً) «يحبها ويثق بها كثيراً بحيث لن يرفضها أو يناقضها، مهما فعلت ومهما قالت».

إن هذه الفكرة في التغلب على النظام ملمح متكرر من ملامح معجزاتها. وهي من ثيوفيلوس تتتابع. ولا تقتصر مريم على تدبير أمر الاستثناءات في الطريقة التي تحدث بها الأشياء، بل تدبر الاستثناءات التي تأتي قريبة من جعل الإله يسير ضد مطلقاته الأخلاقية. أمّا وهي قادرة على الوصول إلى وجهتها، فهي أعلى من كل القوانين. تعامل كل حالة على أنها حالة خاصة، ومستعدة للانحياز إلى الخطّائين الذين يرفضهم الله، إذا كانت لديهم الفضيلة الوحيدة وهي محبتها.

وفي الغالب الأعم يكاد لا يكون لديهم شيء آخر يزكّيهم. ويستمتع بعض القصّاصين القروسطيين بتسويد سمعة الأشخاص الذين تصادقهم، لأن ذلك يُظهر أنه لا داعي لأن تيأس بقيتنا. وتختص إحدى الحكايات بلص يصلي لها قبل خروجه للسرقة. ويقبض عليه، ويحكم عليه بالإعدام، ويعلّق على المشنقة. ولكنه لا يسقط على طول الحبل. وبعد أن بقي معلّقاً في الهواء بعض الوقت، غير مصاب بأذى، يعترف الشانق بحدوث معجزة ويُطلق سراح اللص. وفي حكاية أخرى تخرج راهبة من دير الراهبات وتقع في الإثم. وصلتها الوحيدة بحياتها القديمة هي أنها لا تكفّ عن الصلاة لمريم. وأخيراً تعود نادمة إلى الدير متوقعة أن تُستقبل بقسوة. ولكن مريم كانت قد شغلت مكانها في أثناء غيابها، وتبدو مثلها تماماً، فلم تُفتقد.

**وسيدتنا** تمهد الطريق لغير الكفء كما تمهده للآثم. وكان «كاهن ما ضعيف العقل»، كما يعبّر أحد القصّاصين، غير كفء لقول قدّاس إلا القدّاس الذي يخص يوم العيد المريمي في التقويم. وهكذا واصل تكرار هذا القدّاس يومياً، حتى سمع بذلك مطرانه فأوقفه عن العمل. وصلّى الكاهن لمريم، فظهرت قائلة: «اذهب إلى المطران وأخبره عني أن يعيدك إلى عملك.» فاحتج الكاهن بأن رسالة كهذه لن تُصدق. فأجابته، «سأهيئ السبيل لك مع علامة. عندما يصلح المطران زنّاره المصنوع من شعر الخيل سأمسك أحد طرفيه لأساعده. اذكر هذا له، وسوف يعرف أننا لا محالة قد تحادثنا.» وذهب الكاهن إلى المطران وحدّثه عن مساعدة مريم له على إصلاح الزنّار. وأدرك المطران أنه لا بد أن محادثتهما قد جرت كما تم إخباره. وسمح للكاهن بالعودة إلى الكنيسة والاستمرار فيها كما كان من قبل، وأن يقول فيها القدّاس ذاته كل يوم خلافاً للقانون الكنسي.

تتضمن هذه الحكايات أن **سيدتنا** يجب أن تعامَل باحترام بل بإطراء، وأن نتائج القيام بذلك يمكن أن تكون رائعة، في حين أن نتائج عدم القيام بذلك قد تكون ماحقة. ويروى أن قسيساً باريسياً كانت لديه رغبة قوية في أن يراها. جاءه ملاك معه رسالة تقول إنها سوف تريه نفسها، ولكن بهاء جمالها سوف يعميه. وعندما ظهرت، أغمض إحدى عينيه وأنقذها، ولكنه فقد البصر في الأخرى. بعدئذ يندم، ويقول إنه سيضحّي بعينه الباقية ليراها مرة ثانية. فعادت إليه، ومكافأةً له لم تستبق عينه الثانية وحسب بل أعادت البصر إلى عينه التي فقده فيها. وتروي قصة ذات تأكيد مختلف ما جرى لرجل كان يلاحقه ثلاثة فرسان ينوون قتله. هرب إلى ملاذ في كنيستها، فابتلتهم بحمّى عنيفة. فصلّوا لها، وقد انكسر قلبهم ندماً، ملتمسين منها المغفرة، فرحمتهم وانقضت الحمّى... مع ذلك لم تُستَعَدْ صحتهم الكاملة».

من الواضح أنه من غير المحتمل أن أمثال هذه الأشياء قد حدثت تماماً في أي وقت. وحتماً لا يمكن أن تُدحض، وإذا أردنا تبريرها عقلياً استطعنا ذلك

في بعض الأحيان. فلعل الكاهن الأمّي قد خدع مطرانه بمعونة امرأة مثّلت شخصية **العذراء**. وربما كانت حمّى الفرسان تأثيراً نفسياً – جسدياً ناجماً عن الذنب. مهما يكن، ليست هذه هي المسألة حقاً. فهذه الخرافات عن **سيدتنا** هي حكايات عجيبة دينية تعبّر عن موقف، والموقف يهم أكثر من التفصيلات.

وليس ذلك مقتصراً على الأخيولة الشعبية القائمة على التفكير الرّغبي(١). ففي العصور الوسطى كان المؤلفون من ذوي الشهرة الحسنة في الكنيسة يأخذون هذه الكتلة من الأخبار المأثورة مأخذ الجد ويبنون أفكاراً عليها. ولا يعني ذلك أن كلهم يقومون بذلك، أو أن الأفكار المريمية المتطرفة والمنطوية على فرط التصديق تتأسس على أنها عقيدة رسمية. وبين اللاهوتيين من ذوي المرتبة الأولى، فإنه حتى الذين لديهم ولاء مريمي قوي، أمثال القديس برنار St Bernard، نراهم حازمين على أن يذهبوا بعيداً إلى أقصى الحدود. وهم، ويتبعهم بصورة بعيدة شعراء أمثال «دانتي» و«بترارك»، يحيّون **سيدتنا** بوصفها كائناً باهراً، وأمجد مخلوق، وأسمى شفيع بين القديسين. ولكنهم لا ينسبون إليها مقاماً في النظام الكوني يعدّل التصوّر المسيحي له. غير أن لاهوتيين آخرين يفعلون ذلك، ولهم تأثير في الجمهور الواسع للمؤمنين لا يتناسب مع القيمة الحقيقية لفكرهم.

وهكذا فإن «ريشار من سان لوران» Richard of St Laurent، وهو قسيس «روان» يكتب في أربعينيات القرن الثالث عشر قائلاً إن النظام المسيحي للأشياء قد تغير بالفعل بسبب مريم. لقد صار أسلس. «إن مريم قد ليّنت الرب، ولا تزال مستمرة في تليينه بحسناتها وصلواتها، إلى حد أنه الآن يعفو عن حِلم حتى عن الآثام الكبيرة، على حين كان ينتقم بغير رحمة حتى للآثام الصغيرة جداً.» هل يعني هذا أنها كانت تتدخّل في المجريات الكونية بحيث يمكن **لمتعبديها** الأوفياء أن يفعلوا أي شيء ويسلموا من العقاب، وهل

---

(١) التفكير الرّغبي wishful thinking: هو الاعتقاد المغلوط فيه بأن رغبات المرء مطابقة للواقع.

العبادة المريمية إباحة للإثم؟ ليس ذلك من الإنصاف. إنها في قصص المعجزات، حيث تساعد الآثمين التابعين «لها»، تعطيهم نظرياً فرصة أخرى، تمكنهم من التوبة والتصالح مع الربّ. مهما يكن، فهذا الجانب ليس واضحاً على الدوام كما يمكن أن يكون. فالآثم هو تابع «لها» كثيراً جداً، وبما هو مثل تابع لإقطاعي تقريباً تقبل أن تؤدي معروفاً له. والانطباع في النتيجة قد يكون بيسر أن الآثم يمكن أن يأكل كعكته وأن يمتلكها، كما يفعل ثيوفيلوس، لأنها ستقوم في النهاية بأمر خارق للعادة لإنقاذه.

قد نقول: «طيب، لا بد أنه كانت هناك حدود تجعل الأمر خطيراً. فلو أن الخاطئ مات فجأة وذهب إلى جهنم، لما استطاعت مريم أن تفعل شيئاً له.» مع ذلك فإنه في نظام الأمور الشعبي القروسطي، لم يكن حتى هذا الأمر يقينياً. ويجزم «ريشار من لوران»، وهو يردد عدة قصص عن المعجزات، أنها قد أعادت أناساً إلى الحياة عندما قد كانت أرواحهم في مملكة الشيطان، ولذا بوسعهم أن يؤدوا الكفارة ويبدّلوا الحكم تماماً.

لا عجب أن دمدم الشياطين ساخطين. فهي لم تخرق القوانين وحسب، بل خرقتها بطرق لا يمكن التنبؤ بها حتى قضت على كل يقين. على أن معجزات الأناجيل، مهما كان تحدّيها للخبرة العامة صارخاً، فلها منطق يحيط بها. لقد كانت أفعال الله في شخص المسيح، ويمكن أن تفسّر بأنها أجزاء من خطة إلهية. وكانت معجزات مريم متقلبة. وكانت بوصفها صانعة أعاجيب لا تمثل غير القياسي وحسب بل كذلك البشري – جداً – في كل شيء.

وبالفعل، كانت هي ذاتها تتصرف أحياناً بطريقة بشرية. وفي إحدى الحكايات الخرافية يصلّي لها شاب لتجعل فتاة تنظر إليه باستحسان، وإذا تكلمنا من وجهة بشرية، فتغيير العاطفة محال. وتظهر له مريم وتقول إنها مستعدة أن تفعل شيئاً في الأمر، ولكن عليه أن يقرر أولاً من هي الأجمل، الحبيبة أم هي. فإذا اختار الحبيبة فستظل تلبي رغباته، ولكنه قد يقع في سوء فيما بعد. وتذهب قصص أخرى إلى أبعد من ذلك، مفترضة أن الصفة البشرية عند مريم خاضعة

للضغوط الدنيئة شأننا، حتى لنوع من الابتزاز. على هذه الصورة فإن ابن أرملة جندي يأسره العدو. فتصلي الأرملة أمام تمثال للسيدة مريم من أجل إطلاق سراحه. ولا يحدث شيء. فتنزع الطفل من حضن التمثال وتمسكه حتى تأخذ فدية. وسرعان ما يظهر ابنها عند عتبة الباب. لا يحتاج الأمر إلى افتراض أن ذراع العذراء قد لواها اختطاف قطعة خشب من صورة من صورها المنحوتة التي لا تحصى. إنها تتلطف بالتسلية بسلوك الأم الساذج، وتسمح بأن يبدو أن الحيلة قد انطلت عليها... ولكن هذا يعني، في حاصل الأمر، أن الحيلة قد انطلت عليها.

إن الإيمان بقرب مريم ولطفها يمكن أن يُستغل، وقد استُغلّ. وهكذا كان بإمكان تمثال محلي خاص أن يصبح مشهوراً بتلبية الأدعية، لفائدة رجال الكهنوت. وإذا توخينا الدقة فإن شهرته كانت تتضمن أن مريم، لأسباب تخصّها، قد اختارت أن يكون لديها اهتمام خاص بالناس الذين يركعون أمام تلك الصورة. فقد منحتهم، إن جاز القول، خط اتصال مباشر معها. ومهما يكن، فإن الاعتقاد قد انزلق إلى اتكال وثني أو سحري على الشيء الفعلي. واكتسبت تماثيل مريم السود ذات النظرة البدائية شهرة خاصة في اجتراح العجائب، ربما بسبب محض غرابتها. وكانت إحدى أشهر هذه الصور في «مونتسيرات» Montserrat في «كاتالونيا» Catalonia (ولا تزال موجودة هنالك). وغيرها، في «شارتر» أفزعت الملك المفزِع إدوارد الثالث. وغيرها، في «ديجون»، قد أُقر لها بإرسال جيش سويسري. وفي أواخر العصور الوسطى صارت الظاهرة مأساوية – هزلية. كانت الكنائس تفتخر بأن في حوزتها **العذارى** اللواتي لا يقتصرن على القيام بالمعجزات – وعلى الخصوص حالات الشفاء الإعجازية – بل يُظهرن للمصلين الموافقة فوراً، بهزة رأس أو غمزة عين. وكانت المعجزات ذات النوع الواحد تؤدّى حسب الطلب. وألغى **الإصلاح الديني** كمية كبيرة من هذا النوع، وفي بعض الأحوال فضح الخدع المتعمدة وراءها. وانكشف أن صور مريم الإنجليزية النافرة تعمل مثل شخص مصنّم

للخدعة يتحدث عنه شخص آخر من مكان بعيد بوساطة «آلات معينة ذات عصي قديمة وعفنة».

مع ذلك ففي كل أُخيولات تقديس السيدة مريم وما يرتبط بها من شطط تناضل فكرة حقيقية للتعبير عن ذاتها. يمكن للمرء أن يعبّر عنها على هذا النحو. فبرغم أن مصدر المعجزة هو **خارج** مدى إدراكنا وليس في أنفسنا، يمكن أن يبلغ الإنسان مستوى الانسجام حيث يصبح الحائل غير حقيقي. والله (مهما كانت الكلمة تعني فنحن نرتبط بها) يحتفظ بالقدرة الوحيدة على فعل الاستثناءات في الطبيعة. ولكن الشخص الافتراضي يمكن أن يكون على اتصال وثيق به بحيث يحدث على الدوام الاستثناء الذي يريده ذلك الشخص.

وفي العالم المسيحي القروسطي لا يمكن تصوّر اتصال كهذا إلا على أساس القداسة، ولم تكن هناك إلا شخصية واحدة يمكن أن يُسمح لها بامتلاك الاتصال إلى ذلك الحد، هي مريم، أم الإله. ولكن حتى في هذه الحال كان يفترض أن ذلك محصور بحالتها المجيدة، بَعدِ الأرضية. ومع ذلك نجد أن الأفكار المريمية تخرج عن اليد في تلك الناحية أيضاً. فالكائن البشري المتفوق تفوقاً لا نظير له، أو الكائن البشري المستحسن كلياً من الرب، يعتدي على قصة سيرة مريم على الأرض، مسبباً أن تصوّر على الدوام خارقة للعادة حتى في بداياتها المتواضعة في الناصرة.

لا تقتصر هذه الأفكار على الأمور الروحية مطلقاً. ويزعم بعض متعبّديها القروسطيين أنها كانت مدهشة جداً في جمالها، كما يصوّرها رايدر هاغرد[(١)] في كتابه «هي». وأحد هؤلاء هو «ريشار من سان لوران»، وهو ذاته الذي يقول إن في وسعها أن تنتشل من جهنم من هو مخلّد فيها. وتتصدّى

---

(١) هو السير هنري رايدر هاغرد Sir Henry Rider Haggard (١٨٦٥-١٩٢٥) وكتابه «هي» She هو قصة نشرها سنة ١٨٨٦ بعد كتاب «كنوز الملك سليمان» الذي جعله مشهوراً. ثم أتبع قصة «هي» بعدد من القصص الأخرى. ولد في «برندام هول» في «بكنغمشير»، وقد تنقّل في أعمال حكومية في جنوب أفريقيا قبل ممارسته للحياة الأدبية.

أربعون صفحة من كتابه لجمالها الجسدي، الذي تعطى له كل أنواع المعاني الرمزية، وهو يقترح أن يكون التأمل في أجزاء جسدها ممارسة روحية. ويجعل قسيس يوناني اسمه «إيزيدور غلاباس» Isidor Glabas هذا الجمال غير أرضي بوضوح. ويقدّم الحجة بأن مريم، بما هي زعيمة المخلوقات، ربما كانت قد خُلِقَتْ أولاً، ولكن الربّ لم يضعها في دنياه في البداية لأن الدنيا لم تكن تحتمل في وسطها الكثير جداً من البهاء.

والمتحمسون الآخرون – وعددهم كبير في الواقع – يقرّون لها بالمعرفة والمواهب الإعجازية في ذاتها. ويجادل «غيبرت من نوجنت» أنها ما دامت قد حملت الإله العالم بكل شيء، فلا بد أنها كانت عالمة بكل شيء، برغم أن تواضعها يبقي موهبتها العظيمة مزجورة. ويعلن كاتب مستقل، من زمن «ريشار من سان لوران» تقريباً، أن «معظم ما تفعله **العذراء** المباركة لا يترك مكاناً لشهير في أي أمر كائناً من كان». وكانت لديها معرفة كاملة **بالثالوث**. واستطاعت أن ترى الملائكة والشياطين. وفهمت **الكتاب المقدس** من أوله إلى آخره وبالعكس. وتنبأت بمستقبلها. وكانت رياضية، وجغرافيّة، وعالمة فلكية أفضل من كل العلماء الذين عاشوا في أي وقت. وكانت إلى ذلك خبيرة في القانون الكنسي، ولو أن الكنيسة التي رفعتها لم توجد بعد.

وفي القرن الخامس عشر يذهب راهب فرنسيسكاني، هو «برناردين من بوستي» Bernardine of Busti إلى أبعد من ذلك. ويؤكد لنا أن مريم، عندما ولدت، لم تبك مثل الرضّع، بل غنّت مع الملائكة. وفي الثالثة من عمرها كانت ذهنياً مثل امرأة في الثلاثين من العمر. وكانت لديها معرفة وافية بالفيزياء، والميتافيزيقا، والمنطق، والبلاغة، وبالفعل في كل الموضوعات. والبرهان ببساطة هو أن أية معرفة أعطاها الربُّ لأي شخص سوى مريم، يجب أن يعطيها لمريم في أعلى درجة، ففاقت بذلك الجنس البشري في كل الموضوعات من دون أن تدرسها. ويقول فرنسيسكاني آخر، هو «برناردين من سيينا» Berardine of Siena إن مريم كانت تمتلك القدرة

على الإدراك الحسي وهي في الرحم، «ولو لم تكن أماً لإله، لكانت بالرغم من ذلك سيدة العالم».

وظلت الأخيولات القروسطية من هذا النوع تحصر قدراتها على صنع المعجزات بمبادرة منها في حالتها الممجَّدة في السماء بعد الموت. ولكن حتى ذلك الحصر لم يعد يحافَظ عليه. وقد كتبت «ماريا داغريدا»، الراهبة الإسبانية مزدوجة التموقع، كتاب «حياة» **العذراء** القائمة على إلهامات خاصة، وجزمت فيه أن مريم حالما وافقت على الحبَل بابن الله منحها الله كل المعرفة والمقدرة، بما في ذلك القدرة على اجتراح أية معجزة شاءت. وهكذا فقد بدأت قدرتها الكلية على الأرض في سن الخامسة عشرة أو نحو ذلك. وعلى الرغم من أن الأناجيل لا تدوّن ذلك، فإن سلسلة معْجزات منها قد شكّلت مصاحَبة هادئة لمعجزات المسيح.

ما كان هؤلاء المتحمسون المريميون يحاولون أن يفعلوه (ولو لم يقرّوا بذلك) هو تربيع الدائرة الإلهية. وبدءاً بالأنموذج المسيحي كما تمّ وضعه، كانوا يحاولون أن يهيئوا فيه تصوّراً سابقاً للمسيحية. كانت **عذراؤهم** المعظّمة منبعثة من ماض ذي توجه إلى إلهة، هو عصر الروح التي تسود المكان والحكمة التي هي ملك الأنثى، وعصر اتصال سري بين المجالات. إنها لا تمتلك الألوهية الميتافيزيقية للإله المسيحي. بل تمتلك – أو على الأقل تعيد إلى الذاكرة – ألوهية أقدم، ومجملة بصورة أقل وضوحاً. وبينما نجد أن صيغة «إن الله يفعل كل ما تطلبه مريم» يجعل كل شيء متماسكاً، بطريقة ما، ولو لم تكن جيدة جداً، فالنتيجة لا تُحتمل أن تكون مسيحيةَ الكتاب المقدس.

**وأفلت عبادة مريم في القرن الثامن عشر حتى في البلدان الكاثوليكية. ولكن أحياها على نطاق واسع القديس «ألفونسوس ليغوري»** St Alphonsus Liguori، وهو كاهن عظيم المعرفة والقداسة وسرعة التصديق. وقد دانت العبادة المريمية في الأزمان الحديثة دَيناً كبيراً لتعاليمه، على الأقل من الناحية السيكولوجية.

وكَتب القديس ألفونسوس ترتيلة لمريم لا تزال تُنشد في الحفلات الكاثوليكية، على الرغم من أنها إعادة نظر مسكونية. وهي تبدأ بعبارة «أيتها الأم المباركة»، وتشتمل على هذا الشعر:

**أيتها الأم الأقوى، يعلم كل الرجال**

**أن ابنك لا ينكر شيئاً فيك**

**اطلبي، وتمنّي، ومرحباً !**

**فقدرته صنعتها مشيئتك.**

ههنا نجد الاعتقاد القروسطي يستمر في كامل نموه. مهما يكن، فإن أمتن عمل لـــ «ألفونسوس»في هذا الموضوع هو كتاب معنون بـــ «**أمجاد مريم**»، منشور سنة ١٧٥٠. وفكرته الأساسية هي أن «الربّ يريد أن تحلّ علينا كل النعم بيد مريم». والربّ من حيث المبدأ يقدّم النعيم إلى البشر، ولكن كل تدابيره تأتي من خلالها، وهي بالفعل تصدر بنفسها قرارات عديدة وهو يمنحها مجرد الموافقة الملكية. «إن كل صلاة من صلواتها هي، إن جاز التعبير، قانون مسنون لربّنا.» وصلواتها ضرورية لخلاصنا – لا مساعدة له وحسب، بل ضرورية، حتماً على الرغم من أن الناس يُنقَذون من دون أن يعلموا أنها صلّت من أجلهم. وشفاعة القديسين متوقفة على شفاعتها، حتى إنها تجعلها تبدو من غير المحتمل أن تستحق التزلّف. فصلواتهم من أجلنا تشقّ السبيل من خلالها. يضاف إلى ذلك أنه إذا لم يبد أن موافقتها وشيكة، فهم أعرف من أن يحاولوا. وعندما تحجم مريم عن التشفّع لأحدهم، فلا قديس سيغامر في الإلحاح على الأمر. وعندما تتشفّع، يضمّون أصواتهم إلى صوتها.

والتشبيه الدنيوي الذي يحضر في البال هو تشبيه «المساعد» لرجل أعمال طائل الثراء وعظيم السلطة، يلتقيه مرؤوسوه القلائل وجهاً لوجه. ونظرياً، ليست لدى المساعد سلطات تنفيذية. ولدى الممارسة، فإن الدائرة الخارجية يمكن أن تسيطر على كل شيء تقريباً. وألفونسوس، بوصفه مسيحياً، لا يمكنه بيسر أن يقول إن معلمه رجل الأعمال يتعذّر الوصول إليه من دون تودّد

فعّال إلى **المساعد**، ولكنه يقترب كثيراً من ذلك. ويروي كيف رأى رؤيا فيها سلّمان. أحدهما أحمر والمسيح على قمته، والآخر أبيض ومريم على قمته. وأفلحت قلة مثابرة من الأرواح في تسلّق السلّم الأحمر، ولكن أرواحاً أكثر بكثير صعدت السلّم الأبيض، ومدّت مريم يدها وجرّتها إلى الفردوس. وفي موضع غيره يعبّر ألفونسوس مرة أخرى عن فكرة **العذراء** المستقلة في واقع الحال، ويعارض رحمتها على العدل الإلهي، وهي تردّ ذراع الإله وتكبح السيف. وتأتي رحمتها في بعض الأحيان، وهو شاكر لها أنها صدّته في غضبه على الآثمين والسماح بفترة هدوء الخواطر. ومريم تعرف، بالصلوات الرقيقة والمهدّئة، كيف تسترضي العدل الإلهي، حتى يباركها الربّ ذاته على ذلك، وإذا جاز التعبير، يشكر لها أنها منعته من التخلي نهائياً عنهم ومعاقبتهم كما يستحقون».

ويُزعم أنه ما زال القصد من رحمتها ليس منح الآثم إذناً بالإثم بل إعطاءه فرصة إضافية ليتوب، وهو الأرجح كل الرجحان أن يفعله بعد أن أظهرت له مثل هذا اللطف. ولكن ألفونسوس ينقل أفكاره إلى مسألة يتبدل فيها ميزان المسيحية. إنه يحيي أفكاراً شعبية قروسطية ويذهب بها مسافة أبعد. ففي قصصه الكثيرة عن معجزات مريم، وفعالها الكريمة الأخرى، فإن هزة رأس بمنتهى العَرَضيّة من جهتها كافية للرجحان على كل الآثام بل لمنح الآثم أفضلية على الفاضل. ويتساءل القارئ لماذا كان على كل شخص أن يتعنّى ليكون صالحاً؟.

وتروي إحدى القصص كيف أهمل رجل كل الأخلاق وواجباته الدينية خمساً وخمسين سنة، باستثناء أنه تعوّد أن يحيّي صورة **العذراء** ويتوسل إليها ألا يموت مثقلاً بآثامه. وانكسر سيفه وهو يقاتل أحد الأعداء. فصلّى لها أن تنقذه، فاختطفته عبر الهواء إلى مكان آمن. ولدى تأديته شهادة الإيمان المتأخرة مات باطمئنان. وفي قصة أخرى، هي من أكثر القصص دلالة، يروي ألفونسوس أن امرأة كانت لزوجها علاقة غرامية بإحداهن. فصلّت أمام صورة **للعذراء** لإنصافها من غريمتها. أما غريمتها فكان من دأبها أن تقول أمام الصورة ذاتها عبارة «**السلام عليك يا مريم**». وظهرت مريم للزوجة في الحلم ووبّختها على تقديم الصلوات من أجل الإنصاف: فهي لم ترَ أن الإنصاف شاغلها، وفضلت عليه

«**السلامات عليك يا مريم**» من الجهة المذنبة. وفي اليوم التالي قابلت الزوجةُ العشيقةَ، واتهمتها بممارسة السحر الشرير، وأنبأتها بحلمها. وإذ تأثرت العشيقة بنجوع **سلاماتها على مريم**، قدّمت اعتذاراتها وأنهت علاقتها الغرامية.

فما هو المغزى الأخلاقي للحكاية الثانية بالضبط؟ حتماً توجد إشارة إلى سلوك أفضل في النهاية، ولكن العشيقة فازت بمجرد تلاوة صلاة محددة من حين إلى حين وسَلمت مما تستحقه من العقاب. وتخلو بعض القصص من أي محتوى أخلاقي حقيقي. وهكذا يُروى أن رجلاً أوشك أن يُسجن من أجل الدَّين. ولا يوجد ما يدلّ على أن هذا كان بسبب سوء الحظ، أو سوء الحكم، أو سوء الأمانة. وصلّى لمريم، فأوحت لدائنيه بأن يتركوا له ما كان مديناً لهم به... وهذه هي القصة بكاملها.

وتجترح العذراء المعجزات لأصدقائها حتى عندما يبدو أن جميعهم على ضلال. ويطالبنا ألفونسوس أن نؤمن بلص قطع أعداؤه رأسه حين كان في حالة الإثم، ومع ذلك أنقذته مريم من العدل الإلهي، لأنها إذا سرّها أنه قد صام حيناً من الأحيان على شرفها، أبقت رأسه المقطوع حياً في حفرة طويلة وسمع أحد القساوسة شهادته بإيمانه. ومن الواضح أنه يعرف عنها أنها تنقذ الناس ضد مشيئتهم، من دون قصد شعوري طيب أياً كان – كما في حالة رجل كان يقول «**السلام عليك يا مريم**» صباح مساء، وحين أراد أن يجدّد معرفته الشخصية بخليلة سابقة، ردّته من أمام بابها «قدرة غير مرئية» وساقته طيلة مسافة الشارع. وقاعدة «التخفيض إلى منافاة العقل»[1] في نوادر ألفونسوس تنطبق على نادرة حول عقعق تعلّم أن يقول «**السلام عليك يا مريم**». وفي أحد الأيام يطارد الطائرَ أحدُ الصقور. وحدث وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن صرخ بصوت كالنقيق قائلاً: «السلام عليك يا مريم»، وعلى أثر ذلك خرّ الصقر من الجو ميتاً.

---

(١) «التخفيض إلى منافاة العقل» reductio ad absurdum: طريقة في دحض قضية بإظهار أن نتيجتها المحتومة منافية للعقل.

وفي أمثال هذه الحكايات الكثيرة يصير الانحراف عن النظام المتمركز حقاً حول الإله أكثر وضوحاً، ولو أن من شأن ألفونسوس أن ينصدم من أي شخص يفكر على هذا النحو. إن القانون، والاستقامة، وحتى المحبة في أشد أشكالها قوة، تميل إلى أن يحل محلها تشبث طفولي بشخص غير الإله. ونسبة عالية من الشخصيات تنفر الدموع من أعينها في اللحظات الحاسمة. والشعور العام هو أن البشر أضعف وأبعد عن المسؤولية من أن يقيموا علاقة مباشرة وناضجة مع خالقهم. ويكمن أعز آمالهم في البقاء في الجهة اليمنى (مهما تم ذلك سطحياً) من كائنة كلية القدرة، ولكنها تظل بشراً – فتلك هي المسألة. ومن خلال «الأم المباركة»، التي هي الممثلة العليا لها، يمكن للبشر أن يعثروا على سبيل قصير إلى الخلاص يستغني عن الإله في حاصل الأمر. ولكنه موجود بعدُ بوصفه هدف الحج، غير أن القوانين التي سنّها قوانين جانبية. أما المعجزات، فهو لا يزال من الناحية العملية من ورائها، ولكننا في حكايات كنادرة العقعق نجد عالماً سحرياً قديماً قد أُعيد إليه مقامه.

وكان كتاب «أمجاد مريم» كتاباً شعبياً، والحماسة الشديدة التي عبّر عنها تقدّمت بين الكاثوليك ببطء إلى أن فعلت فعلها في السياسة على أعلى مستوى. ومن العام ١٨٥٤، عندما عرّفها البابا «بيوس التاسع» Pius IX بـــ «**الحبل بدون دنس**»، إلى العام ١٩٥٠ عندما عرّفها البابا بيوس الثاني عشر Pius XII بـــ «**صعود مريم العذراء جسداً وروحاً إلى السماء**»، نشأت موجة جديدة من العبادة المريمية في الكنيسة. ومنذ أن تولى يوحنا الثالث والعشرون John XXIII البابوية صار يُسمع عن الموضوع أقل من ذلك، بيد أن المعتقدات والترجيحات التي كانت تذاع قبل تبوّئه لم تُشجب. بل كان يجري بالفعل التستّر على بعض الشطحات الأشد تطرفاً. وتحسّن الجو الأخلاقي – فقلّ وجود المفهوم الضمني الذي فحواه أن الشخصيات السيئة يمكن أن تفوز وتنجو من أي عقاب بقولها المنتظم «**السلام عليك يا مريم**» – وسقطت معارضة رحمة مريم على عدل الرب. ومع ذلك ففي رأي بعض المؤرخين لهذه العبادة، فقد

ازدادت حركتها الإنسانية الغربية والموارية بدلاً من أن تنقص. وغلب على **العذراء** أن تزداد عظمة وإدهاشاً حتى لم يعد في ابنها أي شيء متميز، ما عدا ألوهيّته المجردة. وموضوع الكائن البشري المرتفع إلى الأعلى – الكائن البشري الذي ارتفع إلى حد الاتصال الكلي بالعالم الإلهي الذي يتجاوز الإنسان – قد عاد إلى الظهور في أشكال جديدة.

ولم يعد اللاهوتيون يحاولون أن يكتبوا أن مريم امرأة تفوق البشر في المعرفة والمواهب. ولكنهم غمروها بخصائص متميزة أخرى، تعدّ أكثر أهمية في سلّم قيمهم. وهكذا في عهد البابا بيوس الثاني عشر، اقترح الأب غابرييل روشيني Father Gabriele Roschini أربعة مبادئ يجب أن تحكم التفكير فيها. وكانت:

١– الفرادة. فمريم فريدة ولديها امتيازات لا يمتلكها مخلوق آخر، أو يستطيع أن يمتلكها.

٢– اللياقة. فمهما تكن أوجه الكمال التي يمكن أن نعتقد أنها مناسبة لها، ولا تتنافى مع الرؤية الكاثوليكية العامة للأشياء، فيجب أن نفترض أنها تمتلكها بالفعل. (يبدو هذا منطبقاً على حياتها الأرضية وكذلك على حالة سعادتها السماوية. وروشيني يحيّي الفكرة القروسطية التي حتّمت أنها كانت جميلة جسدياً).

٣– الرفعة. فلا يقتصر الأمر على أنها أسمى من كل القديسين، بل تفوقهم في كل ناحية. ولذلك، مهما يكن لدى أي قديس من تميز خاص، فإن لدى مريم منه وأكثر.

٤– التشابه مع المسيح. فمهما تكن لدى ابنها من صفات خاصة متميزة بوصفه بشراً، فهي تشاركه فيها.

وكانت مريم في رأي روشيني فوق كل شيء إلا الذات الإلهية. وعظمتُها «قاربت غير المحدود». وكان كاثوليكيون آخرون يجادلون بأنها أكملت **الثالوث** بجعله مثمراً؛ أو أن الفداء من شأنه أن يكون ناقصاً لولا اشتراك كلا الجنسين فيه، وهي قد وفّرت الجانب الأنثوي من الطبيعة البشرية. وعلى هذا الأساس وغيره من الأسس صارت على نطاق واسع تُعدّ **المشاركة في الفداء** مع المسيح.

مرة أخرى، قد يلحّ الأنوثيون أن هذا الإعلاء كان زائفاً، يحفظ المقام الذكوري بتنصيب مثال أنوثي باطل ومصطنع؛ ولكن مرة أخرى، لم يكن الانتعاش المريمي منتعشاً حقاً. ولم تكن مريم في العبادة الشعبية مثالاً بأية حال. بل كانت الجنس البشري الحي، في وجه أنثوي مؤلّه، يمارس السلطة فائقة الطبيعة.

وواقع مريم تُظهره للمؤمن سلسلة الظهورات التي بدأت سنة ١٨٣٠. ولم يظهر المسيح للكاثوليك في قرن ونصف القرن إلا نادراً ولكن مريم ظهرت كثيراً. ويضاف إلى ذلك أنها ظهرت وحدها، أو إذا لم تكن وحدها، فبوصفها الشخص الرئيسي في كل ما يُرى. وهي شخص بحكم حقها الأصلي. وحدثت أولى تجليّاتها الحديثة سنة ١٨٣٠ في دير راهبات في باريس. وكانت الرائية راهبة في الرابعة والعشرين من عمرها، اسمها كاترين لابوريه Catherine Laboure. وفي ١٨٤٦ رأى مريم طفلان في «لاساليت». وفي ١٨٥٨ ظهرت في «لورد»، وفي ١٨٧١ في «بونتمان»، وفي ١٩١٧ في «فاطمة» في البرتغال. وفي ١٩٣٢ في «بوران» في بلجيكا، وفي ١٩٣٣ في «بانو» كذلك في بلجيكا. وكانت بوران هي الأولى في سيل من الظهورات المزعومة هناك تصل إلى زهاء الثلاثين، ولو أن السلطات الكهنوتية استقبلت كل حالة ما عدا «بانو» ببرودة.

وبصرف النظر عن كاترين لابوريه في بداية السلسلة، كان معظم الرائين أحداثاً يافعين. ومع استثناء أو استثناءين لم يكن يبدو أن أقوال مريم وأفعالها المبلّغ عنها محتملة أبداً. والمسألة المثيرة للاهتمام والتي يتعذّر تخفيضها هي أن الأخيولة الكاثوليكية الحديثة، أو مهما تكن، لا بد أن تأخذ هذا الشكل، وأن تركز على الكائن البشري –في – اتصال – كلي –مع – الـــ – إلهي بدلاً من التركيز على الألوهة ذاتها. وكان يمكن أن نتخلى عن الموضوع، لولا أنه عن واقع ذي طبيعة أشد خصوصية. وفي حالتين رئيسيتين كان قدوم العذراء تتبعه معجزات. وهي ليست مثل المعجزات الحكائية في القرون الوسطى. فقد حدثت على مرأى من الناس، وأحياناً في ظل ما يُزعم أنه تمحيص علمي.

# الفصل الخامس

## الربيع والشمس

إن «لورد» Lourdes بلدة فرنسية عند مداخل جبال البيرنة، تبعد عشرة أميال عن بلدة (تارب) Tarbes وتستكنّ بين جبال متوسطة الأحجام في محيط جميل من دون أن يكون فيه من الشدّةِ ما لا يُحتمل. يجري فيها نهر صغير سريع الحركة، هو نهر الـــ «غاف» Gave. وفي منتصف القرن التاسع عشر انكفأت البلدة بكاملها إلى أحد طرفي النهر وصغرت كثيراًعلى سكانها الذين يبلغ عددهم زهاء أربعة آلاف. والأهمية الوحيدة التي كانت بحوزتها دائماً هي موقع عسكري قوي، تشهد به قلعتها.

يقارب تعداد السكان الثابت اليوم عشرين ألفاً. وتمتد البلدة امتداداً رحباً على كلتا ضفتي نهر الــ «غاف»، ولديها استيعاب للزائرين من الصعب أن يفوقه فيه أي مكان آخر من الحجم ذاته. وإلى جانب الماء مستطيل من المرج والأشجار مسيَّج ومعتنى به بمحبة، وفي نهاية هذا المستطيل بناية كنسية طويلة ورمادية ليست مجرد كنيسة بل ثلاث كنائس، كنيسة فوق الأخرى، تداخلها شبكة معقَّدة من الأدراج والسلالم. وعلى اليمين وأنت تقترب منها ممشى واسع ومرصوف. وإذا سرت على امتداده، ومررت بحضيض الكنيسة الثلاثية، فإنك تصل إلى مشهد الأحداث التي سببت هذا التحول.

وقد ولدت «برناديت سوبيرو» Bernadette Soubirous سنة ١٨٤٤ قرب القلعة، وكانت بكراً لطحّان. وكان أفراد الأسرة من الممارسين للعبادة

الكاثوليكية ولكنهم لم يكونوا من الأتقياء. وأدت إدارة أبيها السيئة و(كما يُزعم) شربه الخمر إلى خسارة المطحنة، وإلى الوجود في سجن مُهمل في حالة فقر مدقع. وأثّرت الرطوبة والتغذية الرديئة في صحة برناديت. وفي الرابعة عشرة من عمرها كانت دون الحجم الطبيعي ومصابة بالربو. على أية حال، كان في ميسورها أن تعمل في العراء، راعية للغنم.

وفي يوم الخميس الحادي عشر من شباط ١٨٥٨، خرجت مع أخت لها أصغر منها وأحد الأصدقاء لجمع الحطب. كانوا يسيرون عبر ما كان آنذاك ريفاً مكشوفاً إلى موضع كانت قناة فيه تتفرق عن نهر الـــ «غاف». وفي الطرف المقابل للقناة رقعة من سطح صخري، فيها مغارة تدعى (ماسابييل) Massabielle وهي عبارة عن تجويف كبير (ولا يزال كذلك) وأعمق بما فيه الكفاية من أن يسمّى كهفاً، وفي الصخر فوقه كُوى وشقوق. وبرغم أن المكان في نطاق مسار بيت برناديت، فإنها لم تأت إلى هناك من قبل، وليست له عندها تداعيات خاصة. ورأى الطفلان الآخران خشباً مجروفاً بالمياه وممدّداً على الضفة البعيدة قرب المغارة، فقطعا القناة الضحلة خوضاً. وأحجمت برناديت عن اللحاق بهما لأن الماء كان بارداً، ولكنها خلعت أخيراً حذاءها وجوربها وأوشكت أن تبدأ الخوض، عندما ظهر ما يوقفه. وفيما يلي موجز لوصفها لذلك.

**سمعت صوت الريح، كأنها في حالة عاصفة. التفتُّ نحو الأرض المعشبة فرأيت أن الأشجار لا تتحرك أبداً... وكنت أضع إحدى قدميّ في الماء عندما سمعت الصوت ذاته أمامي. رفعت نظري فرأيت لفيفاً من الأغصان والعُليقات في أسفل الفتحة العليا للمغارة وهي تتقاذف وتترجح جيئة وذهاباً، برغم أنه لا شيء كان يتحرك غيرها.**

**خلف هذه الأغصان وفي داخل الفتحة، رأيت في تلك اللحظة فتاة ترتدي ثوباً أبيض، ليست أكبر مني، تحيّيني بانحناءة خفيفة من رأسها. وفي الوقت ذاته، مدت ذراعيها بعيداً عن بدنها قليلاً، فاتحة يديها كأنها صورة او تمثال لـــ «سيدتنا». وعلّقت على ذراعها اليمنى سبحة. خفت وتراجعت...**

**رفعت نظري فرأيت الفتاة تبتسم لي بمنتهى اللطف ويبدو أنها تدعوني إلى أن أقترب. إلا أنني كنت بعدُ خائفة. ولكنه لم يكن خوفاً كالذي كنت أشعر به في أوقات أخرى، لأنني ودِدت أن أبقى هناك أنظر إليها إلى الأبد.**

**فكّرتُ عندئذ في التفوه بصلواتي. فوضعت يدي في جيبي وأخرجت السبحة التي هي معي دائماً.... وسبحتُ تسبيحتي. ومرّرت الفتاة الخرزات عبر أصابعها ولكنها لم تحرك شفتيها...**

**كانت ترتدي ثوباً أبيض يصل إلى قدميها فلا يبين منهما إلا أصابعهما. وكان الثوب يتجمع عالياً عند العنق ويتدلى من هناك حبل أبيض. ويغطي رأسَها حجابٌ أبيض وينزل على كتفيها وذراعيها وتقريباً إلى أسفل ثوبها. ورأيت على كل قدم زهرة صفراء. وكان حزام ثوبها أزرق ويتدلى إلى أسفل ركبتيها. وسلسلة السبحة صفراء، وحباتها بيض وكبيرة، وبينها فسحات واسعة.**

**كانت الفتاة حية، في ميعة الصبا ويحيط بها نور. عندما أنهيت تسبيحتي انحنت لي بابتسامة. وانزوت في الكوة. وبغتة اختفت.**

هذه قصة مثيرة للمشاعر، ويبدو أنها مفيدة إلى جانب قصص بعض الرائين الذين يُفهم ما يرمون إليه. على أنها تستدعي عدة تعليقات. فقد نتساءل كيف أمكن لبرناديت، التي لم يكن لديها بصر غير عادي ولا قدرات مدرَّبة على الملاحظة، أن تتبين هذا التفصيل الشديد من مسافة بعيدة قبالة الماء. والواقع أنها تبينته ولو أن القصة لا تتضمن ذلك. وقد روتها في هذا الشكل – قطعة قطعة، لا بالتتالي – بعد عدة أيام، عندما رأت الشخصية مرة أخرى من موقع أقرب. وعندما حدّثت كاهنها الذي يتولى اعترافها في يوم السبت بعد الظهور الأول، كانت أقل دقة بكثير، ولم تقل إلا أنها كانت «شيئاً أبيض على شكل فتاة». وكان من مصلحتها تأكيدُ أنها لم تجزم أنها **العذراء**. وكان المصطلح الذي تشير به إليها هو «أكيرو» Aquero، الذي يعني في لهجتها العامية «هذا الشيء». والتفصيلة الأخرى تشير إلى أكثر من مجرد اختلاق يأخذ مجراه، بل حتى تخيل عادي، هو إيراد عدِّ الشخصية لحبّات السُّبحة مع

برناديت ولكن مع عدم التفوه بالصلوات معها. وما دامت الصلوات في معظمها هي صلوات «**السلام عليك يا مريم**»، فيمكن أن يُفترض أن مريم لن توجهها إلى نفسها. ومع ذلك يبدو أن فكرة كهذه تنطوي على حنكة شديدة بالنسبة إلى طفلة ريفية تكاد تكون من دون تعليم مدرسي.

ولا يوجد برهان حقيقي على مسألة كم دامت الرؤية. ومن المشكوك فيه أن تكون برناديت قد سبّحت التسبيحة كلها، وهي ممارسة تستغرق عشرين دقيقة على الأقل. ولكن رفيقيها، حين نظرا وراءهما عبر الماء، رأياها جاثمة على ركبتيها من دون حَراك مدة كافية لإثارة القلق. وعندما غاب الطيف خاضت فوق القناة للالتحاق بهما، وتم جمع الحطب. وسألتهما برناديت هل رأيا أي شيء (ولم يريا) وعندئذ، وبتردد أخبرتهما بالرؤية. وانتشرت الشائعات. وانزعج والداها وفي البداية منعاها من العودة إلى البقعة، لكنهما رقّا لها يوم الأحد من غير أن يكونا سعيدين. وجالت من طريق آخر ومعها زجاجة من ماء مقدس، ونزلت إلى المغارة من سفح الرابية التي فوقها. وظهرت الشخصية مرة أخرى، مع أن الفتيات المتعددات اللواتي اصطحبتهن لم يرينَ شيئاً – ويبدو ولا حتى أي اضطراب لشجيرة الورد البري تحت الكوة. ولم يكن للماء المقدس تأثير إبعادي. وركعت برناديت بعض الوقت في وجد، وهما تبكيان وتبتسمان معاً.

وكانت هذه الظهورات في مجموعها ثمانية عشر ظهوراً. وفي المرة الثالثة تكلمت **السيدة** «بصوت لطيف جدا» وبكياسة رزينة. وخاطبتها بالضمير «أنتم» vous لا برفع الكلفة واستخدام الضمير «أنت» tu، ووعدتها بأن تجعلها سعيدة في العالم القادم ولكن ليس في هذه الدنيا. وعلى الرغم من السلوك العدائي الذي يبديه الموظفون المدنيون، فقد صار الناس يشهدون بالتدريج حالات الوجد التي كانت تنتاب برناديت. وفي أحد الأيام قام طبيب متشكك بقياس نبضها وفحص تنفسها، ولكنه وجد أن كليهما طبيعي. ولدى عودتها إلى البلدة، أخضعها مفوض شرطة لاستجواب استقصائي من دون أن يكون قادراً على زعزعة قصتها. ومع أن المشاهدين لم يروا **السيدة** أبداً، فقد قدّم كثيرون

منهم شهادات على ما يحلّ على برناديت من جمال يبدل هيئتها – هيئة الطفلة البسيطة – في حالات وجدها، وكانوا مقتنعين أنها كانت على اتصال بشخص ما أو شيء ما.

وفي الخامس والعشرين من شباط قالت لها **السيدة** «اشربي واغتسلي في الربيع»، وأشارت إلى بقعة على الأرض لا يمكن أن يُرى فيها غير حفرة صغيرة. وحكّتها برناديت بيدها. فأخذ ماء قليل يجري، ومع أنه كان في البدء موحلاً، صار بالتدريج صافياً وأكثر وفرة. وكان طلب **السيدة** الثاني هو بناء مكان صغير للعبادة المسيحية. ونقلت برناديت الطلب إلى الكاهن الأبرشي الأب بيرامال Peyramal وكان معارضاً تأدية العمل كلياً، وقال لها أن تتعرف باسم **السيدة**. وأضاف، «إذا كانت تعتقد أن لها أي حق في بناء المعبد الصغير، فاطلبي منها أن تبرهن على ذلك بجعل شجيرة الورد عند المغارة تزهر على الفور.» وفي اليوم التالي قامت بتبليغ الطلب، ولكن السيدة اجتزأت بأن ابتسمت.

ودام الخلاف المستحكم والغريب بسبب الاسم عدة أسابيع، وبدا أن الظهورات قد توقفت. إلا أن سيل الزائرين قد تواصل، واتُّهم الأبوان سوبيرو بجني المال من رؤى ابنتهما، مع أن التهمة قد دحضت. وفي الخامس والعشرين من آذار ذهبت برناديت إلى المغارة، ورآها حشد من المشاهدين تدخل في حالة وجد مرة أخرى. وفي هذه المرة انتقلت السيدة إلى الأسفل من كوّتها في الصخر وحامت حول المغارة ذاتها،واقتربت كثيراً. وسألتها برناديت عن اسمها ثلاث مرات، وعند السؤال الثالث جاء الجواب أخيراً: أنا **الحبل بلا دنس** وفي لهجتها العامية Immaculada Concepciou.

واهتز الكاهن عندما أخبرته برناديت بذلك. إذ تؤكد العقيدة القطعية في **الحبل بلا دنس** أن مريم، وحدها دون البشر، لم تكن خالية من الإثم وحسب، بل كذلك مستثناة من الخطيئة الأصلية، التي يُفترض أنها توجد فينا منذ اللحظة الأولى في الحياة. ومن ثم فإن كلمات «الحبل بلا دنس» من شأنها أن تشير إلى **العذراء المباركة** لا إلى أحد غيرها. وهذه العقيدة، التي جرى الاعتقاد بها على

نطاق واسع في الكنيسة الكاثوليكية مدة قرون، قد حددها البابا قبل الرؤى بأربع سنوات. ولكن العبارة المرهِقة بوصفها نوعاً من التسمية الرمزية المركبّة من الغريب جداً أن تعثر عليها طفلة جاهلة بطريق المصادفة. ولم تكن لدى برناديت ذكرى شعورية لذلك، وردّدتها أمام الكاهن ببغآئياً.

وشعر مطران «تارب» الذي كانت «لورد» ضمن مطرانيته، بأنه مرغم على دراسة الحالة بجدية أكثر. كان تحت ضغط شديد من المتحمسين، ولم يعد الصمت كافياً. وحاولت السلطات المدنية تسييج المغارة، حتى تحظى على الأقل بفرصة استراحة، ولكن حواجزها انهدّت. وحدثت أول معجزة مادية أو شبه معجزة في السابع من نيسان. كانت برناديت في حالة وجد من جديد، وانسلّت شمعة من أصابعها فأحرقت الشعلة يدها بصورة ملحوظة. ولم تُبدِ أمارة على الإحساس بذلك، وكان الطبيب المتشكك حاضراً من جديد، ولم يجد أثراً على يدها. وبُعَيد ذلك أحضر مُزارع ابنه الأشلّ البالغ خمس سنوات من العمر إلى المغارة، وغطسه في الماء الجاري منذ أن فتحته برناديت في الربيع. وفي الحال تقريباً وقف وسار.

وقامت **السيدة** بظهورها الأخير في السادس عشر من تموز. لم تدرك برناديت أنها حيال أية مغادرة من نوع خاص، ولكن من الواضح أنها فهمت أن هذا الظهور هو الظهور النهائي، ولو أنها واصلت إعادة الزيارة للمغارة من حين إلى حين. وظلت تعيش في «لورد» حتى دخولها في دير للراهبات سنة ١٨٦٦. وكانت اللجنة التي شكلها مطران تارب قد وصلت إلى نتيجتها:

**نقرر أن مريم، أم الإله من دون دنس، قد ظهرت حقاً لـــ «برناديت سوبيرو» في الحادي عشر من شباط ١٨٥٨ وفي بعض الأيام اللاحقة – ويصل مجموع الظهورات إلى ثمانية عشر ظهوراً – في مغارة «ماسابييل»، قرب بلدة «لورد»؛ وأن هذا الظهور يحمل كل علامة الحقيقة ويسوّغ للمؤمنين أن يصدّقوا أن هذا حقيقي.**

حتى في عصر كانت فيه روما ذات سلطة أكثر بكثير من الآن، كان هذا القرار مجيزاً بالأحرى وليس ملزماً. وليست اللجنة التي يعيّنها مطران فرنسي واحد هي الكنيسة. ولم يكن الكاثوليك مرغمين على الاتفاق معها، أو أن يؤولوا النتيجة تأويلاً فائقاً للطبيعة. وكان ما فعله المطران على الخصوص هو إنهاء محاولات القمع، والسماح لعبادة بأن تتفتح في جو لطيف. وكان يتم الإلماع إلى أن أشهر ملمح هو حين كانت الظهورات مستمرة بعد. ليس بصورة آلية، أو حتى تكرارية، بل كان المرضى الذين يُغَطَّسون في الماء تعتريهم حالات شفاء مذهلة.

وسرعان ما ارتفعت مكانة «لورد» بوصفها مَحَجّاً. ولم تكن العملية سهلة. واندلعت مناقشات غير مهذبة بين الفروع المتنافسة للهيئات الدينية المسيحية، بسبب بناء الكنائس الجديدة والحق في توفير التسهيلات للحجّاج. أما النمو فقد استمر لا يثنيه شيء، وبانتشار الأخبار عن ماء الربيع المحدِث لحالات الشفاء، انصبّ التأكيد على ذلك الجانب باطّراد. وحالياً بُنيت دار للاستحمام، وأخذت جماعات كاملة من الحجاج المرضى تصل في قطارات خاصة. وتشكلت جمعيات من المتطوعين غير الكهنوتيين، كانت توصِل المرضى إلى «لورد» وتعنى بهم في أثناء إقامتهم. واستمر في الأزمنة الحديثة بناء المباني الإضافية، وإدخال التحسينات في التنظيم.

ومما لا ريب فيه أنه تحدث في «لورد» حالات شفاء، كان بعضها مدهشاً من الوجهة الطبية، وهذا أقل ما يقال. ولكن هل كانت فيها معجزات؟ إن الخطوة الأولى نحو الإجابة هي إزالة الأمور التي لا صلة لها بالموضوع.

ولنبدأ بأنه لا يتطرق الشك إلى أن «لورد» نوع من المنتجع الذي يوجد فيه نبع ماء معدني. والماء الجاري من النبع ليس متميزاً أبداً. وقد حُلِّل في مرحلة الإثارة الباكرة، وتبين أنه ماء جبلي بسيط مطابق لمياه جبال البيرنه. والتحليل الأحدث أكد هذا القرار. ومحتواه المعدني الضئيل لا يجعله ماء «نبع معدني»، وليست فيه عناصر غير عادية، كالتراب الناعم الغني بالمواد العضوية، يمكن أن تكون لها قدرات شفائية. والحجة (التي سمعتُها بالفعل) هي

أنه «لا يمكن أن يكون هناك شيء خارق للعادة حول لورد، لأن التحليل أظهر أن الماء هو مجرد ماء»، فمن الصعب الانشداه لسخافة. إن الماء هو مجرد ماء، وهذا هو أحد الأسباب التي تجعل «لورد» خارقة للعادة.

إن أمثال هذه الأسباب المادية البسيطة يمكن صرفُها. وحيث تبدأ الصعوبات تكون بسبب مسألة «الشفاء الإيماني». وهذا مصطلح طبيعي يستخدم لحالات الشفاء في «لورد»، وهو كذلك غالباً. ومهما يكن، فهو يجب أن يُستخدم بتمييز. فهو يشير إلى نوع من الشفاء. إذا تبين أنه يمكن أن يفسر كل الحالات، فإنه لا يؤكد الإعجازي بل يبعده. والشفاء من هذا الطراز عموماً عملُ شافٍ، مثل المبشّر أو المبارك بوضع اليدين على الشخص. إنه تقنية علاجية لها مفعولها في بعض الأحيان عندما يكون الاضطراب نفسياً على وجه الإجمال وليس جسمياً. وقد يكون الشفاء باهراً، كما حين ينهض الأشلّ ويسير، ولكن عندما يحدث هذا فلأن المانع قد زال، لا لأن الأطراف قد تغيرت. فالشعاع السيني لا يُظهر شيئاً من هذا القبيل.

وحالات الشفاء التي هي كهذا الشفاء – وتسمى بحق علاجات الشفاء الإيماني – يمكن أن تحدث من دون وجود من يزاول العلاج، وقد حدثت من دون ريب في «لورد» في أعداد غفيرة. ويمكن أن يُنسَب الكثير إلى مجرد الجو والإيحاء الجماعي. وليس المرضى الفعليون إلا الأقلية البارزة في حشد الحجاج الذين يفوقونهم عدداً بقدر كبير جداً. إنهم عشرات ألوف بين ملايين. ومن السهل على هذه الأقلية أن تكون مرفوعة المعنويات وأن تجرفها الأكثرية.

مهما يكن (وهذه مسألة من النادر جداً جداً أن تكون مفهومة) فإن هذه الحالات الشفائية لا يُزعَم أنها معجزات. وتعلم السلطات الكهنوتية كما يعلم أي شخص أنها تحدث في مجرى الأمور الطبيعية، لا من خلال أي فعل إلهي. ومعجزة «لورد» يُعلَن عنها رسمياً فقط – ومع ذلك، لم يجر جعل الاعتقاد ملزماً للمؤمنين – عند إسقاط أمثال هذه التفسيرات مع كل التفسيرات الأخرى التي يمكن أن يقترحها العلم الطبي. والسياسة متلائمة مع المبادئ التي كنا

لاحظناها. ولا يمكن للعلم أن يثبت المعجزة إيجابياً، لأن المعجزات هي، بالتعريف، استثناءات وخارج العلم. ومن جهة أخرى، عندما أخفقت كل تفسيراتها، فإن ذلك قوّى الحق في إنكارها. ويجب أن يقوم الاعتقاد أو عدم الاعتقاد على أسس أخرى: هل تمتلك الحادثة النوع الصحيح من الصفة المميزة والمعنى، وما هي عواقبها، وهلم جرا.

وقد قام طبيب اسمه «سان – ماكلو» Saint-Maclo بأول إجراء «لوردي» سنة ١٨٨٥. واحتفظ هو وخلفاؤه بدائرة يُفحص فيها الحجاج الذين يزعمون أنه تم شفاؤهم. وجرت محاولات للتحقق من تاريخ معالجاتهم الطبية. وكان مهترئاً كل الاهتراء، وعلى الأغلب لم يكن تاريخ المعالجة الطبية أكثر من رأي وجيز مقدّم من طبيب عمومي ريفي من الدرجة الثالثة، يلفه انحيازه بطريقة أو بأخرى. ومع هذا، فإن النتيجة التراكمية للحالات التي درسها هؤلاء الأطباء جعلتهم يميلون إلى الاعتراف بلغز محيِّر، وقد اعترفوا بذلك في بعض الأحيان في كتاباتهم، وهم يعلّقون على مرضى معينين.

وتقدم رواية إميل زولا «لورد» Lourdes صورة مقروءة عن الحالة التي كانت عليها الأمور سنة ١٨٩٢. وهي ليست عملاً روائياً تخييلياً بمقدار ما هي عمل توثيقي في شكل روائي كتبه صحافي حاد الذهن، ومعادٍ، ولكنه شفوق. وعندما أجرى زولا مقابلة حول ذلك أقر بأنه عثر على عدة حالات شفاء لا مراء فيها. ولم تكن المشكلة عنده مشكلة حقيقة بل مشكلة تفسير. وكان حكمه هو أنه نتيجة للجهل الطبي، والفجوات في الشهادة، والعوامل الأخرى، فإن المعجزات التي يُجزَم بوقوعها لا يمكن إثباتها ولا دحضها. وبما أن الأمر كذلك، فمن شأن النهج العقلي أن يرفضها. وهو ذاته لم يصدقها. وقد صدقها الكثيرون، ولم يكن تصديقهم ضد الوقائع، ولا عبر الخداع أو خداع الذات، وإنما بسبب التفكير الرَّغْبي. ويغلب على الحاجة البشرية، واليأس البشري دائماً محاولة التشبث بالخيار التأكيدي واستشفاف يد **العذراء المباركة**.

ويقدم زولا هذه النتيجة من خلال شخصية في القصة.

**أخذ بيير يفهم الآن ما كان يحدث في «لورد»... إن القوى التي لم تُدرَس إلى الآن إلا دراسة ناقصة، بل حتى كان المرء جاهلاً بها، كان لها فعلها بالتأكيد - الإيحاء الذاتي، واضطراب الأعصاب المهيأ من مدة طويلة؛ وتأثير الرحلة المقوّي للعزيمة، والصلوات والتراتيل؛ وعلى وجه الخصوص النسمة الشافية التي نشأت من العدد الغفير، في أزمة الإيمان الحادة. وهكذا بدا له أن أي شيء ممكن إلا أن يصدّق الذكيُّ الخداعَ. وكانت الوقائع ذات طبيعة فيها أكثر ما يكون من السمو وأكثر ما يكون من البساطة على السواء. ولم يكن هناك موجب لدى «آباء المغارة» أن ينحدروا إلى الكذب؛ بل كان كافياً أن يساعدوا على التشوش، وأن يستفيدوا من الجهل العام. بل يمكن حتى الاعتراف بأن كل شخص عمل بإخلاص - من الأطباء عديمي النبوغ الذين سلّموا الشهادات، والمرضى الذين جرت مواساتهم وظنوا أنهم برئوا من المرض، والشهود الملتهبين بالحماسة الذين أقسموا أنهم شاهدوا ما وصفوه. ومن كل هذا نشأ تعذّر واضح لإثبات هل توجد معجزة أم لا. وما دامت هذه هي الحال، فكيف لم تصبح المعجزة بصورة طبيعية واقعاً بالنسبة إلى العدد الأكبر من الناس، ممن قاسوا وممن هم في حاجة إلى الأمل؟**

وفي مواضع أخرى يُفسد زولا إلى حد ما نتيجته المتجردة. فمثلاً، حين يتذكر كيف بدأ العمل الكسبي، عليه أن يحسب حساباً لمسألة أن مطران تارب، وهو مطران حكيم ومتنور، أجاز العبادة عندما كان بإمكانه أن يوقفها. ولا يستطيع زولا أن يعترف أن إنساناً كهذا يمكن أن يؤمن بالظهورات. ولذا يلجأ إلى الترجيم[1] حول الحالة الذهنية للمطران تحت الضغط الشعبي «لا بد أن ألمه كان شديداً للغاية»، إلخ.) ويحتج بأنه سمح للشفقة بأن تبطل العقل، «منعماً على البشر المساكين بما يتطلبونه من خبز الكذب ليكونوا سعداء.» ويبدو هذا الكلام محض أخيولة، وتفكير رَغْبي من الإنسان الريبي المخالف للمؤمن. ويُستشهد كذلك بعبارة على أن زولا قد قالها في موضع آخر غير الرواية، «لو

(١) الترجيم speculation : هو التكلم بالظن من دون معرفة الوقائع.

شُفي كل المرضى في لورد في آن واحد، لظللت لا أؤمن» – وهو تعليق فكه وغير مقصود على موقف الريبي ذي الذهن المنفتح. وبالرغم من ذلك، تظل رواية «لورد» كتاباً له أشد الأهمية، بإثباته مسائل لا تزال صحيحة. ووصفه لـــ «برناديت» ذاتها محرك للنفس إلى درجة غريبة وغير متوقعة كأنما هنا، وهنا فقط، يكاد يكمن اقتناع بأن الفائق للطبيعة قريب جداً ويشق طريقه بالقوة ويجب أن يقاوَم.

وفي قرابة ستين سنة ظل الوضع كما صوّره زولا، برغم أن **المكتب الطبي** قد صار أشد انتظاماً وحذراً. وعموماً كانت الخطوة الأخيرة له في البحث هي هل يمكن أن يفسَّر الشفاء تفسيراً طبيعياً. ومن ١٩٢٥ إلى ١٩٣٨ أنكر تلك الإمكانية في خمس وثمانين حالة. وعندما أنكرها، صار الاعتقاد بالمعجزة مسألة اختيار، وندر أن أبدت الكنيسة أي تصريح. وقد تأثر بالمعجزة كثيراً رجال طب من أرفع مقام، أمثال ألكسي كاريل[1] الحائز على جائزة نوبل. وغيرهم لم يتأثروا.

بُعَيْد الحرب العالمية الأولى، ومع تجدد الحج الجماعي، كان الإجراء ينطوي على التشدد والتفصيل. ودققت مجموعة كاثوليكية في الملفات ووجدت الكثير مما يستحق النقد. ومنذئذ تشجع الحجاج المرضى على الإتيان بالشهادات من أطبائهم، مقدمين لهم كامل التقدير، وهكذا ففي حادثة الشفاء يمكن أن تتحدد طبيعة التغيير الجسدي. وفي ظل رئيس جديد، هو الدكتور «فرانسوا لوريه» Francois Leuret، توسَّع «المكتب الطبي» وتجدد تجهيزه. ولعل الأهم كان

---

(١) ألكسي كاريل Alexis Carrel (١٨٧٣-١٩٤٤) عالم بيولوجي، ولد في سانت فواليه Ste-Foy-Les في ليون (فرنسا). درس في جامعة ليون، وانتقل إلى «معهد روكفلر للبحث الطبي» في مدينة نيويورك سنة ١٩٠٦. اكتشف طريقة في خياطة الأوعية الدموية جعلت من الممكن تبديل الشرايين، ونال جائزة نوبل في الطب سنة ١٩١٢. وقدم أبحاثاً كثيرة حول تطويل الأنسجة. وساعد هنري ديكن Henry Dakin على إنشاء «محلول ديكن» لتعقيم الجروح العميقة.

إضافةَ عقبتين على المعجزة المتكررة أن تزيلهما، مع تصريح كهنوتي في نهاية المطاف. وتأسست «لجنة طبية عالمية» ومقر إدارتها العامة في باريس. ومنذئذ، إذا وجد «المكتب الطبي» في المكان شفاء من الصعب بما فيه الكفاية أن يفسره، أرسل ملف المريض إلى «اللجنة» الجديدة. وإذا اجتمع الأطباء في باريس وقرروا كذلك بأنه لا يفسَّر، ذهب الملف إلى بطرك المنطقة المطرانية التي يعيش فيها المريض. وعندئذ يأمر بإجراء بحث خاص في الخلفية. ولا يمكن أن تكون هناك مسألة اعتراف بمعجزة إلا إذا لم يُسفر هذا عن معلومات جديدة تعدّل حكم الأطباء، أو تثير استفهامات من أنواع أخرى.

وضيّق الإجراء المجال. ولم يقتض الأمر إلا تسيير ما يقرب من حالة من عشر حالات دُرست في «لورد» إلى «اللجنة العالمية»: وأقل من نصف ذلك العدد الضئيل تم إيصاله إلى البطاركة. ومع ذلك لم يكن من المرجح أن تفضي الأبحاث المحلية إلى نتيجة سلبية. وفي العقد الأول للنظام الجديد، لم تبق إلا إحدى عشرة حالة بعد التمحيصات الثلاثة كلها، وأعلنت السلطات الكنسية أنها مقبولة على أنها معجزات. وكان السجل في العقد التالي يحتوي على القدر ذاته. ومنذ العام ١٩٥٦ لا يبدو أن الإجراء قد تمت مواصلتُه حتى النهاية في أكثر الأحيان، ولا تستفيد الأرقام الأخيرة من الحد ذاته.

ولكي يُعدّ الشفاء معجزة يجب أن يستوفي الشروط التي وضعها البابا بنديكت الرابع عشر في القواعد المسنونة من أجل رِسامة القديسين. ومفاجأة التغير هي الجانب الذي له أشد الأرجحية في تقدير الأهمية. وقد حُلّلت الحالات التي حكم بإعجازيتها من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٥ تحليلاً نقدياً قام به الدكتور د. ج. وست Dr D.J.West في دراسة معنونة بـــ «إحدى عشرة معجزة لوردية». ولم تعالَج الحالات اللاحقة باللغة الإنجليزية مثل سابقاتها.

والحالات الإحدى عشرة هي كما يلي. وللنساء الغَلبة، شأنهن دائماً، ولكن يجب ألا يفهم من هذا الكلام الشيء الكثير. فالنساء يواصلن الحج أكثر من الرجال.

**مدموازيل غابرييل كلوزيل: التهاب العمود الفقاري.**

**مدام جستا: اضطرابات ما بعد استئصال للمعدة.**

**مدام روز مارتان: سرطان ثانوي.**

**فرنسيس باسكال: شلل من التهاب السحايا.**

**الكولونيل بلغرين: الناسور.**

**الأخت مارغريت: التهاب الكليتين.**

**مدموازيل تيريز كانان: تدّرن غشاء البطن.**

**مدموازيل جان فريتيل: السل الرئوي.**

**فرولاين فولدا: داء أديسون.**

**مدموازيل كوتو: تصلّب الأنسجة المنتشر.**

ويثير بحث الدكتور وست لهذه الحالات الشفائية مسائل تقنية تتجاوز المتسع الذي لدينا. وهو حريص على أن يؤكد أن الآراء تختلف. ومجمل القول فالنتيجة التي استخلصها هي أنها يجب أن تختلف، لأن الدليل ليس دقيقاً دقة كافية، وهي بالتأكيد ليست دقيقة كما يود أن يؤكد أنصار «لورد». ولا معجزة من المعجزات معجزة واضحة، ولا يمكن تصديقها من النظرة الأولى، مثل نمو بديل من أحد أطراف المريض. والزوال المفاجئ لسرطان أو حالة تدرّنية قد يكون حقيقياً، ولكنه ليس بائناً. ولإبانة أن الحالة معجزة، يجب أن يكون ثمت برهان على الشذوذ التام وهو أمر ليس سهلاً على الإطلاق. وبينما كانت حالات الشفاء الإحدى عشرة تلفت الأنظار بكل وضوح، يقدم الدكتور وست الحجة بأنه تقف ثلاث عقبات كبيرة في طريق التقدير الصحيح.

أولاً، إن تواريخ الحالات ليست وافية تماماً. وربما كان التشخيص مغلوطاً فيه، أو ربما كانت هناك عوامل مجهولة لم يكشف البحث عنها. ثانياً، توجد المشكلة النفسية – الجسدية القديمة – كم يمكن أن يكون الشفاء ناشئاً عن

حالة ذهنية سببتها «لورد». ولم تفترض أية حالة من الحالات الإحدى عشرة هذا الأمر، ولكن العلماء عرفوا أن يكونوا حذرين من الحدود الثابتة لأمثال هذه الظواهر. ثالثاً، هناك انعدام للضبط الاختباري. فالمرضى يتعافون فجأة وعلى نحو غامض في «لورد» غير أن المرضى يتعافون فجأة وعلى نحو غامض في أماكن أخرى. وليست لدينا وسيلة لمعرفة هل سيتعافى مرضى «لورد» أم لن يتعافوا لو ظلوا في البيت.

وفي حالات الشفاء التي درسها الدكتور وست لم يبطل التفسير الإعجازي. ولم تُردّ حالة شفاء إلى سبب طبيعي قاطع، مثل معالجة تم كتمانها في تقارير «لورد» ولكن البحث المستقل كشف عنها. ويقيناً لا تنطبق عليها ملاحظة البطرك في مسرحية برنارد شو حول «معرفة كيف يتم ذلك». مهما يكن، فعنصر الشك موجود على الدوام وهو خطير في بعض الأحيان. وعلينا أن نستخلص أن المزاعم الإعجازية في «لورد» لم يجر البرهان عليها بالضبط بطريقة أو بأخرى، حتى بمعنى أن مسألة هل يمكن للعلماء والأطباء أولا يمكن لهم أن يفسروا كل حادثة مسألة يقينية تماماً. يتملص جلهم من المسألة، كما هو دأبهم. وبين الذين واجهوها أسماء ذائعة الصيت يمكن أن يُستشهد بها على الوجهين. ولا يزال حكم زولا من الممكن الأخذ به. ربما، لو حدث بعض الفرز. ويمكن تجاوز معظم المعجزات المزعومة منذ ١٨٥٨، ولكن القلة التي تبقى هي الأشد تأثيراً. إن الاعتقاد – الاعتقاد الرزين القادر على التمييز – أكثر حظوة بالاحترام وأقل دلالة على الرغبة مما كان في زمن زولا. ويبقى ذلك صحيحاً، على الرغم من الفجوات التي يمكن أن تتكشف في الدليل على الاعتقاد.

ويجب أن يضاف أخيراً أن جعل كل شيء يعتمد على حفنة من المعجزات هو إخراج «لورد» من المنظور الصحيح، ولو كانت كلها صادقة. إن «لورد» مكان للاستشفاء الجسمي والروحي – لآلاف لا تعد من الحالات، وليست لمجرد حالات قليلة خاصة – من العبث صرف النظر عنه. والحضور (لا أعرف كلمة أخرى أدعوه بها) أعظم بكثير من تجميع حوادث إفرادية. ومع

كل تدفق المرضى، لم يحدث وباء أبداً. وهذا «دين إنج» Dean Inge، وهو عضو في الكنيسة الأنغليكانية ومؤلف رسالة موجزة بين الحربين، أظهر ذات مرة محبته المسيحية بوصف «لورد» بأنها «دجل مربح». وليس من شأن القلائل الذين تفحّصوا الوقائع بصدق أن يرددوا قوله اليوم. حتى الإجراءات التجارية الشهيرة، مع ما يلازمها من بهرجة، أقل زخرفة بكثير مما يميل الغرباء أن يعتقدوا.

أما «ج. ك. تشسترتن» G.K.Chesterton (وكان دين إنج ذاته العالم والماجد دائماً، قد سمّاه «الدجال البدين»)، فقد زار «لورد» سنة ١٩٣٦. وطالما جفل من زيارة كهذه لما سمعه عن المكان. وعند رؤيته له أخيراً، وضع ملاحظاته في رسالة لا تزال، برغم ما فيها من تبديلات كثيرة، تحتفظ بحقيقة لاحظها بعمق وفطنة.

**إن «لورد» ليست فاسدة: جاءتها سيدتنا إلى أشد الناس تواضعاً، إلى الطفلة ذات الأسمال البالية والتي تكاد تكون حافية: ولعل ذلكم هو سبب وجود الشعور بأنها تركت هذا المكان الصخري في نقاء كناصع الحجر؛ كأنما كانت توجد صحة لا ثروة يجب أن تستخرج منه... والهيكل في «لورد» صخر صلب و«فقر مقدس» - كل ما لا بد أن كان عليه القديس فرنسيس الأسيسي. وحتماً توجد مخازن تبيع الأشياء التذكارية: ذلك أمر محتوم: لأننا جميعاً يجب أن نتعاطف مع من يشترون لا مع من يبيعون. إلا أن أمراً ما قد وضع خشية الله في نفوس أصحاب المخازن: فهم لا يُحَلّون سلعهم في أعين الزّبن أو يضغطون أو يساومون أو يملّسون، بل بحكم العادة يظهرون....**

**ومن نظّم الأمر أظهر تمالكاً للنفس. وليست المغارة «ألَقَ ذهب وتباريق» كما من واجبها أن تكون من أجل السياح المعمدانيين الآتين من ولاية تينيسي «في أمريكا». إن المغارة غابة غبشاء من العكاكيز والأرجل الخشبية التي ينهض عليها من كانوا أشلاّء ممن لا يستطيعون أن يتحملوا هذه الأشياء إلا إذا كانت من الخشب الصّراح. والبقية أكاذيب صحفيين (مثلي) وخصوصاً أكاذيب**

**مصورين. لأنه لا شيء يمكن أن يكذب مثل الكاميرا. وكانت لدي فكرة أن تمثالاً هائل الحجم يهيمن على البلدة، برجاً إيفيلياً ينير مثل منارة. وهذه الفكرة هي من اختلاق شخص يُميل آلة تصوير أمام تمثال صغير وادع في حيز مغلق، حيّز هادئ ومنقطع عن الناس كما هو المكان في حالة الانسحاب. سامحوني على الإملال بهذه الطريقة، ولكنني مفعم بالدهشة والسخط.**

و«فاطمة» Fatima، وتُعد المكان الإعجازي الحديث الآخر عند الكنيسة، هي حالة مختلفة. يستند زعمها إلى حادثة مريعة، مذكورة في صحف ذلك اليوم، ولكن من الصعب أن تناظرها في الخارج أية حادثة حتى في حكاية خرافية. وعدم وجود شيء تقارَن به يطرح مشكلة تجعل الناس ينفرون منها عموماً، بمن فيهم حتى أصحاب الفكر الكاثوليك الذين يدركون الصعاب. ومع ذلك فمن المشكوك فيه أن تكون أية معجزة أخرى قد سبق أن حدثت بمثل هذه العلنية، والمشهدية المثيرة، أمام مثل هذا الجمهور الواسع، أو بمثل هذا التأثير الساحق في المعارضة (في ذلك الحين).

و«فاطمة» قرية من قرى مراعي الغنم في تلال البرتغال الأوسط. وخلافاً لـــ «لورد» لها شيء من جاذبية المناظر الطبيعية. والمشهد الطبيعي كثير الأحجار، وذو أشجار صغيرة ونباتات متفرقة بعض الشيء. إنه يعلو وينخفض بلطف من دون أن يرتفع إلى أعالي التلال أو يغوص في أعماق الوديان. ولا تدانيها بلدة كبيرة. وكان الفلاحون في العام ١٩١٧، زمن الزيارة، يعيشون حياة شاقة مقتصدة في النفقات ولم يكونوا أتقياء أو خياليين بصورة بارزة. واليوم، وبفضل أحداث تلك السنة، يوجد في فاطمة بناء ضخم طويل ذو نهاية مستديرة مع ساحة هائلة مكشوفة لتجمعات الحجاج. وهناك مخازن تحيط بها مضافات كما هي الحال في «لورد» ولكن يظل المظهر السائد قاسياً.

وشأن «لورد» فإن المعلومة الأولى هي قصة الظهورات. ولا حاجة هنا إلى بيان مفصل لها. فالحكم في مثل هذه الأمور يجب أن يكون شخصياً إلى حد ما. على أن الكثيرين الذين درسوها يعتقدون أنه بينما تتمتع قصة «لورد» بسيماء الصدق، ولو أنه الصدق في الأوهام، فإن قصة «فاطمة» قصة مُريبة.

كانت الرائية الرئيسية، «لوسيا دوس سانتوس» Lucia dos Santos فتاة في العاشرة. وشاركها تجاربَها ابنا عمها، فرنسيسكو وجاسنتا مشاركة جزئية. وفي الثالث عشر من أيار ١٩١٧، كان الثلاثة يرعون الغنم في «كوفا دا إيريا» Cova da Iria، وهو واد أو بالأحرى وَهدة تبعد قليلاً عن القرية. شاهدوا ومضة نور تتبعها ومضة أخرى، ثم إن لوسيا وجاسنتا شاهدتا وقوف «سيدة ظريفة صغيرة» في الهواء فوق شجرة صغيرة، ولكن الغلام لم يشاهد ذلك. قالت السيدة إنها جاءت من السماء، وطلبت إلى الأطفال أن يزوروا المكان ذاته في الثالث عشر من كل شهر. وستخبرهم في المرة السادسة من هي.

وكما كان الأمر في «لورد» ذاعت القصة، وعندما واظب الأطفال على مواعيد اللقاء، جرّوا وراءهم حشداً متزايداً من المشاهدين. وطلبت السيدة طلبات متنوعة والطلب الوحيد الذي لم يكن رَوسما من رواسم التقوى هو أن يسبّحوا تسبيحة السلام. كانت الحرب العالمية الأولى جارية بعدُ ولا نهاية لها في الأفق، وقد دخلها البرتغال مؤخراً. ووصفتها لوسيا بأنها ترتدي ثوباً أبيض ذا حواف ذهبية، وحول عنقها حبل من ذهب. يغطي رأسها حجاب أبيض ولكن وجهها سافر تماماً. وفي أيلول وعدت بمعجزة في الثالث عشر من تشرين الأول. إنها هذه المعجزة – وقد حدثت بالتأكيد بمعنى من المعاني، وضمنت لفاطمة أن تصير مكاناً للحج والعبادة – وهي التي تستدعي التمحيص هنا. ويمكن وضع معظم الظروف جانباً. ومن الناحية التاريخية، ليس القيام بغير ذلك ذا جدوى كبيرة، لأن القصة قد غشيتها أفكار معدّلة و«تأويلات» طمست الوقائع التي هي خلف الشفاء الذي يمثل الحقيقة.

وتبدو رؤى لوسيا – بمقدار ما يمكن إثبات طبيعتها – شبيهة بمحاكاة لرؤى برناديت. وحضور الطفلين الآخرين [ الطفلة والطفل ] يعقد الأمور أكثر. وجاسنتا وفرنسيسكو كلاهما رأى شيئاً ما، ولو أنه ليس واضحاً ما هو ومتى؛ ويبدو أن لوسيا قد قامت بالحديث كله. مهما تكن الحقيقة، فقد كدست المصاحَبات والعواقب تشويشاً على تشويش. وكان البرتغال يجتاز في سنة

١٩١٧ مرحلة معاداة عنيفة للكهنوت في المواقع والدوائر ذات الأهمية والنفوذ، وانشبكت أحداث «فاطمة» في السياسة منذ البداية. وقام مدير محلي بمعاملة الطفلين بقسوة خالية من الإحساس وجعل منهما شهيدين. ثم في إبان الرجعة الكهنوتية، أصبحت «فاطمة» ذخراً ثميناً لدكتاتورية سالازار(١). وفي الأعوام ١٩٣٦-٧ و١٩٤١-٢، باحت لوسيا، التي صارت راهبة كرملية(٢)، بتفصيلات إضافية لم تذكرها من قبل. لقد نُسب إلى **السيدة** حديث تحذّر فيه من الشيوعية. «إن روسيا تنشر أغلاطها في العالم». لو ورد هذا في الرؤى، عندما كانت ثورة لينين كامنة في المستقبل، لكانت نبوءة تستوقف الانتباه. ولم تكن كذلك. ولكن لم يُنشر التحذير المزعوم المعادي للشيوعية إلا عندما صار التهديد الأحمر الشاغل الكاثوليكي الأول.

كذلك نسخت لوسيا إلهاماً ظل سرياً حتى العام ١٩٦٠. وحين دنا العام الحاسم هُمس أن الورقة المختومة قد تنبأت بحرب عالمية ثالثة. ويقال إن الأثرياء من الأمريكيين الكاثوليك قد حولوا أموالهم إلى البرتغال، اعتقاداً منهم أنه البلد الذي لديه ضمانة سماوية ضد الانتصار الشيوعي. على أن العام ١٩٦٠ قد جاء وراح وبقي مغلف لوسيا سرياً كما كان من قبل.

---

(١) هو «أنطونيو دي أوليفيرا سالازار» Antonio de Oliviera Salazar (١٨٨٩-١٩٧٠) دكتاتور برتغالي (١٩٣٢-١٩٦٨)، ولد قرب كويمبرا Coimbra في البرتغال، حيث درس القانون، وتعلم الاقتصاد. وفي ١٩٢٨ أصبح وزيراً للمالية، مع سلطات واسعة. وعندما صار رئيساً للوزراء أدخل نظاما تسلطياً جديداً هو «الدولة الجديدة» Estado Novo. وبالإضافة إلى رئاسته للوزراء كان وزيراً للحربية (١٩٣٦-١٩٤٤)، ووزيراً للخارجية (١٩٣٦-١٩٤٧) في خلال الفترة الدقيقة للحرب الأهلية الإسبانية. وتنحى عن السلطة في أعقاب ضربة سنة ١٩٦٨.

(٢) الكرملية Carmelite: راهبة في دير للراهبات الكرمليات يتسم بشظف العيش تأسس سنة ١٤٥٢ وذلك احتذاء بمنظمة رهبانية كرملية للرهبان الذين يعيشون على التسول والصدقة تأسست في الكرمل سنة ١١٥٤. والكرملية هي النسبة إلى جبل الكرمل.

بُعيد ذلك بدأ التخمين. ووفقاً للشائعة فُتح المغلف، وعلى الأرجح في الفاتيكان، ولكن الكلمات المكتوبة على الورقة في داخله لم تُعلن لأنها تتناقض مع موقف الكنيسة الحالي، بل مؤذية له بالمعنى الأشد عمقاً. وحبذ بعض الصحافيين نظرية تقول إن الكلمات قد تنبأت بعودة المسيحيين إلى حظيرة روما، وهي فكرة تخالف المسكونية[1] الجديدة وجهود روما الهادفة إلى التفاهم مع البروتستانت. بعد ذلك زعم صحافي آخر أنها تنبأت بارتداد كبير في قلب الكنيسة الكاثوليكية: وسيغدو عدو المسيح هو البابا بذاته. وبعد عقود من الإلحاح الكاثوليكي على أن إلهامات «فاطمة» صحيحة، لم تستطع روما أن تنشر ذلك إلا بصعوبة. ولكن على الرغم من كل القصص، ظل السر سرّاً. ولكن مع الخيبة في ذلك وفي التنبؤات الخصوصية الأخرى، جرى اختزال رسالة «فاطمة» إلى دعوة غامضة إلى «الكفارة، والصلاة، والأمل».

وليس الشاهد في إبقاء هذه الوقائع في الذهن، عند تفحص المعجزة التي وعدت بها **السيدة** وأدتها، هو إعطاؤها ظرفاً ومعنى بل أنهم أخفقوا تماماً في القيام بذلك. إنها تقف في خرق تام للعادة، ولا شيء وثيق الصلة بها أو يقنع، من قبل أو من بعد، بأن لها معنى يُفهم.

ومع أن الجو كان ماطراً في الثالث عشر من تشرين الأول، فإن الإنباء الذي قدمته لوسيا قد أحضر إلى المنطقة سبعين ألفاً من الأشخاص. وجاء عدد من الكهنة، مدركين أن الخيبة المخزية ستزيد موقفهم ضعفاً على ضعف، وخائفين من معرفة الأسوأ دفعة واحدة. وجاء الملحدون آملين في المصيبة التي خشيها الكهنة. ووصل كذلك أساتذة جامعيون ريبيون، وعدة أطباء، ومختص بطب العيون، بالإضافة إلى رهط من الصحافيين. ومن الأخيرين كان أفلينو دي ألميديا Avelino de Almedia رئيس تحرير صحيفة O Seculo، وهي أهم

---

(١) المسكونية ecumenism: هي الهدف الرامي إلى الوحدة بين كل الكنائس في كل أنحاء العالم المسكون أي المعمورة. والكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية oikos ومعناها البيت أو المسكن.

الصحف المعادية للكهنوت. وحمل عدد الصباح مقالة كتبها لجذب الانتباه إلى «فاطمة»، لكي يعطي الخيبة المتوقعة أقصى ما يمكن من الصدمة.

وانتظرت لوسيا. وظهرت صديقتها السماوية، وقالت إنها «**سيدة التسبيح**» (وهي عبارة أخرى مثل **الحبل بلا دنس**»، تشير إلى مريم وحدها)، ووفقاً للطفلة قالت إن الحرب ستنتهي في ذلك اليوم – وهو خطأ، إذا لم يكن مجرد خطأ من لوسيا، يضع استفهاماً إضافياً على أي شيء ما عداه. وفي أثناء ذلك ازداد الحشد اضطراباً. وانتشر الخبر بأن المعجزة ستحدث عند الظهر، وقد فات الظهر. أما لوسيا فقد صاحت فجأة «انظروا إلى الشمس!» وصار هذا ممكناً لأن المطر قد توقف وانساقت الغيوم جانباً. وكانت على ما يظهر ترى رؤى في السماء، ولكن الحشد رأى شيئاً مختلفاً تماماً.

وكان نزولها سريعاً ولو لم يتم في لحظة. ونظر هؤلاء المشاهدون وهم ضمن مدى السمع إلى الشمس كما ينبغي. ولذا سرعان ما ابتعد كثيرون غيرهم. ولو أنه ربما لم يتمكن كل الأشخاص السبعين ألفاً من فهم أن المقصود أن يفعلوا ذلك. ولم يكن يوجد بين الذين نظروا، وظلوا ينظرون، إجماع تام. ولكن مما لا ريب فيه أنهم رأوا شيئاً، ولا يمكن للإيحاء الذاتي أن يفسره، لأنه لم يُلمِح أحد إلى أن المعجزة ستكون شمسية، وعندما بدأت لم يسمع في تلك اللحظة إلا عدد ضئيل من الحشد ما قالته لوسيا.

كانت الشمس مرئية من جميع الناس، ولكنها مصفرّة بصورة تدعو إلى الاستغراب، ولذا يمكن أن تشاهَد من دون إجهاد – وكانت تتحرك على نحو شاذ. وتقتفي أثر دائرة في السماء، وأخرى، وأخرى، وبدا أنها تهبط بحركة لولبية وتقترب من الأرض. ودام المشهد قرابة ثماني دقائق. وفي النهاية عادت إلى مكانها وسطوعها العادي.

تلكم هي الواقعة الأساسية، وكيفما أُوّلت، فهي واقعة. وقد سمعتُ شاهداً عيانياً يصفها. وفي غياب فيلم لم نعد نستطيع أن نقول ماذا كان «هناك» موضوعياً. والصور التي التُقطت قبل ذلك بمدة قصيرة هي على الأكثر تُظهر

المظلات. والصور التي التُقطت عند حدوث الحادث تُظهر الناس يحدقون إلى السماء. وقد جرت مقابلة بعض الشهود بعدئذ وأضافوا تفصيلات أكثر. لقد دارت الشمس بصورة ملحوظة، وتبدل لونها، وأطلقت رايات نارية. لعلها كانت خدعاً بصرية أو تخيلية. ولم تكن كذلك الحركة الرهيبة نحو الأسفل. فقد سببت ذعراً. وبعد أن انقضى الأمر كتب أفلينو دي ألميديا، الذي جاء ليفضح خدعة كهنوتية، وصفاً واضحاً لصحيفته. وسمّى مسلك الشمس «رقصة مروّعة»، ولم تكن لديه فكرة بمَ يفسرها، ولكنه رآها، وعلى الرغم من الضربة الشديدة للحزب الذي يؤيده، كان صحافياً أصدق من أن يزعم خلاف ذلك.

و«ألميديا» هو أهم الشهود في المنطقة. وهناك شاهدة أخرى تحمل شهادتها وزناً لما تتصف به من شذوذ ومواربة وهي خادمة تصحبها أسرة إنجليزية مسافرة، وقد وصفت الظاهرة في رسالة، مع أنها لم تكن متأثرة أبداً: زعمت أنها، كانت شيئاً حدث في البرتغال، ولكنها كانت خيبة أمل كبيرة ! وكانت معظم الشهادات الأخرى أشد تصديقاً واهتياجاً. وبعض الشهود لم يكونوا في «فاطمة» فعلياً. فهذا ألفونسو فييرا Alfonso Viera وهو كاتب، اهتم بالأمر قليلاً ولم يكن يترصد معجزة، رأى الحركة الشمسية من مكان يبعد عشرين ميلاً بالتمام. وهناك مدرسة كانت على وشك الإغلاق، ولكنها غير مهتمة على السواء، وسببت حركة الشمس اللولبية فيها فزعَ «نهاية العالم» من دون أن يفكر أحد في «فاطمة». [ أي ذكّرتها حركة الشمس بيوم القيامة ].

ويبدو أن فييرا كان عند مدى الرؤية. وجرت مقابلة مع مدير «مرصد لشبونة» فأعلن أن موظفيه لم يسجلوا شيئاً غير عادي، ولا يمكن له أن يعتقد أن من شأن أية ظاهرة طبيعية أن تغطي الحقائق. ومادام النظام الشمسي لم يختل، فقد أشار إلى مسألة الهلوسة الجماعية. وكانت الصعوبة – ولا تزال – هي إظهار كيف يمكن إحداث هذه الهلوسة من دون إعداد، وأن تنتشر عبر حشد هائل بهذه السرعة، وأن تبعد قدرات غير المؤمنين ممن لديهم دافع قوي

إلى المقاومة. وحاول بعض المعادين للكهنوت الذين لم يكونوا حاضرين أن يصروا على أنه لم يحدث شيء، ولكنهم أخفقوا في جمع الكثير من التأييد من الذين كانوا في الموضع. وكان الخوف الذي حثّ مقاومتهم مسوّغاً. ومنذ العام ١٩١٧ فما بعد أخذ النظام المعادي للكهنوت ينحدر.

هكذا كانت معجزة «فاطمة». ولا يوجد تفسير جيد لها كأي شيء آخر. والبلية أنه لا يوجد تفسير جيد لها بوصفها معجزة كذلك.

من الواضح أنه لم تكن هناك طبيعة فيزيائية ذات وزن كبير. والشمس لم تدر لولبياً، ولم تتمايل الأرض لتجعلها تبدو في حركة لولبية. وقد لوحظت أمثال هذه الانحرافات العقلية على نطاق واسع. ويمكن لحركة شاردة في الغيوم أن تسبب وهماً بصرياً. والمسلك الشمسي الظاهر من النوع ذاته قد تم إيراده عَرَضاً منذ ذلك الحين، ولو لم يورده عدد كبير من الملاحظين معاً. غير أنه ينبغي لأية نظرية أن تحسب حساباً لمسألة أن الحادثة حدثت في اليوم الذي تم التنبؤ بها، وتقريباً في الزمن المتنبَّأ به. ههنا تنهار التفسيرات الفيزيائية، وتغدو غير محتملة بحيث لا تكاد تستحق البحث.

ولكن هَبِ استثناءً قد اعترض نظام الطبيعة، عبر قدرة **العذراء المباركة** أو نفوذها. فيظل السؤال، أي استثناء؟ ماذا حدث؟ لا يمكن أن يكون ذلك إلا وهماً جماعياً، سواء أسببته حركات الغيوم الشاردة أم التدخل في آلاف العقول في وقت واحد. وكلا الأمرين لا يبدو لائقاً. بل يبدو حيلة شعوذية فظيعة، منطلية على جمهور غرير يفهم ما يراه حسب القيمة الظاهرة.

وإذا سلمنا بأن كائناً أعلى يمكن أن يفعل مثل هذا الأمر - فيظل السؤال، من أجل ماذا ولماذا هكذا؟ وعلام تبرهن هذه الأمارة العجيبة؟ أعلى صدق الظهورات؟ لا يمكن أن يكون هناك معنى ما لم تحمل الظهورات رسالة، أو تنبئ بأمر يجب اتباعه، كما جرى في «لورد». وفي تشرين الأول ١٩١٧ لم تبلّغ لوسيا رسالة، بل مجرد تحريضات وتحذيرات عامة كتلك التي كان بالإمكان سماعها من أي منبر وعظ. لم يوجد شيء خاص لتأكيد

المعجزة. ولم تكن النبوءة حول روسيا منكشفة (إذا كانت كلمة «منكشفة» هي الكلمة المناسبة) إلا بعد سنوات كثيرة، عندما صار الخطر الآتي من الشيوعية رَوْسماً كهنوتياً، ولم تكن ثمت حاجة إلى موافقة مريم المتأخرة. وقد ذكرت لوسيا فصول الصلاة والتكريس التي كان يُفترض أن تدرأ الخطر الكبير، ولكنها من دون جدوى. أما التنبؤ بأية عاقبة في «فاطمة» ذاتها، فإن المعجزة الشمسية لا تتنبأ بشيء. ومن الطبيعي أن «فاطمة» قد أصبحت مَحَجّاً، ولكنها لم تنل أكثر من ذلك. فلم تكتسب أية شهرة خاصة في الشفاء. وكان تضاؤل الحزب البرتغالي المعادي للكهنوت مجرد نتاج ثانوي؛ فلم تكن للحادثة ذاتها صلة مفهومة بالسياسة.

وعلى البحث أن يتشكك في الملاحظة التي تكون غير مُرْضية. وأعترف بانطباع مفاده أن شيئاً ما قد حدث ففجر حدود التجربة الطبيعية، وفجرها على نحو أتم وأدعى إلى الحيرة مما كان أي شخص مستعداً للاعتراف به. والنذير الشمسي لا يعمل حتى **بوصفه** معجزة، بالمعنى المألوف في الكنيسة. وحاول الكاثوليكيون أن يفسروه على طريقتهم، وأخفقوا، مخلفين وراءهم قافلة من الألغاز. ومن المؤكد أن قبول أنه من فعل مريم هو الإقرار بأن لها جانباً مفزعاً ولا يُدْرَك كنهه لا يستقيم مع الأفكار المسيحية الأخرى عنها. وقد يأتي الجواب بعدئذ. وفي هذه الأثناء، ما من غرض مفيد يخدمه الغلو في تصغير الوقائع أو محاولة انتحال المعاذير لها.

إن معجزات **سيدتنا** – القروسطية والحديثة، والوهمية و(ربما) الحقيقية – تفضي بنا إلى حضور شيء متميز بعمق. وهي لم تأت من يهوه الذي لا يُدْرَك كنهه، أو من ذات إلهية فيما دعاه وليم بليك «صحراء المجرد». فلعبادة مريم وجه بشري، هو في أحسن أحواله زَوّار وجميل، حتى عندما تتمسك بسر لحين الحاجة، كما هي الحال في «فاطمة». ولا يوجد كلام حول ما رأته برناديت في «لورد»، أو هل رأت شيئاً مادياً. ويزعم علماء النفس أن الأطفال كثيراً ما يمكن لهم أن يروا ما هو غير موجود (والعبارة هي «التصور الدقيق

للأشياء المتخيلة»[1]. ولبعض الظهورات جو الإيحاء أو المحاكاة، جزئياً على الأقل. ولكن من الصعب تخطئة برناديت، حتى زولا لم يستطع ذلك. لقد رأت. وكما قالت لمن سألها عن مريم بعدئذ، «لو رأيتَها، لما كان لديك فكر أو مأرب ليس منها».

يضاف إلى ذلك أن النتيجة هي في الحفظ والصون. الخرافة، والاستغلال التجاري، والإساءة الكهنوتية من نوع أو آخر – كانت «لورد» تبدو كل ذلك؛ ويمكن أن تُنتحَل الأعذار لكل معجزة من معجزاتها. على أن الشفاء حقيقي، شفاء الجسد والروح. وتوجد أوقات يكون الصمت فيها خيراً من النقاش، وأصدق من أي شيء يمكن أن يصل إليه النقاش، سواء أكان إثباتاً أم دحضاً.

وفي «لورد» وفي غيرها من الأماكن كانت مريم فيما مضى من القرن ونصف القرن – ولنلاحظ هذا الأمر من جديد – تظهر وحدها، وإلى حد كبير بوصفها شخصاً بحكم حقه الأصلي. والتفكير المسكوني في كنيسة طامحة أن تكون محدَّثة معادٍ لهذه الرؤية لمريم. ويستنكر اللاهوتيون الشخصية العاطفية والقريبة من المستقلة التي رأيناها تكتسبها في الموروث الكاثوليكي السالف. وإذا كان لا بد لهم من ذلك، فإنهم يجعلونها بالضبط جزءاً من مخطط العقيدة، ورمزاً بدلاً من أن تكون شخصاً. وسواء أكان هذا هو السبيل الذي ينبغي أن تسلكه المسيحية أم لا، فمن المؤكد أنه سبيل جديد، يستخف بما كانت تعنيه **سيدتنا** لأجيال كثيرة من المسيحيين.

وتوجد تيارات فكرية خارج المسيحية تلوّح بأن ذلك لن ينجح، لأن مريم كيفما فسرتها **فهي** أكثر من رمز. وهي تمارس الفتنة اليوم في سياقات جديدة، وبعضها سياقات غريبة جداً، لا بوصفها مجرد شكل شعري بل بوصفها كائناً بشرياً يحلّق فوق عموم الجنس البشري. وتتفاوت الطريقة التي

---

(١) التصور الدقيق للأشياء المتخيلة eidetic imagery: تصور استثنائي الحيوية يرتبط بمعالم واضحة وتفصيلات دقيقة توهم بأنها حقيقية.

يُتَخيّل بها أنها تقوم بذلك تفاوتاً واسعاً. وفي كل حالة حاولت نظرية أو مدرسة فكرية أن تدعي أن مريم لها وأن تسلكها في نموذجها.

وعلى سبيل المثال، فإن «الثيوصوفيا»[١] قد ربطتها بعضويتها في جمعية «خبراء الحكمة أو معلميها»، الذين يعيشون على الأرض سراً لتنوير الشعوب وهدايتهم إلى مصائرهم. وزعم الزعماء الأوائل للحركة «مدام بلافاتسكي»[٢]، و«آني بيزنت» Annie Beasant، و«سي.و.ليدبيتر» C.W.Leadbeater – أنهم كانوا يتلقون رسائل من **المعلمين**، بالتخاطر أو بوسيلة غريبة أخرى. وكان من الإلهامات التي أتت إلى ليدبيتر خبر مفاده أن مريم قد دخلت في الجمعية وانتسبت إلى عضويتها. وهي الآن تحيا حياة أبدية طيبة غير مرئية، ويتمتع زملاؤها

---

(١) الثيوصوفيا theosophy: كلمة مركبة من «ثيو» theo ومعناها «الله»، و«صوفيا» sophy ومعناها «معرفة» ومأخوذة من الكلمة اليونانية sophia التي تعني «حكمة». فالمعنى اللفظي للمصطلح هو «معرفة الله»؛ والثيوصوفيا اصطلاحاً هي أي نظام فلسفي أو ديني يزعم أنه قائم على الاستبصار الحدسي لطبيعة الله. وهو هنا يشير إلى نظام معتقدات «الجمعية الثيوصوفية» التي تأسست في الولايات المتحدة سنة ١٨٧٥. وتقوم معتقداتها على مفهوم وحدة الوجود، وتزعم أنها مستمدة من الكتابات البرهمانية والبوذية المقدسة، وتشتمل على تناسخ الأرواح، والأخوة البشرية، وإنكار الإله الشخصي والخلود الشخصي، والاعتقاد بالبعد الرابع للمكان كما جاء في فيزياء «ريمان» Riemann.

(٢) هي «هيلينا بتروفنا بلافاتسكي» Helena Petrovna Blavatsky ، وتعرف بـــ «مدام بلافاتسكي» Blavatsky (1831 -1891) ثيوصوفية، ولدت في «إكاترينوسلاف» في أوكرانيا. تزوّجت في يفاعتها جنرالاً روسياً ولكنها انفصلت عنه بعد مدة وجيزة وسافرت إلى الشرق. ثم ذهبت إلى الولايات المتحدة سنة (١٨٧٣)، وأسّست مع هنري ستيل أولكوت Henry Steel Olcot «الجمعية الثيوصوفية» في مدينة نيويورك. ثم واصلت عملها في الهند. وقيد شِيدَ بقدرا تها النفسية على نطاق واسع، ولكنها لم تنجُ من البحث الذي قامت به «جمعية البحث النفسي»، إلا أن ذلك لم يُثن أتباعها الكثيرين عن اتّباعها.

الأجلاء بقدرات على اجتراح العجائب. ولم يحتفِ الثيوصوفيون وأنصاف أتباعهم كثيراً بهذه الفكرة، ولكن من المثير للاهتمام أن تظهر بأية حال.

وفي أحدث عنفوان لـ «**الأشياء الطائرة غير المحدَّدة**»، كانت كائنات مثل **المعلمين** تعاود الظهور في هيئة جديدة. وكانت تتمثل برُوّاد جدد للأرض، يفوقوننا كثيراً، وقد خلقوا الجنس البشري أو على الأقل وضعوه على طريق الحضارة، وهم الآن يحومون في صحون طائرة وعيونهم عليه. وأنجب عصر «الأشياء الطائرة غير المحدَّدة» UFO مشتغلاً واحداً على الأقل في المريميات[١]، هو الفنان الفرنسي بول مسراكي Paul Misraki. ووفقاً له، فقد انقذف الجنس البشري في تجربة «تراتب فضائي». وحوالى بدء العصر المسيحي، يئست المراتب العليا من صلاحنا وقررت محقنا، كلنا باستثناء قلة مصطفاة. وجاء يسوع، الذي كان أحد أشخاص الفضاء، ليحذرنا من الهلاك حتى تتمكن القلة التي تستحق النجاة من أن تتهيأ لها، وهذا يفسر الفِقَر المحيرة في الأناجيل فيما يتصل بالنهاية الوشيكة للعالم. ثم جاء تأجيل، لا بفضل يسوع بل مريم. وكانت كذلك من أشخاص الفضاء، وفي حوالى العام ٥٠ للميلاد عادت إليهم (والحادثة يصفها الكاثوليك بصعود مريم العذراء) وأقنعتهم بتعليق الحكم. وكانت منذ ذلك الحين تعمل مستشارة الدفاع عن البشر، تتشفع في المكان الذي تنادي فيه الكنيسة السماء، وتظهر في «لورد» وغيرها من الأماكن لتقديم تحذيرات جديدة ليست مفهومة تماماً. وقام عدة مؤلفين متقاربي المشارب – وفي جملتهم فون دينيكن von Däniken، مفسر مراكب الآلهة – بتفسير النذير الشمسي في «فاطمة» على أساس «الأشياء الطائرة غير المحدَّدة».

وفي أثناء ذلك قالت المدرسة «الأنوثية الجذرية» قولتها. وتزعم إليزابيث غولد ديفس Elizabeth Gould Davis مؤلفة كتاب «**الجنس الأول**» أن الظهورات المريمية ربما كانت حقيقية. وتعطيها تفسيرها، الذي يُحيي (شأن الأوجه الأخرى للعبادة المريمية) عصر عبادة الربة:

---

(١) «المريميّات» Mariology: دراسة المأثورات والمعتقدات المتعلقة بمريم العذراء.

**إنها لحقيقة مثيرة للاهتمام... أن مريم العذراء هي التي تظهر في الرؤى دائماً – وليس الله، وليس الروح القدس، ونادراً جداً ما يظهر يسوع. ويزعم المتصوفون المسيحيون الكبار المتصلون برجل أو امرأة أنهم قد رأوا مريم جسداً بين حين وآخر... وقد يتساءل المهتمون بالبحث النفسي هل رأى هؤلاء الناس شيئاً ما بالفعل – جسداً هيولياً أو سماوياً لامرأة حقيقية. ولكن أية امرأة؟... لقد رأتها برناديت في المغارة في «لورد» ودعتها مريم. من يستطيع أن يقول إنها ليست تجسيداً مادياً لـــ «سيدة مباركة» حقيقية، هي «الإلهة العظيمة» ذاتها، «التي تسمى عند جماهير الناس «الإلهة البيضاء»»، وهي من بقايا الحضارة الأمومية، أو ما أدراك أنه بشير عودتها.**

ويبدو أن العامل الذي تم إدراكه مجدداً هو تحول الاتجاه الفكري في استجابة الغرباء للمسيحية. ولنستشهد بشخص آخر غير مسيحي، هو جيليان تندل Gillian Tindall:

**يبدو أن مريم لم تمت... لقد اختفت (كما تختفي من الكتب المقدسة بعد موت ابنها) ولكنها بعدئذ تظل تعاود الظهور. نزلت على العصور وظهرت للناس – في قرية «وُلسنغم»، وفي «إيلزفورد»... وفي «لورد». ويغلب علينا أن نعتقد أن يسوع قد مات. ومهما يمكن أن تقول الكراريس الإنجيلية، فإن صورة الصلب فادحة جداً. ولكن يبدو أن مريم تحيا لكثير من الناس. مفارقة غريبة.**

(**New Stateman**, May 21 st 1967)

قد يكون ذلك كثير الشذوذ، وعندئذ، علينا أن نتذكر العذراء، وأن نكون مستعدين للعودة إليها. وقد لا يكون سحرها مضلِّلاً. وربما كانت الأفكار التي تجمّعت حولها بصائر صادقة، مهما عُبّر عنها بطريقة غريبة وخرافية، ويمكن أن تفتح خطاً جديداً لمقاربة مشكلة الإعجازي. ولكن قبل أن نتابع تلك الفكرة علينا أن نوسع المدى، ونمتد إلى خارج اليهودية والمسيحية. فماذا بشأن المعجزات في الأديان الكبيرة الأخرى؟.

# الفصل السادس

## غوامض في آسيا

إن الإسلام فرع آخر من الشجرة الإبراهيمية، وأتباع محمد هم «أهل الكتاب»، شأنهم شأن أتباع موسى وعيسى[١]. وقد ولد النبي سنة ٥٧٠ م، وأضاف الكثير من تراث الكتاب المقدس، ووحيُه «القرآن» أشبه بإضافة هائلة إلى كتب الأنبياء من بني إسرائيل – أَشَعْيا وإِرْميا وسواهما – من أن يكون كتاباً مقدساً جديداً في ذاته كلياً ومنقطعاً عنها. وإلهه، الله، هو إله «العهد القديم» منظوراً إليه بعيون عربية[٢]. ووفقاً لمحمد، فقد تكلم الله فعلاً مع إبراهيم كما يقول الكتاب المقدس، إلا أن اليهود قد زيّفوا القصة بعدئذ. وكان أنبياء بني إسرائيل أنبياء حقيقيين، وكذلك كان عيسى. مهما يكن، فقد تواصل التزييف

---

(١) ما دام الحديث الآن عن الموروث الإسلامي، فإنني أستخدم في الترجمة الاسم «عيسى» كما ترد التسمية في السياق الإسلامي، بدلاً من الاسم «يسوع» المنتزع من السياق المسيحي، كما أورده المؤلف، لاختلاف الدلالة إلى هذا الحد أو ذلك بين التسميتين.

(٢) هكذا يبدو للمؤلف، غير أن النظرة الإسلامية هي أن العروبة هي عروبة اللغة لا الرؤية. وقد جاء في «القرآن الكريم»: «إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» (سورة الزخرف – الآية ٢). ومن الواضح تماماً لكا دارس للأديان وجود اختلاف كبير بين المفهوم الضيّق للإله «يهوه»، إله إسرائيل، إله الجنود، في «العهد القديم»، والمفهوم الكوني لله، ربِّ العالمين، في «القرآن الكريم». وقول المؤلف إن القرآن الكريم إضافة هائلة إلى الكتاب المقدس يتضمن أنه يتّفق تماماً مع كل ما جاء فيه ويتمّمه؛ وهذا لا يستقيم مع واقع الحال. فعلى الرغم من أن القرآن الكريم يتشابه كثيراً في بعض الجزئيات مع الكتاب المقدس، فهو يختلف عنه في جزئيات أخرى اختلافاً شديداً سواء في العقيدة والعبادات أو في المبادئ وسرد الأحداث؛ وهو في كلّيته جديد ومستقل.

وتمازج. واصطفى الله محمداً، «النبيَّ» بامتياز، ليقضي على التحريفات ويعيد دين إبراهيم الحنيف، مع توسيعات تلبي حاجات عالم أكبر.

يترتب على ذلك، نظرياً، أن الإسلام يتبنّى رؤية الكتاب المقدس للمعجزات. فالله يصنعها. ومهما يكن، فإن الإسلام لا يوليها كبير أهمية، وليست لها مكانة بالمقارنة مع مكانتها في الأناجيل. والمعجزات المعروفة عن محمد قليلة. وتعتمد كلياً على «الحديث»، المدوّن بعد مدة طويلة من وفاته سنة ٦٣٢م والمسلمون ليسوا ملزمين بتصديقها[١]. وفي بعض الأحيان نرتاب بوجود محاكاة ساخرة لمزاعم مسيحية تتعلق ببراهين إعجازية على قدرة المسيح.

والدليل الأثير المنسوب إلى محمد عجيب غريب، وهو شقّ القمر. وقد جاء في صحيح مسلم «عن عبد الله بن مسعود قال: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم بمنى إذا انفلق القمر فلقتين فكانت فلقة وراء الجبل وفلقة دونه. فقال لنا رسول الله: اشهدوا !»[٢] وأشهر معجزة لمحمد هي بالفعل ليست بمعجزة. فذات مرة حين طولب بالبراهين، التفت نحو جبل الصفا وأمره أن يأتي إليه. وظلّ الجبل في مكانه. وعندما التفت إلى جمهوره، قال: «إن الله رحيم. فلو جاء الجبل لسحقنا. ولذا سوف أصعد إليه بنفسي وأحمد الله، لأنه كان رحيماً بجيل عنيد[٣].» إذا لم يأت الجبل، فمن الواضح أن على محمد أن يذهب إلى الجبل.

---

(١) في حديث شخصي مع سماحة الشيخ الدكتور محمود عكام، مفتي حلب، أكّد أن المسلم غير ملزَم فعلاً بتصديق المعجزات، وأثنى على فكرة المؤلف أن دورها في الإسلام ثانوي بالنظر إلى دورها الأساسي في المسيحية، وأنه لا يوجد عند المسلمين أرق بشأن البرهان على صدق المعجزات، وذكر لي أمثلة مختلفة من الواقع المعاصر حول إباحة إنكارها أو الإيمان بها، وقال إن المعجزة الوحيدة في الإسلام هي القرآن الكريم.

(٢) إن المؤلف قد أورد فحوى الحديث خالياً من الإسناد. وقد وردت روايات أخرى للحديث في صحيح البخاري بصياغات مختلفة. كما أنه ورد موشّى بتفصيلات عن الذين حضروا وماذا قالوا، والراوية هو ابن عباس ذاته وذلك في «دلائل النبوة»، وعلى نحو أقل تفصيلاً في «الاعتقاد» للبيهقي وفي «نظم المتناثر».

(٣) لم أعثر على النص الأصلي لهذا الحديث، ولذا ترجمت ما أورده المؤلف من دون أن أستطيع إسناده أو التيقّن من صحته.

والحكاية الشعبية البطولية الإسلامية عموماً فياضة بالأعاجيب، ويمكن أن تعد بعض هذه الحكايات إعجازية بالمعنى الذي تعدّ به نظائرها المسيحية. وقصص الشفاء مشتركة إلى حد ما. ويقال إن الأجزاء الباقية من الأشخاص المقدسين ذات خواصّ تجترح العجائب، مثل الشفاء من العقم. مهما يكن، فإن جوّ هذه الحكايات ليس جدّياً كما هو عند المسيحيين. ويندر أن يوجد دليل معاصر عليها أو قد لا يوجد البتة، والأهم أن المسلمين لا يبالون بمسألة هل يوجد دليل أم لا، أو لا يظهرون اهتماماً شديداً بإثبات حقيقتها.

لعل السبب الرئيسي هو أن محمداً قد عاد إلى إله واحد أحد. وقد خلا الكون الإسلامي من التعقيدات والفروق المسيحية الدقيقة. والله جبّار وبعيد، ولم يصبح إنساناً. ولا يوجد فيه ثالوث ولا أم. وليس هناك قدّيسون يتشفّعون. ومن ثم لم يوجد إلا مجال صغير لتشكّل نظام جديد للإعجازي. وفي المجرى العام للمعتقَد الإسلامي فإن الله يمكن أن يفعل أي شيء، ولكن طرقه فوق طرقنا بمسافة شاسعة جداً، ومن الاعتباطية الشديدة أن تُفحص كما تُفحص الأشياء الأرضية. وسرد القصة يكون على قدر ما يستطيع البشر أن يغامروا به حقاً. وبينما أنشأت بعض المدارس الفكرية فقهاً إلهياً وعلماً للأساطير أشدّ تفصيلاً، فإن الروحية لم تتبدّل. ولنستشهد بفارق واضح واحد عن المسيحية هو أنه لدى الإسلام أولياؤه [ الذين يناظرون القدّيسين المسيحيين] ولكنه لم يكن لديه أبداً إجراء رِسامة لهم. لذا لم يكن أرَق نخل الشهادة على المعجزات جزءاً من ممارسته.

عندما ننتقل صوب الشرق إلى آسيا غير المرتبطة بالكتاب المقدس، نجد مواقف تختلف جذرياً. ولكل ديانة كبيرة حوادثها العجيبة، الموصوفة بطريقة حكائية شعبية أو غير ذلك. على أن سياق الأفكار غريب جداً عن التفكير القائم على الكتاب المقدس بحيث تصبح المشكلة هي أية حادثة من هذه الحوادث تصبح إعجازية، إذا أمكن أن تدعى أية حادثة منها كذلك. وبما أن الصين والهند والتيبت قد اجتازت في صيغها مرحلة ما قبل الإعجازي، فقد بلغت كلها قبل آلاف السنين مستويات عقلية يمكن فيها كما يظهر تصوُّر الاستثناءات المقدَّرة إلهياً. كان لديهم العلم، والفلسفات الكونية، والآلهة. إلا أن العلاقات مختلفة؛ ولا تزال كذلك. وإذا حدثت استثناءات فإن طبيعتها في الهندوسية أو

البوذية ليست طبيعتها في اليهودية أو المسيحية. ماذا يمكن أن تكون طبيعتها، وهل تُعد معجزات بأية حال، وهل يوجد أساس مشترك بين الأفكار الشرقية والغربية، هذه هي أسئلة تتطلب دراسة دقيقة قبل أية محاولة لتقديم الإجابة.

حيث توجد الآلهة يمكن، على ما يظهر، أن توجد المعجزات، كما قيل إنها وُجدت في اليونان الوثنية. والعلّة هي أنه لم يجرِ تصوّر الآلهة في آسيا بالطريقة ذاتها. كان «أبولو» و«ديونيسوس» و«أسكلبيوس» فاعلين أحراراً بدرجة تزيد أو تنقص وأرباباً حقيقيين. كانوا يتنقلون في الكون ذاته مثل الكائنات الفانية، ولكن لهم موضعاً إلهياً خاصاً فيه - هو جبل أولمبوس - بوصفه موطنهم، وكانوا أقوياء إلى حد كاف لخرق القوانين عندما يطوفون في الخارج. وكان الخيال اليوناني ما قبل الفلسفي غامضاً بشأن أي شيء وراءهم أو يتفوق عليهم. وفي عالم حوض البحر الأبيض المتوسّط، كان الآلهة قد حلّ محلّهم إله اليهود والمسيحيين الواحد، خالق الكون، الذي هو خارجه وفوقه كلياً. ووصلت العقول الآسيوية كذلك إلى مفهوم مبدأ واحد،وكائن عُلوي، وبمعنى من المعاني حتى إلى مفهوم الرب. ولكن هذا المبدأ مهما كان تعريفه، فإنه يعيد تقويم أصغر الأرباب بدلاً من أن يحلّ محلّهم. ولم يكن في ذاته متميّزاً بشدّة من الكون. إن الأديان الآسيوية لا تتوافر على «كائن أعلى» يخلق نظاماً من عدم ثم يتدخّل فيه ليُحدث الاستثناءات.

والبديل الصيني من الخلق، بما أنه أقل خفاء من بعض البدائل الأخرى، فقد يوضح عادة التفكير الآسيوية. إن كلا النمطين الصينيين التقليديين من التعاليم، الكونفوشيوسية والطاوية، يشتمل على شيء لا يوصف يدعى «الطاو» tao. وقد ترجمت هذه الكلمة بـ «الله»، ولكنها ترجمة مضلِّلة. إنها تعني نوعاً من الاتجاه إلى الداخل، إلى الطريقة التي تكون عليها الأشياء، والطريقة التي تحدث بها الأشياء. و«الطاو»، بعمله «في البدء» على خلية مادة في أول الزمان، سبّب انشطاراً جاء منه إلى الوجود كل تنوّع الطبيعة. وهذه الفكرة هي خلف الرسم البياني الرمزي لـ «اليين» Yin و«اليانغ» Yang، الذي هو أساس

كتاب «إي تشينغ» I Ching أو «كتاب التغيرات» المستخدم في التكهُّن. يبدأ تكوين الرسم البياني بدائرة تمثّل الكلّية، الجميعيّة، المطلق. و«الطاو» لا تمثّله الدائرة بالضبط وإنما يمثّله كمال الدائرة. ثم في الداخل مرسومٌ عبر المركز خطٌّ منحن يحدّد الفسحتين المتساويتين للظلمة والنور. والجزء المظلم سلبيّ وهو الـ «يين» Yin، «المبدأ الأنثوي، الرطب، البارد»، المرتبط بالأرض والظلام والوزن. والنور، أو «اليانغ» Yang إيجابي، وهو «المبدأ الذكري، الدافئ، الجاف»، المرتبط بالسماء واللمعان والضياء. ثم في داخل كل منهما دائرة صغيرة من لون الجزء الآخر – الظلمة في داخل النور، والنور في داخل الظلمة – تُظهر أن كلاً منهما يحتوي على بذور نقيضه، وأنه من ثم غير مستقر. فالتطور يمكن أن يذهب إلى أبعد من ذلك[١].

ويتابع الفكر الصيني التقليدي العملية على محاذاة المسار ذاته. ولكننا باستخدام الرسم البياني صورة للمسار، يمكن أن نقول إن كل الكائنات تنمو من الدائرة ومن تطور اليين واليانغ فيها. ونمط حياتها الصحيح هو «الطاو» الذي يكمن في أساس كل الكائنات، في أي جانب يمكن أن يطبقه عليها. وفي النظام الملحوظ للأشياء يمكن أن يدعى «الطاوُ» في بعض الأحيان «الطريقة». ومن الشكل الأساسي يشعشع الـ «إي تشينغ» ثمانية أشكال إضافية تمثّل أقسام الكون، وأربعة وستين فوقها. ويتناظر المخطّط مع نظرية في التطور تُنتج فيها الـ «يين» والـ «يانغ» خمسة عناصر (الماء والنار والخشب والمعدن والتراب) وتتحد هذه العناصر بطرق لا تُحصى لتشكل الكائنات الفردية.

عندما تبنّت الفلسفة الصينية الباكرة هذه الأفكار وتأمّلت الآلهة، لم تستطع أن تعاملهم بالأسلوب الساذج لليونان القديمة، على أنهم قوى تصنع العجائب

---

(١) يمكن الاطّلاع على الرسم البياني في بحث د.ت. سوزوكي «الخطوات الخمس» من كتاب «**بوذية الزن والتحليل النفسي**»، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، دار أزمنة للتوزيع والنشر، عمان ٢٠٠٦ ، ص٩١. وكذلك في «**كتاب التاو – تي – تشينغ**»، ترجمة وتقديم فراس السواح، منشورات علاء الدين، الطبعة الثانية، دمشق ٢٠٠٠، ص١٠.

وليس فوقها شيء محدد تستجيب له. بل كانوا جزءاً من النظام المتطوّر شأن كل الكائنات الأخرى. ونظرت الفلسفة إلى أبعد من ذلك، إلى «ذلك – الذي – كانوا جزءاً – منه»، وعندما وصلت إلى منتهى مداه اعترفت بأنه لا يوجد من يتعالى على كل شيء ويمكن أن يقتحم النظام ويعدّله. قد يوجد السحر، لأنه لم تكن كل قوانين النظام ظاهرة على السطح، وربما يمكن للإنسان الحكيم أن يتعلّم القوانين الأشدّ غموضاً ويحتال عليها لإحداث نتائج خاصة. ويمكن للآلهة أن يقوموا بمثل ذلك،على طريقتهم. ولكن لا توجد أصلاً حادثة استثنائية، تتملّص من النظام برمّته، ولا توجد ألوهة في الأعلى لتسبّب أمثال هذه الحوادث.

ويبدو أن كونفوشيوس، الذي عاش من ٥٥١ إلى ٤٧٩ق.م. كان مفكراً واقعياً. وكان مهتماً على الأغلب بالأخلاق الاجتماعية، ولم يؤسس هذه الأخلاق على قائمة من الوصايا الإلهية أو على أي مبدأ ميتافيزيقي أوحد. ونادراً ما ناقش حتى «الطاو» وراء الحدود الضيّقة. فغالباً ما كان «الطاو» يعني عنده «الطريقة» كما تنطبق على البشر. والفضيلة تعني العيش وفقاً لها. كان يروق له عصر ذهبي سادت فيه، كما اعتقد، حكومة حكيمة وسلوك عادل. و«الطاو» في نظر هذا الاعتقاد، كما برز في تعاليمه بالفعل، يكاد لا يعني أكثر من «طريقة الملوك السابقين»، التي يمكن أن يعيدها تجديد حكمتهم. وكان الدين جزءاً من هذه الحكمة، ولكن بمعنى غير صوفي. وقد يتماثل عند كونفوشيوس مع الطقس. وكان حكماء الزمن القديم، برأيه، «حكماء إلهيين»، غير أنهم استحقّوا هذه الصفة لأنهم كانوا يسيرون بمحاذاة الآلهة على مسارات مرسومة، لا لأنهم كانوا أكثر من بشر، أو يوحى إليهم إيحاءً غيبياً. ولم تكن هناك مسألة العصر الذهبي الذي يستعيده تدخّل إيحائي من الأعلى. كانت هذه الفكرة غريبة على كونفوشيوس. وقد يكون من المشكوك فيه أنه كان من شأنه أن يعتقد أن الإعجازي كلمة تحمل أي معنى على الإطلاق.

ويبدو أحد أقواله على الأقلّ مضاداً للفكرة الكلية عن الأمارات الإلهية والشذوذات المهمة. ففي مناسبة معيّنة أبلغ مجموعة صغيرة من تلامذته أنه

ذاهب ليظل ساكتاً. وسأله أحدهم، «إذا ظللت ساكتاً، فكيف يمكن أن نتعلّم أي شيء لنعلّمه للآخرين؟». فأجاب كونفوشيوس، «هل تتكلم السماء؟ إن الفصول تسير في سبيلها بالتتابع وتحدث الأشياء المختلفة. هل تتكلم السماء؟».

وفيما بعد بنت الكونفوشيوسية حول تعاليم المعلّم التوكيد المنحرف بعض الشيء بوصفه عبادة رسمية. وصارت الأخلاق أشدّ ارتباطاً بالآلهة. وأخذت عبادة الأسلاف والأبطال تفعل فعلها في المخطط الشامل كل شيء. وحوّلت الدولة الصينية مجمع الآلهة إلى بيروقراطية سماوية، موازية للإمبراطورية التي على الأرض. وعلاوةً،كانت البيروقراطية الأرضية أهمَّ البيروقراطيتين، ويفترض في الأخرى أن تخدمها. وكان للإمبراطور نظيره السماوي، الإمبراطور اليَشْبيّ[1]، الذي يترأس أقساماً سماوية متنوّعة. ومن خلال الإمبراطور اليشبي وقسم الخدمات العامة الذي لديه، كان الإمبراطور الحقيقي يزعم أنه قادر مع قسم الخدمات العامة الذي لديه على التأثير في الجو، وصرف الأوبئة، وهلمّ جرّا. وكانت أعداد لا تحصى من الأرباب الثانويين – وهم غالباً بشر من التاريخ أو الحكاية الشعبية البطولية جرى تأليههم – تعيَّن رعاةً للمدن، والحرف، والمهن، والمؤسسات، وأوجه الحياة. وكان للصينيين إله للمطبخ، وإله للصيّاغ، وإله لرجال الشرطة، وإله للّصوص. وكانت كل هذه الأرواح الحارسة تنقل الأخبار سنوياً إلى «الإمبراطور اليَشْبي». وكانت تعامَل في معابدها بكياسة، ولكن يُتوقَّع منها أن تؤدي أعمالها، وهي معرَّضة للعقوبة على التقصير. فعندما لا يهطل مطر حيث يكون مطلوباً، فإن روح المطر المحلّية يمكن أن تضرب ضرباً شديداً. وفي هذا الجو، يكون للألوهة معنى غير غربي. فهي ليست مجرد جزء من النظام وإنما هي جزء مساعد بدلاً من أن يكون حاكماً. وعلى الرغم من أن كل هذا كان ابتعاداً كبيراً عن كونفوشيوس الهادئ والعملي، ظلّت الفكرة الغربية عن الإعجازي مُستبعدة.

---

(١) الإمبراطور اليَشْبيّ: لقب إمبراطور السماء، واليَشْبي من اليَشْب وهو حجر كريم يشبه الزبرجد ولكنه أصفى منه.

والطاوية Taoism، وهي الديانة الصينية المحلية الأخرى، قد أسّسها لاو- تزو Lao-tzu. وتزامنت حياته مع حياة كونفوشيوس ويقال إنهما تقابلا. وتبنّت تعاليمه «الطاو» بروح أكثر صوفية واجتناباً للتشخيص، مؤكّدة أن طبيعة الأشياء لا يُدرك كنهها. وقال، منه أتت الماهوية السّرية لكل كائن. ويمكن أن تتحقق الحكمة والقوة بالتآلف معه، من دون تفكير أو جهد. وعنده ليس «الطاو» أصلياً. إذ كانت قبله قوة سحيقة من العدم، ومنها نشأ. مهما يكن، فهو لم يتصور قدرة فاعلة خارج النظام أكثر مما تصوّر كونفوشيوس أبداً. وفي الكون عنده مجال أرحب للتحرر من رغبات الآخرين أو نفعهم ولكنه يظلّ خلواً من الإعجازي.

كانت الحركة الطاوية التي زعمت أنه مؤسّسُها معادية للكونفوشيوسية. وقد اعتمدت على كتابه المفعم بالمعاني الخافية لتسوّغ التمرّد على القوانين، والفوضوية المقدّسة. كانت للعصاة والفنانين والمغامرين. وإلى جانب الجوّ العام لمقولة «افعل – ما تشاء»، الذي يتضمن الجنس الجماعي وعبادة الخمرة، فقد روّجت للسحر. وقامت سلسلة من الحكماء الطاويين ببناء مدرسة للخيمياء، مع إسهاب في الحديث عن إكسير الحياة. وزعم بعضهم أنهم خالدون فعلاً. وعندما ظهر أنهم يموتون، نشر أتباعهم أن القبر كان خاوياً ولم يكن فيه إلا المشتملات الشخصية، كالثياب أو العكّاز. وكتب طاويّون آخرون عن صنع الذهب، مثل الخيميائيين الغربيين.

على أن هذا كان يتمّ بإغفال أية فكرة من قبيل الإعجازي. وكان الطاويّون يبحثون عن صيغ وتقنيات، مهما تكن ناشزة. وخلافاً لكونفوشيوس كانوا يحبّذون العلم التجريبي. وتعزى إليهم عدّة اختراعات من أشهر الاختراعات الصينيّة – البوصلة، والبارود، والخزف الصيني، والأصبغة والأدوية المتنوّعة، والمعالجة بغرز الإبر. وفي زمن مبكر من العهد المسيحي كان سحرهم ذاته يُخطَّط له أن يكون نوعاً من العلم – يجمع بين الخيمياء ونظام الحمية وفنون التنفس، ونظرية مفادها أن في داخل البشر آلاف الآلهة الصغار جداً، ينتظمون في فريق يعمل في صالح الصحة الجسميّة والذهنيّة.

وهذه الفكرة الأخيرة هي صيغة يخصّ بها الفرد من بيروقراطيّة الصين الإلهية. وهي تتضمّن كذلك آلهة مبطَّنين يخدمون البشر بطريقة عادية، بدلاً من النظر إليهم بترفُّع من الأعلى وتخريب طرائق حياتهم.

وتزخر الهند – أي الهند الهندوسيّة – بوجود العجائب أكثر من أي بلد آخر. وفي القرن التاسع عشر، تناثرت وفرتها إلى أوربا وأمريكا. وقد نشأ الكثير من إحياء الباطنيّة والسحر عن المتحمسين لـ «حكمة الشرق» أمثال مدام بلافاتسكي، مؤسِّسة «الثيوصوفيا»، ممن درسوا الهندوسيّة وأقاموا إنشاءاتهم عليها. ومهما يكن، فالخطوة الأولى هنا هي إزاحة كلّ صنع هندوسيّ للعجائب تقريباً، لا على أنَّها وهميّة، بل على أنها غير إعجازيَّة.

وهكذا يزعم اليوغيُّون أنهم يقومون بأعمال جسديّة بارعة يمكن أن يحكم الغريب بأنها فوق بشرية. إنهم يستطيعون أن يعيشوا أسابيع من دون غذاء، وأن يتحمّلوا الحدود القصوى الخيالية من الحرارة والبرد، وأن يمارسوا تعطيل النشاط، وأن يوقفوا تنفُّسهم (أو يوقفوه تقريباً) أربع ساعات، وأن يبدّلوا معدَّل نبضهم. وصمدت بعض هذه المزاعم أمام الاختبار المخبري، ومنها مثلاً الزعمان الأخيران. والمزاعم الأخرى مشكوك فيها أكثر. ولكن ولو أنها كلّها صحيحة، فالأعمال البارعة تعتمد على التقنيات النفسيّة – الجسديّة وتتمُّ حين يشاء المرء. ولا يدّعي اليوغي أنها معجزات أبداً. وفي الواقع لو كانت معجزات لنالت من اعتداده بذاته.

وعمل المعجزات الهندوسي الآخر هو مجرّد شعوذة، بمعونة كلام طلق له تأثير التنويم المغناطيسي. وبعد كثير من النقاش يبدو أن هذه الشعوذة هي الحقيقة المحتملة لحيلة الحبل. فما يقال إنه يحدث، أو ما يظهر أنه يحدث، هو أن مشعوذاً يجمع حلقة من المشاهدين ويقعد في وسطهم وبجانبه غلام صغير. يُخرج حبلاً من سلّة ويرمي أحد طرفيها في الهواء. فتتصلّب مثل عمود. ويتسلّقه الغلام ويغيب عن النظر. ويتسلّق المشعوذ في إثره ومعه سكِّين طويلة، ويشلخه بها في الهواء، وينزل أقساماً مجزأة من الغلام، يكدِّسها على

الأرض ويغطيها بقماشة ثم يسقط الحبل ويزحف الغلام خارجاً من تحت القماشة، سليماً باسماً.

ظلَّ التفسير النموذجي أمداً طويلاً يقول إن الحيلة هي حكاية مسافر أتته سماعيَّاً على الدوام. «إنك لم تقابل أي شخص قد رآها بالفعل.» على أيَّة حال، توجد الآن على الأقل رواية شاهد عيان واحد هو ملاحظ غربي. إن «جون توسيغ»، الصحافي وضابط الاستخبارات غير العسكريّة، رأى الحيلة تؤدّى في قرية «بريمناجر» قرب «دِهرا دن». كان في ذلك الحين متحيّراً. ومع ذلك، لاحظ واقعة محذوفة من الأخبار السابقة – هي أن المشعوذ كان يتكلّم من دون توقّف، مقدّماً تعليقاً متتالياً على كل شيء قام به (في الظاهر). وبعدئذٍ رأى «توسيغ» صورة أخرى عن الحيلة في دلهي، حيث قطّع المشعوذ فتاة صغيرة ورمى لسانها لكلب ليأكله، ثم تظهر من جديد غير مصابة بأذى. ومرّة أخرى فإن الكلام الطلق الوصفي، باللغة الهندية، لم يكن ينقطع. وفي هذه المرّة قدّم أحد المشاهدين لـــ «توسيغ» مفتاحاً للّغز. سأل ماذا كان من المفترض أن يقوم به المشعوذ، ما دام لا يكفّ عن الكلام من دون عمل. وعندما وصف «توسيغ» الحيلة اعترض بأنه لم يشهد حيلة، ولا رأى كلباً كذلك. والاختلاف بين المشاهد و«توسيغ» هو أن الأول لا يعرف الهندية ولا يفهم ما يقوله المشعوذ. وبكلمات أخرى فإن حيلة الحبل وتنويعاتها قد تمت بالإيحاء الجماعي الساحر، الذي خاب مع مشاهد لا يعرف اللغة، أو لايعرفها معرفة جيِّدة كافية لجعله ينسحر. وهم لم يروا إلا مشعوذاً يثرثر ولا يستطيعون متابعته. والحيلة بكلّيتها خارقة للعادة جداً، ويمكن حتى أن يُعتقد أنها سحرية بأسلوبها، ولكن لا علاقة لها بالمعجزات.

وعندما نتحول عن هذه الأشياء المستهلكة، ونبحث عن الإعجازي في الفكر الهندوسي الجاد، ننتقل إلى أرض مخادعة. وكما وجدنا في الصين، نجد الفكرة الآسيوية المتواترة عن **شيء ما** تنشأ منه كلُّ الأشياء، ومن ضمنها الآلهة. هذا الشيء يسمى في الهند «براهمان»، وإذا كان هذا هو «الطاو» المنشِّئ تحت اسم آخر، فلن يكون «في الخارج» شيء، كما هو الأمر في

الصين، ولذلك لا يمكن أن يكون في الهندوسية مفهوم الإعجازي. إلا إن النموذج مختلف. وفي النتيجة يكاد لا يكون مضبوطاً على الإطلاق.

لنبدأ بمسألة أن «براهمان» على الرغم من أنه لا يمكن أن يتساوى مع الله، فإن له مظهر إله. وهذا المظهر يمكن أن يُعبد وأن يناجى، وكثيراً ما يمثله الإله «فيشنو» Vishnu. ثانياً، إن العالم الذي نراه ونَخبره لا يشبه في شيء كلّية الواقع المتطوّر. إنه ليس إلا مجال المظاهر، بل حتى مجال الوهم، بمعنى من المعاني. والطبيعة الأعمق للأشياء محجوبة، في **عالم مجهول** غير بائن. وفي ذلك تكمن السببية الحقيقية، وليس في الأسباب المعروفة في العلم والفهم المشترك. وعلى سبيل المثال، قد يعتقد إنسان بأن شكل حياته تقولبه تربيته، والمكان الذي يعيش فيه، والمهنة التي يختارها، والناس الذين يقابلهم، وما إلى ذلك... ولكنه يخدع نفسه. إنه في الحقيقة نتيجة سلوكه في الحيوات السابقة، ويخضع لما يطلق عليه «قانون الكارْمَة»[1]. وذلك القانون يؤكّد ببساطة؛ ولا يمكن البحث فيه كما يُبحث، مثلاً، في قانون الجاذبية، لأنه يؤدي وظيفته خارج العالم البائن.

قد يُظَنُّ أن عالم الغيب يشبه السماء المسيحية بمعنى إضمار الأعمال المسبِّبة للمعجزة. من شأن ذلك أن يكون غلطاً. والهندوسية لديها تراث غني فعلاً بالكائنات العلوية التي يمكن أن تجترح العجائب التي هي أكثر من حيل شعوذية. ومن هذا القبيل الحكماء المذكورون في الحكايات الشعبية البطولية ممن يطلق عليهم «الريشيون» rishis، واليوغيون الأكثر تقدماً، الذين يصرحون حتى اليوم بأنهم يستطيعون (مثلاً) أن يرتفعوا في الهواء. إلا أنهم جميعاً

---

(١) الكارْمَة Karma: هي الآثار الممكنة المستقرة في المجال الداخلي للحياة والتي تتجلّى بوصفها نتائج متعددة في المستقبل. وقانون الكارْمَة يعمل في أحوال الوجود الثلاث، الماضي والحاضر والمستقبل. والكارْمَة التي تشكّلت في الأعمار السابقة تفسّر الاختلافات التي نولد بها في الدنيا. ولكن الانسان بأعماله يمكن أن يغيّر كارْمَته، وهو بهذا المعنى فاعل حر.

يقومون بذلك باختراق حجاب المظاهر والسيطرة على القوانين العليا لغير البائن. ويُفترض في ضبط النفس الطويل، والصوم، والتركيز منحُ القدرة على القيام بذلك بطريقة آلية على نحو أكثر أو أقلّ. ويصوَّر اجتراح العجائب الهندوسي في معظمه بأنه حقاً ضرب ميتافيزيقي من السحر. إن عالم الغيب سلبي، غير شخصي. لا يوجد فيه شيء يأخذ باليد أو يتدخَّل. يضاف إلى ذلك أن أي استثناء حقيقي في الحياة الإنسانية من شأنه أن يكون ضد طبيعة قانون الكارْمَة. وقد زُعم أن الإدمان الهندوسي المتكرر على المقامرة ناشئ عن الاعتقاد بأنه لا توجد طريقة أخرى لتصديع الانتظام الحديدي للكارْمَة. ورُبَّ فرصة عمياء تغير مجرى قدر المرء، وعند انتفاء ممارسة الأمل في أن أي شيء غيرها سوف يغيّره، تنتفي المعجزة بالتأكيد.

والآلهة عموماً هم جزء من النظام ذاته شأن الكائنات الفانية،ويخضعون لقوانين مماثلة. وينشأ سؤال سببُه عبادة فيشنو بوصفه الكائن الأعلى،في صنف مختلف برمّته. إذ يؤكّد متعبّدوه أنه يتّخذ في بعض الأحيان شكلاً بشرياً. وكانت أشهر زياراته الأرضية في هيئة تعرف بـــ «كريشنا» Krishna. وتشتمل قصة كريشنا الشعبية البطولية على أعمال فذة مذهلة يؤديها ببساطة، كالمسيح، بفضل ألوهيّته ومن دون تقنية تمهّد لها. وهي على الأقلّ عرضة لذلك التأويل. أحد هذه الأعمال هو على النقيض من التوقّف الشمسي عند يوشع: إنه يخلق غروب شمس زائف في أثناء إحدى المعارك، ليربك الجيش الذي يحاربه أصدقاؤه. وربّما يمكن القول إنه قد صنع معجزة حقيقية – وذلك ما قيل في القصة – والحال أن أصغر الآلهة و«الريشيين» يقومون بها.

مهما يكن فإن الفكر الهندوسي الرزين لا يرى التمييز مهمّاً، ولا ينفق الكثير من الوقت في التشريح الدقيق للإعجازي. وعلى الرغم من أن الهندوس والمسيحيين يختلفون هنا فإن النوع الأكثر حكمة في كلتا الديانتين يحمل شبهاً في الموقف يجب ألا يمرّ من دون أن يُلتفت إليه. ويحاكي الهندوس قدّيسين وقدّيسات أمثال «تيريزا من أفيلا». ويعترفون بالعجيب، ولكنهم يرفضون أن

يصبوا التأكيد الكبير عليه. فإذا أحرزتَ تقدماً روحياً، فيمكن أن تصبح قادراً على اجتراح أشباه المعجزات أو (بالتعبير المسيحي) قد تحدث معجزات لك. وإن أنت عاملتها على أنها أكثر من نتاجات ثانوية، وحاولت تنمية موهبتك المفترضة، فإنك تحوّل القطار إلى خطّ مغلوط فيه. فليست هي ما يهمّ. بل ما يهمّ هو تقدّمك الروحي ذاته. وإذا صرفك صنع المعجزات عن ذلك، فيمكن التخلي عنه من دون خسارة، وهذا ما يجب أن يكون.

وفي عشرينيات القرن العشرين، عندما كان أتباع المهاتما غاندي يقدّسونه إلى حد قريب من التأليه، اعتقد الكثيرون أن لديه قدرات فوق بشرية. وكان يزجرهم على ذلك بشدّة، لا لأنه ينكر امتلاكه مثل هذه القدرات، بل لأنه يحكم بأن الاعتقاد ذاته ضار. وهكذا سرت شائعات بأن السلطات البريطانية لا تستطيع أن تقمعه، لأنها لو أوقفته لطار من النافذة، وعندما أوقفته، ولم يطر من النافذة، علّق بأن ذلك أمر مفيد لحركته. سيتعلّم الهنود الآن أن يعملوا من أجل أنفسهم بدلاً من تواكلهم على مهاتما يجترح العجائب. وبعد عدّة سنوات كان في رحلة بالقطار عندما أخذ الناس يهتفون بأنه قد صنع معجزة. فقد وقع راكب آخر على رأسه، ولكنه لم يصب بأذى. قال غاندي للرجل ألا يكون سخيفاً: «لو كانت لي أية صلة بذلك، لما تركتك تسقط».

كانت المسألة عند غاندي مسألة إنكار صريح. وتُروى قصة أعمق عن البوذا، الذي بدأ مصلحاً هندوسياً وليس مبدعاً لديانة جديدة. جاء في إحدى المرات إلى نهر بلغه أنه يعيش على ضفته يوغيّ شهير. وكان هذا اليوغي قد أخضع نفسه لمضاضات الصيام ومعاقبة الذات عشرين سنة، وصار يدّعي أنه يستطيع أن يسير على سطح النهر، فوقه تماماً إلى الطرف الآخر. فقال البوذا: «يا له من تبديد للجهد، حين يستطيع أن يعبر بالمركب مقابل قطعة صغيرة من النقود».

# الفصل السابع

## التفكير يجعل هذا هكذا

إن البوذية، تلك الديانة المبنية على تعاليم البوذا، قد ابتعدت مسافة كبيرة عن أصولها. وكادت تنطفئ في موطنها الهندي. وفي البلدان التي وجدت لقدمها موطئاً فيها صارت أكثر فرادة من مجرد إصلاح هندوسي. بلغت ذروة الغرابة والتعقيد في التيبت، حيث امتزجت بالأديان المحلية القديمة التي يهيمن عليها الشامانات والسحرة. وتحت رعاية كهانة «اللاما» غدت ثيوقراطية يحكمها الدلاي لاما. وانتشرت بوذية من الطراز ذاته في منغوليا. أحيت موروث صنع العجائب الموجود في الوطن الهندي، مع زيادات مضافة إليه. وهي نظرياً تنكر الإعجازي، وعملياً تقترب من الاعتراف به، بمعنى غريب لم تحدّده ديانة أخرى.

على الرغم من الانتصارات الشيوعية، لم تمت البوذية، ويمكن أن تبقى إذا تكلمنا عنها على الوجه الصحيح في صيغة الحاضر. إذ يتحدث اللامات، شأن معلمي الهندوسية، عن عالم غيبي يتجاوز العالم الذي نعرفه بالحواس، ويفوقه أهمية إلا أنهم يعطونه يقينية غير هندوسية. إنه نوع من الطاقة الذهنية غير المحدودة تكمن في أساس المظاهر. وكما يعبّر عن ذلك الباحث الغربي «إفانس – ونتز» Evans-Wentz، فإنه يُعتقَد أن المادة ذاتها متطورة عن الفكر، «طاقة ذهنية[1] متبلورة».

---

(١) ذهنية mental من الذهن mind: وهو الجزء غير المادي من الشخص، والقدرة التي يُنسَب إليها التفكير والشعور والعواطف والخيال وما إلى ذلك، وليس العقل إلا جزءاً منها. والذهن عموماً يقابل النفس أو الروح.

وبرغم أن عالم الغيب الذهني هذا وحدة أساسية فلا يُعتقَد أنه إله واحد بل هيئة من كائنات مقدسة مختلفة المراتب وذات طبيعة تفوق الوصف هي منزلة بين الواقع الخام والرمز. إنها توجد، لا كما يوجد البشر تماماً. وهي خليط من الآلهة، يمتدّ بين الـــ «بيدامات» yidams، أي الأرواح الحامية للأفراد، إلى الكيانات الرئيسية الجليلة التي تترأس عهود الكون. كذلك استوعبت اللامية الإحساس بهالة الجنس ورهبته، ويصور الفنانون الكائنات العليا مع الـــ «شاكتيات»(١)، وهنّ الشريكات اللواتي (إن جاز القول) ينشّطنها.

وفي مخطط الأشياء حيث يكون **الذهن** هو الواقع الأول يمكن أن نتوقّع أن يَنْتُجَ الكثير عن القدرات الذهنية. إن هذا هكذا. ويزعم اللامات أنهم يقومون بكل أنواع الأمور الخارقة للعادة من خلال طاقة الذهن والتركيز. هم يرفضون الإعجازي على أساس أن كل الظواهر تحكمها القوانين، ولو أنها قد لا يقع عليها البصر، ويقوم صانع العجائب البشري بذلك بنفسه بفهمه لها. وهذا هو الموقف الهندوسي إلى هذا الحد أو ذلك. مهما يكن، وكما سنرى، توجد تأكيدات أخرى تشكّ في صحة ذلك.

وفي النصف الأول من القرن العشرين، عندما كانت البوذية اللامية بعد في ذروتها، وأصبحت البلدان التي ازدهرت فيها – مدة من الزمن – لا تجد صعوبة كبيرة في بلوغها، أبلغ عدد من الرحّالة جاؤوا من الغرب عن معرفتها بالعجائب. وكانت أكثر هؤلاء تميّزاً «ألكسندرا دافيد – نيل»(٢)، وهي فرنسية

---

(١) الشاكتيات Shaktis: مفردتها الـــ «شاكتي» أو الـــ «ساكتي» Sakti وهي من المفردات الهندية وتعني المبدأ الأنوثي أو عضو التناسل الأنثوي والقدرة التوليدية عموماً.

(٢) ألكسندرا دافيد–نيل Alexandra David-Neel (١٨٦٨–١٩٦٩): باحثة استشراقية ورحالة فرنسية إلى التيبت. ولدت في باريس. ودرست السنسكريتية في سري–لانكا والهند، ثم ساحت في العالم بوصفها مغنية أوبرالية. واصلت أسفارها إلى أوروبا حتى العام ١٩١١، حين عادت إلى الهند، فزارت الدلاي لاما في منفاه في «دارجيلنغ» ودرست البوذية التيبيتية. وبعد أن طردت من الهند سنة ١٩١٦، ذهبت إلى بورما، واليابان، وكوريا وصولاً إلى بيجين [ بكين ] سنة ١٩١٧. وعادت إلى التيبت سنة ١٩٤٣، ولكن التقدم العسكري الياباني أرغمها على مغادرتها سنة ١٩٤٤، فقفلت راجعة إلى فرنسا.

تعتنق البوذية، ومؤلفة كتاب «مع الصوفيين والسحرة في التيبت». وقد تم معظم عملها في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين. وبفضلها وفضل الآخرين، حصلنا على أوصاف فاتنة لأعمال اللامات البارعة أو التي يُزعَم أنها بارعة، والنظريات التي وراءها. بعضها جزء من الموروث المسرود بطريقة شبه حكائية شعبية، وبعضها يتصل بالحاضر.

تروي إحدى القصص المحبوبة كثيراً كيف دعا الإمبراطور المنغولي «قبلاي خان» كهنة كل الأديان إلى المثول لديه. وألحّ كل منهم على منظومة معتقداته، باستثناء أحد اللامات، الذي أشار على «قبلاي» أن يطلب برهاناً عملياً. وعندما طلب قبلاي ذلك في آخر الأمر، لم يتصدّ أحد للتحدي. وعندئذ وجه الطلب إلى اللاما ذاته. نظر اللاما إلى الإمبراطور بثبات، فارتفع كوب من الخمر من المائدة إلى شفتي الإمبراطور. فأقر بتفوق البوذية.

لا تبدو هذه الحالة شبيهة بمعجزة حقيقية، ولا يُجزَم بأنها كذلك. ولا يوجد في الافتراضات اللامية عمل إلهي خاص، ولم تكن الحادثة حتى استثناء من قوانين الكون. بل يُفترض على الأقل أن الأمر قد تم ببراعة من براعات القدرة الذهنية تبدأ بأن الإيمان الحقيقي يمكن أن يسيطر. وبالروحية ذاتها إلى حد كبير تجري مزاعم اللاميين المحدثين للنتائج الرائعة للصيغ التيبتية من اليوغا – السفر الروحي بين النجوم، وتحرك الجسم بوساطة الفكر أو قوة الإرادة، وعدم التأثر بالبرد. ويمكن للمعرفة الباطنية في البلدان الأخرى أن تضاهي بعض هذه الأعمال. وبعضها أشد أصالة، كالقدرة على تخفيف وزن الجسم إلى حد يمكن لحاذق أن يسير بخطوات عملاقة، فيقطع ثلاثين أو أربعين ميلاً في الساعة (شاهدت مدام دافيد – نيل ذلك يحدث.)

يؤكد اللامات أن هذه الأعمال البارعة وأمثالها ليست غير إعجازية وحسب، بل أنها حيادية أخلاقياً. والقديس المسيحي والناسك التيبتي كلاهما قد يرتفع في الهواء، ولكن لا يُنظَر إلى ذلك على أنه برهان على القداسة إلا في حالة القديس. ومن شأن اللاما أن يرد على الزعم أن المسيح قد اجترح

معجزات حين شاء، وأنها تبرهن على طبيعته الفريدة وعظمته الروحانية بقوله (آ) إنها لم تكن معجزات، و(ب) إن الآخرين يمكنهم القيام بالأمر ذاته بالممارسة، و(ج) إنها لا تبرهن على شيء يرتبط بالعظمة الروحانية، بما أنها في مستطاع صانعي العجائب الأشرار والأخيار. ولا يتضمن الأمر اندفاقاً إلهياً من عالم الغيب.

على أن ألكسندرا دافيد – نيل تصف إجراءً يبدو فيه أنه تحدث أمثال هذه الاندفاقات. وعلى الرغم من أنه تُقدَّم الأعذار لها، فإن تقديم الأعذار يفتح مجالاً للفكر التيبتي تصبح فيه الفروق مطموسة. فهنا وعلى الأقل في أديان آسيا، نجد فكرة الدبيب الإعجازي على الرغم من الإنكارات، ولو أنها تتخذ شكلاً غريباً.

يُستخدم الإجراء الموصوف في تعليم اللامات الصغار. ويعلّم المعلم المبتدئ في الكهنوت أن ينزوي في صومعته ويدعو «ييدامه»، إلهه الحامي، إلى الظهور. ويجب أن تكون هذه الدعوة أكثر من دعاء. يجب أن يركّز، ويفكّر، وينفذ إلى التجارب الروحية. وقد تكون جهوده سدى، ولكنه إذا نجح، أظهر الـ «ييدام» ذاته. في البداية يكون من البساطة أن تظهر صورة أمامه. ولكنها بالمثابرة تأتي إلى الحياة، وتتجوّل. وبمجهود فائق قد يقنعها بالخروج من صومعته. عندما تزول تلك العقبة، تغدو رفيقاً يستطيع أن يستدعيه حين يشاء. ويهنئه المعلم. وعندئذ إذا أراد أن يذهب، فيذهب منتصراً، بصحبة الـ «ييدام» بوصفه ملاكه الحارس.

على أنه إذا ذهب يكون المعلم مُحبَطاً. إذ يظل الطالب الناجح حقاً غير راض، ويتقدّم أكثر بما يبدو أنه تراجع. ويصبح مقتنعاً أن الـ «ييدام» ليس إلهاً منفصلاً عن نفسه بل أنه مخلوقُ ذهنه. ويحاول المعلم أن يُطَمئنه. بيد أنه يغوص في هوة يأس، ويعترف بأنه، على الرغم من أن الـ «ييدام» لا يزال معه، لا يستطيع أن يعتقد بواقعه المستقل. لقد أطلعه من ذاته. ثم يثبت المعلم مسألته الحقيقية. «أنت على حق. فهمتَ ما قُصِد أن تفهمه. ليس الأرباب والشياطين والكون بأسره إلا سراباً يوجد في الذهن، «ينبع منه، ويغوص فيه».

والسؤال هو، ذهن من؟ على ما يُظَنّ فإن «الكون بأسره» ينبع من **الذهن الكوني** الواحد، وهو الطاقة الذهنية غير المحدودة التي تتبلور مادةً. ولكن ماذا بشأن الـ «بيدام»؟ إنه ليس مجرد هلوسة. إنه بتحديه لمجرى الطبيعة العادي يخرج من الجو الخاوي ويكون موجوداً بالفعل. والتعليم اللامي يعطي الواقعة تطبيقاً أوسع بكثير. فيُفترض أنه بالتمرين يمكن للحاذق أن يخلق من ذهنه الفردي، بإقحام عباراته الصغيرة في النظام الطبيعي. فللأفكار واقع، ويمكن أن يكون للشكل الفردي مادة ملموسة. والكلمة التيبتية هي «تولبا» tulpa.

نحتاج، أولاً، أن نفهم بدقة ما يقال حول «التولبات» tulpas، ثم أن نتأمل ما تنطوي عليه فعلاً. والحاذق يمكن أن يخلق أشياء كثيرة إلى جانب صغار الآلهة. يمكن أن يشكّل شخصاً آخر، وحيواناً، وشيئاً مادياً. وتتألف هذه «التولبات» من نوع من المادة المؤقتة المستخلصة من الطاقة الذهنية. وهي «لا توجد» كما «توجد» المادة العادية، ولكنها إذا أُطلعت بقوة وحوفظ عليها أمكن للآخرين أن يروها. وتكتسب في بعض الأحيان ملموسية كافية للشعور بها جيداً. وفي «حكاية جيزار»، وهي ملحمة قديمة لها شعبية في التيبت ومنغوليا، يكون البطل معلماً في فن إطلاع الـ «تولبا» ويستخدمه في المعركة. وأعداء جيزار تشوّشهم أشباح ذاته في أماكن مختلفة، وجنود شبحيون، وخيول شبحية، وخيام شبحية. وأمثال هذه الخدع البصرية تحدث كذلك في الحكاية الشعبية الهندوسية، ولكن هذه الخدع تفوقها. فخيام «التولبا» توفّر المأوى. وخيول «التولبا» يمكن أن تمتطى. وجنود «التولبا» يقتلون الأعداء بأسلحة «التولبا».

هذه حتماً حكاية شعبية بطولية. غير أن أعمالاً فذة مشابهة قد رُويت في القرن العشرين ولو كانت أشد تواضعاً. ففي العام ١٩٢٣ كان «التاشي لاما» أو «البانتشن لاما»(١) يتهدده الخطر من خصومه السياسيين. ففرّ من ديره في «شيغاتسه» تاركاً وراءه شكلاً فكرياً منه قيل إنه تصرّف كما من شأنه أن

(١) البانتشن لاما Panchen Lama: هو أحد كبيري اللامات في التيبت، ويأتي في مرتبة أدنى من الدلاي لاما مباشرة. ويدعى كذلك «التاشي لاما» Tashi Lama .

يتصرّف، وخدع كل شخص حتى ابتعد ابتعاداً آمناً، ثم زال من الوجود. وتصف مدام دافيد – نيل مناسبة عامة خرج فيها أحد اللامات من المحفّة التي كان يركب فيها، وسار إلى تمثال، واضمحلّ فيه بكل بساطة. ووُجد كرسيه شاغراً. وعلى ما يظهر فإن الشهود الكثيرين قد شاهدوا شكلاً فكرياً من اللاما، الذي لم يكن هناك على الإطلاق. حتى إن كانت هذه الحادثة وهماً جماعياً فإنه تواجهنا المشكلة التي واجهتنا في «فاطمة». فالوهم الجماعي من دون إيحاء سابق أو تنويم مغناطيسي هو لغز في حد ذاته. وفي العام ١٩١٢ روى الدلاي لاما لمدام دافيد – نيل أن قدرات كائن متقدم على نحو كاف – هو «بودهيساتفا»[١] حسب الاصطلاح البوذي – هي تقريباً قدرات لا حدود لها. فلا تقتصر استطاعته على أن يظهر في أماكن كثيرة في وقت واحد، وينثر في المنظر أناساً خياليين؛ بل يستطيع كذلك أن يخلق تلالاً، «وحظائر مسيّجة، ودوراً، وغابات، وطرقاً، وجسوراً»، وأن يؤثر في الجو.

والتطور الأبعد هو الـــ «تولكو» tulku. وفي ظروف معيّنة يمكن أن يكون «التولبا» من الاستقرار والمتانة بحيث لا يمكن تمييزه من الواقع العادي. و«التولبا» إذا نال تركيزاً خاصاً من الفكر والإرادة – من كائن أعلى، أو من عدة أشخاص معاً – يمكن أن يَنتج«تولبا» بشري يكون شخصاً فعلياً، قادراً على أن يعيش حياة كاملة من الحَبل إلى الموت. وهذا الشخص يولد بطريقة عادية ويدعى «التولكو» أو «الجسم الطيفي». ولا يحتاج طفل «التولكو» إلى أن يكون مختلفاً بشكل ملحوظ عن الأطفال الآخرين، وإنما هو يجسّد إلهاً، أو شيطاناً، أو شخصاً عاش من قبل، أو ربما مجرد أمل أو مثال– أي شيء يمكن أن يكون خالقه أو خالقوه قد فكروا فيه. وهذا هو مفتاح أفكار محيرة من قبيل تعاقب الدلاي لامات. قد يظهر كل منهم بشكل مختلف تمام الاختلاف عن

---

(١) البودهيساتفا Bodhisattva: إنسان متقدم روحانياً إلى أعلى مرحلة قبل مرحلة البوذا، وهو يستحق النرفانه ويظل على المستوى الإنساني يعمل على مساعدة البشر على الخلاص.

الأسلاف؛ ومع ذلك فهم الشخص ذاته، لأنهم جميعاً «تولكوات»tulkus لنموذج الشخصية ذاتها، المحفوظ من جيل إلى جيل ويتجاوز أحداث الحياة. وعندما يموت أحد الدلاي لامات، يجري البحث عن طفل «التولكو» الذي يولد بُعَيده ويمكن أن يتبين أنه يحمل الميسم ذاته. (يبقى أن نرى هل ستظل هذه العادة بعد الاستيلاء الصيني على التيبت.).

هكذا قيل، ولا تزال نظرية «التولبات» و«التولكوات» تشير إلى السحر لا إلى المعجزات. وقد يكون الشكل الفكري حالة شاذة في الطبيعة، ولكنه ليس مقذوفاً فيها بفعل عالم الغيب الذي لا يمكن تمحيصه، بل تصنعه تقنية واعية، مهما تكن غريبة أو عجيبة. أمن المؤكد أن ذلك هو مغزى تمرين «البيدام»؟ ولكن على الرغم من أن اللامات يتخذون رسمياً هذا الموقف، فإنهم يقدمون إقرارات تكشف أن الأمر أكثر تعقيداً. إن الإرادة الفردية والتخيل، سواء أمورسا فردياً أم بالمشاركة، ليسا القصة كلها. فالشكلان الفكريان قد يروغ كلاهما إلى حد ما. ويبدو أن الأشكال الفكرية قد تظهر عفوياً من دون أن تُطلَب على الإطلاق. ويمكن أن تتغير، ويزداد ابتعادها عن المفهوم الذي أوجدها. وقد تنقلب على خالقيها: تروي الحكايات المأثورة عن حاذقين تحوّل «تولباتهم» إلى أغوال فرانكنشتاينية ومهاجمتها لهم. وقد تجوب بعيداً وحدها، خارج سيطرة الحاذق ومعرفته. ويمكن أن تظل فعالة بعد موته، تقوم بأمور لم ينوها أبداً. كذلك، عندما تُنتَج معاً (كما في حالة تولكو)، فإن أفكار كل الناس المرتبطين بها لا يمكن أن تتطابق بالتفصيل؛ لذا لا بد أن العامل الذي ليس في أذهانهم هو منح المخلوقات الناتجة التماسك والوحدة.

وبحسب ما يبديه اللامات، يَدخل في العملية شيء من عالم الغيب، شيء لا يقدّر بشرياً. فخالق الأشياء الفكرية لا يوفر وحده كل المواد. إنه في الواقع يوفق بين نفسه **والذهن الكوني**، مستخدماً طاقاته للتنقير على تلك الطاقات العظمى وإطلاقها. وفي تمرين الـ «بيدام» عندما ينبئ معلّمُ حديثي العهد تلميذه أن الذهن يخلق كل شيء، فمن الواضح أنه لا يعني أن الأنا

الفردي الضعيف يخلق كل شيء. إن درسه هو أن **الذهن الكوني** هو ينبوع كل الأشياء، والطالب جزء منه، وقد حقق درجة من التماثل معه، يعمل على المنوال ذاته. ومن أحد الوجوه، كلاهما محق، الطالب الذي يكمل السير، وزميله الأقل تقدماً الذي يؤمن بسذاجة بواقع الـــ «بيدام». والعالم، بكل «أشيائه المرئية وغير المرئية» يُطلعه **الذهن الكوني**. وعلى الرغم من وجود الآلهة، فهي ليست خارج نفسك بشدة، ففي أعمق المستويات، أنت **والذهن الكوني** متّحدان.

برغم ذلك، **فالذهن الواحد** أكثر بكثير من أناك. وفي معرفة «التولبات» و«التولكوات» فإن الظواهر، وإن تكن تحت سيطرة الحاذق جزئياً، فهي ليست كذلك كلياً. يأتي شيء ما من عالم الغيب، شيء لا يمكن التنبؤ به، شيء آخر. قد تكون الحوادث مختلفة عن المعجزات المسيحية في روحها وجوّها، غير أنها ليست مختلفة في طبيعتها المفترضة.

علاوةً، فإن الطائفة اللامية التي تولي أشد الأهمية النسبية للأشكال الفكرية ترى كذلك أن لعالم الغيب مقر قيادة في نوع من السماء بعيداً عن البشر. ويطلق على الطائفة «كالاتشاكره» Kalachakra، أي «**عجلة الزمان**»، وهي تؤكد وجود أصل في مكان يدعى «شمبهاله» Shambhala، يتداخل فيه عالم الغيب وعالم الشهادة. وأساطير «شَمبهالَه» وافرة؛ والمسألة الوحيدة التي تهمنا الآن هي أن اللامية تحتوي على نظير للسماء المسيحية في المظهر الذي نحن معنيون به – السماء بوصفها مصدراً للقدرة الإلهية وصنع العجائب، متميزاً من مجال الخبرة العادية.

والاسم الكامل لهذا المكان الحافل بالأسرار هو «تشانغ شمبهاله» Chang Shambhala، أي شمال شمبهاله. ويبدو أن التقاليد ذات الوزن تضعه في مكان أبعد عن خط الاستواء من التيبت ومنغوليا، ربما بين جبال «ألطاي». وهو قلعة خافية في معقل طبيعي، لا يمكن الوصول إليه إلا بوساطة الذين يتم استدعاؤهم صوفياً. وسكانه أكثر من بشر، وملوكه الإلهيون لهم تأثير باطني في أمور

الجنس البشري. وقد ذهب البوذا ذاته إلى هنالك لإدخال نفسه في أعمق حكمة.[1] تنبعث من شمبهاله الرسائل والعلامات السرية لإرشاد الفاعلين المختارين من الجنس البشري. وليس المعقل الكائن في جبال ألطاي (أو في أي مكان كان) هو كل شمبهاله التي هي سماوية مثلما هي أرضية. وأشعة القسم السماوي يمكن أن تُرى في بعض الأحيان وهي تنير السماء الشمالية. وبكلمات رحالة غربي، فإن شَمبهالَه هي «المكان المقدس، حيث يرتبط العالم الأرضي بالأحوال العليا من الوعي». وبعض أكبر صانعي العجائب وخالقي «التولبات»، كالبطل الملحمي جيزار مثلاً، يقترنون بها، وهي تمنحهم القدرة.

والرحالة المستشهَد به الآن هو نيكولاس روريتش Nicholas Rorerich، الذي كان يجمع المعلومات حول «البوذية اللامية» في زهاء الزمن الذي كانت فيه هنالك مدام دافيد- نيل. كان روريتش فناناً وعالماً أنثروبولوجياً روسياً ذا موهبة ممتازة. وقد زود سترافنسكي[2] بالمادة الخلفية لقطعته الموسيقية «شعيرة الربيع». ومن العام ١٩٢٣ إلى العام ١٩٢٦ كان يقود رحلة وئيدة الخطى في آسيا الوسطى، يصحبه ابنه، وهو عالم من طراز أشد أكاديمية. وإلى جانب الكثير من الرسم والتلوين والعمل الميداني في الأنثروبولوجيا، كان روريتش يبحث في «شمبهاله» والموضوعات الموصولة بها. وكان هو ذاته يؤمن بها. أو على الأقل يؤمن بالواقع الكامن في أساس الحكاية. ويبدو أنه كان يعتقد أنه يتلقى رسائل من شمبهاله وأن عمله مهمة خصوصية خدمة لها.

---

(١) كان ذلك في مرحلة بحثه عن الحقيقة ودخوله في تجارب كثيرة قبل أن يحقق التنوّر ويبلغ مرحلة البوذا.

(٢) هو «إيغور فيودورفيتش سترافنسكي» ( ١٨٨٢-١٩٧١ ): مؤلف موسيقي روسي شهير، ولد قرب بطرسبرغ، في روسيا. درس القانون ولكنه تحول إلى التأليف الموسيقي وكان معلمه رمسكي كورساكوف. واشتُهر بقطعه الموسيقية المؤلفة للباليه مثل «طائر النار» (١٩١٠) و«بتروشكا» (١٩١١) و«شعيرة الربيع» (١٩١٣). ودفعته تجريبيته إلى أعمال موسيقية سمفونية متعددة.

وفي عشرينيات القرن العشرين وجد هو ومدام دافيد – نيل أن شَمبهالَه قضية حية في آسيا الوسطى. كانت بؤرة مهارة سرية ثورية في آسيا الوسطى، ومحرّكاً مبكّراً للقومية الآسيوية. وكان ذلك ذا طابع إيحائي يذكّر بآمال المسيحيين السذج بـــ «القدوم الثاني» للمسيح من السماء. فالملك الإلهي في شَمبهالَه سوف يظهر ويقود حرباً مقدسة ضد الإمبرياليين الغربيين. وفي التيبت صار «التاشي لاما»، اللاما الثاني في المنزلة بعد الدلاي لاما، منخرطاً في السياسة بعمق حتى أرغمه الضغط السياسي على مغادرة البلد. فسافر إلى البلد المنغولي وأسس كليات «كلتشاكره» Kalchakra التي كان يؤكد أنها على اتصال بشمبهاله. وماثل المنغوليون المخلّص الموعود بالبطل جيزار، الذي سيولد في معقل مقدس ليترأس حملة دينية وشيكة الحدوث.

وأدّت الأشكال الفكرية دوراً بارزاً في المأثورات القومية الشفوية لهذه الحركة. وكانت حرية «التاشي لاما» في توليه القيادة فيها نتيجة لقدراته «التولبائية» tulpa: كان هذا عندما تغلب على أعدائه بخلقه طيفاً له، مثّل شخصيته في «شيغاتسه» إلى أن قطع الحدود. وأحد اللامات أخبر مدام دافيد – نيل أن المسيح المنتظر، جيزار الذي – يعود – من جديد، يفسَّر بالأفكار الموحَّدة عند الشعب المنغولي. «سيكون التولكو منا جميعاً، نحن الذين يود الأجانب أن يجعلوهم عبيداً لهم.» الواضح تماماً هنا أن فكرة جماعية مبهمة تعطى لها مادة عبر مشاركة مجال أعلى. والحنين الأرضي تحققه السماء، أو، على أية حال، الشمبهاله، لا الطاقات الذهنية غير المركَّزة لأولئك الذين يحنّون. فلدينا على الأقل صدى خفيف لموضوع مألوف أكثر – هو إرسال الله مسيحاً لتحقيق آمال اليهود المرتبطة بالمسيح.

وليست «التولبات» محض أقاويل شرقية. فقد تعرّف بها الغربيون. و«كلتشاكره» باقية حتى اليوم في منغوليا، وتم فيها إدخال إنجليزي حي واحد على الأقل (وقد قابلتُه) وقدم تجارب في الشكل الفكري. ومتروك له أمر وصف هذه التجارب، إذا اختار القيام بذلك. ولكن التجربة الأخرى ملكية عامة.

فقد أنجزتها ألكسندرا دافيد-نيل بنفسها ودوّنت ذلك في كتابها. ويبدو أنها لا تُثبت مجرد أن الأشكال الفكرية ممكنة، بل تؤيّد الاستدلال أنه يوجد بشأنها أكثر من أفكار خالقيها.

بدأت بتأليف صورة ذهنية لراهب تيبتي، «قصير وبدين، من نمط بريء وطيب جداً». وبعد أن صوّرته، أدّت المسلك المرسوم للتركيز والطقس. ومرّت شهور. ثم ظهرت الصورة أمامها. وسرعان ما تلاشت، ولكنها تمكنت بعد مدة من استحضارها مرة أخرى. بدا راهباً حقيقياً، ووجدت من دون إيلاء التفصيلات اهتماماً مقصوداً أنه كان متناسقاً. وكانت ترى على الدوام الرجل ذاته، لا شيئاً موهوماً مترجرجاً.

وفي زهاء ذلك الحين استأنفت أسفارها، على صهوة حصان، مع بضعة أصحاب تيبتيين. وفي الطريق أخذت ترى هل كان الراهب مَنْ فكّرت فيه أم لا. كان يتصرّف تصرّف شخص حقيقي، يسير بحذاء حصانها، ويتوقف من حين إلى حين لينظر حوله، من دون أن يُطلَب إليه ذلك. أحياناً كان يلمسها، بمنتهى الخفّة. ثم بدأ أخيراً يتغير، ولكن ليس بسبب أي تغيّر في صورتها الذهنية له. وكانت عملية تحوله إلى شبه شخص بحكم حقه عملية غامضة. كان يُفلِت من تصوّرها، ويغدو أنحف، وأقل طيبة في المظهر. كذلك، وبرغم أنها احتفظت بكل ذلك لنفسها ولم تتحدث عن راهبها، كان الآخرون يلمحونه لمحات سريعة. وحين قررت أن ينتهي، أمرته أن يزول. فأعرض. وظلت ستة أشهر تقاتل شكلها الفكري العنيد. وكان يعود مرة بعد أخرى. وما استطاعت إلغاءه إلا بمجهود طويل الأمد في التركيز، كالمجهود الذي استحضرته به أولَ مرة.

يطوف في الذهن تفسيران «معقولان». وعلى الرغم من أن كلاً منهما يشمل جزءاً من القصة، فإن كل جزء يدحضه الجزء الآخر. فلعلها افترضت أنها في حالة هلوسة مطوّلة – ربما بسبب ذكريات راهب حقيقي، كانت له أهمية عندها ونشأت الصورة مشبهة له. ولكن إذا كان الأمر كذلك، كيف شاهد أصحابها الشخص أيضاً؟ من جهة أخرى لعلها افترضت أنهم في حالة رؤية له

ناجمة عن ثرثرة لها تأثير التنويم المغناطيسي، كما في حيلة الحبل الهندية. ولكن تلك الفكرة تتنازع مع طبيعة رؤيتها، مع صمتها عنه، مع استيائها من أن يكون أحد سواها على علاقة بالأمر.

من الواضح أنه قد تكون مدام دافيد-نيل قد لفقّت كل ذلك، مع أنه لا يوجد سبب واضح لسوء الظن فيها. بل إن هذا النهج في التخلّص لا يُفلح في التخلّص من نيكولاس روريتش، الذي يروي قصة أشدّ ترويعاً. على الأقل ذلك ما يبدو، وهي مروّعة في أكثر من ناحية. تجري في يوميات رحلته، المنشورة تحت عنوان «**ألطاي-هيمالايا**»، والتي تصوّر بعثته إلى آسيا الوسطى. ففي صيف ١٩٢٧ كان معسكراً مع جماعته في وادي شاره-غول Shara-gol، وهو بقعة غير معروفة جيداً بين منغوليا والتيبت. وفي استغراقه في أحلام اليقظة حول شمبهاله، بنى مزاراً مكرّساً لذلك المركز الذي يصعب إدراكه بالعقل. وانتهى في أوائل آب، وتجمّع عدد من اللامات من البلد المجاور للاحتفال بالتكريس. وعند هذه المسألة تورِد يوميات روريتش المدخل التالي:

**في الخامس من آب - شيء لافت للنظر ! كنا في مقاطعة كوكونور Kukunor غير البعيدة عن سلسلة جبال هومبولت. صباحاً في حوالي التاسعة والنصف لاحظ بعض أفراد قافلتنا نسراً أسود كبيراً بصورة تستوقف النظر يحلّق فوقنا. أخذ سبعة منا بمراقبة هذا الطائر غير العادي. وفي هذه اللحظة ذاتها لاحظ شخص آخر منا «وجود شيء في البعيد فوق الطائر.» فصاح مبهوتاً. ورأينا جميعاً، في الاتجاه من الشمال إلى الجنوب، شيئاً كبيراً ولماعاً يعكس الشمس، مثل شكل إهليلجي يتحرك بسرعة كبيرة. وحين عَبَرَ الشيء معسكرنا بدّل اتجاهه من الجنوب إلى الجنوب الغربي. ورأينا كيف غاب في السماء شديدة الزرقة. وكان لدينا وقت حتى لكي نُخرج مناظيرنا الميدانية ونرى بوضوح تام شكلاً إهليلجياً ذا مظهر براق، يلمع أحد جانبيه من الشمس.**

وفي كتاب آخر، عنوانه «جبال هملايا، مسكن الضياء»، دوّن روريتش الحادثة مرة أخرى.

**صباح مشمس، غير غائم – والسماء الزرقاء مشمسة. فوق معسكرنا يطير نسر هائل، قاتم. نشاهده نحن ويشاهده المنغوليون الذين معنا. فجأة يشير أحد لامات بوريات Buriat إلى السماء الزرقاء. «ما هذا؟ منطاد أبيض؟ طائرة؟» – لاحظنا شيئاً برّاقاً يطير عالياً جداً من الشرق الشمالي إلى الجنوب. نُحضِر ثلاثة مناظير ميدانية قوية من الخيام ونراقب الجسم الهائل شبه الكروي الذي يلمع حيال الشمس، والملحوظ بوضوح قبالة السماء الزرقاء والمتحرك بسرعة شديدة. نرى بعدئذ أنه يغيّر اتجاهه بشدة من الجنوب إلى الغرب الجنوبي ويختفي خلف سلسلة جبال هومبولت التي تعلو ذراها الثلوج.**

إن هذه الصيغة تضيف عدة تفصيلات إلى الأولى. كانت السماء صاحية. ذهبوا إلى خيامهم ليُحضر كل منهم منظاره المزدوج – ومن ثم، وعلى الرغم من أن الشيء كان يرحل بسرعة، كان لديهم الوقت للقيام بذلك. كذلك، كان تغيير اتجاه الطيران شديداً.

والأمر البارز والمحفّز للذهن هو أن هذه الحادثة هي مشاهدة بسيطة لـ «صحن طائر» تتقدّم عشرين سنة على الموجة الكبرى لـ «الأشياء الطائرة غير المحددّة» (أ.ط.غ)، التي بدأت تتوارد في حزيران ١٩٤٧. ويبدو أن الشيء كان شكلاً إهليلجياً برّاقاً مع قدر من التحدب. ومرق في الهواء من دون أن يظهر ما يقوده، أو ماذا يرفعه. وينتقل بسرعة، تزيد أوتنقص في خط مستقيم، ثم يقوم بانعطاف مفاجئ. وهذه هي مميزات الصحون الطائرة. وهناك تفسيرات قائمة على الفهم المشترك يُفترض أن تعلل هذه الأشياء، وهي تعللها عموماً، ولكن ليس هناك ما يعلل هذا الشيء. لم يكن غيمة. ولم يكن في آسيا الوسطى سنة ١٩٢٧ منطاد جوي أو قمر صناعي. ولم تكن نتاج الإيحاء. أما مشاهدو «أ.ط.غ» الحديثون فمن الممكن جداً أن يحدث معهم ذلك، لأن

مشاهدي «أ.ط.غ» قد كانت في أذهانهم فكرة عنها. ولكن لم يكن أحد لديه فكرة عنها سنة ١٩٢٧. حتى إن كان روريتش قد اخترع القصة بكاملها، مطمئناً إلى أنه لن يناقضه أحد من أصحابه، فمن الصعب جداً أن نفهم كيف توصّل إلى اختراع صحن طائر قبل عشرين سنة من أول ذكر له.

إذا سلّمنا بأن روريتش قد رأى شيئاً ما (وكذلك بقية مجموعته على ما يُرجّح)، فماذا كان؟ وتنطبق على الحادثة حجّة على الأقل من الحجج المضادة للـ «أ.ط.غ». إذ يصر غير المؤمنين بها، بحق، أن الصحون الطائرة لا يمكن أن تكون ناقلات مجهَّزة بالرجال أو حتى بالأشياء المادية، لأنها تطير بسرعة في خط مستقيم ثم تنعطف بشدة. لا يمكن لآلة أن تنفّذ مناورة كهذه، ولو أمكن القيام بهذا الانعطاف على نحو ما، لانطرح الملاحون إلى الأمام في حجرتهم وقُتلوا. ومادام الشكل الإهليلجي الذي ذكره روريتش قد طار بسرعة، وانعطف بشدة، فمعنى ذلك أنه لم يكن آلة طائرة. فحركتها تتمرد على القوانين النظامية للميكانيكا.

من الواضح، في الواقع، أن للقصة جانباً سيكولوجياً. وهو لا يمكن أن ينفصل عما كان روريتش يراه في أحلام اليقظة حول شمبهاله؛ وهو ومزاره؛ ومن الشمال، حيث يُفترض أن تقع شمبهاله، ظهر النذير. ومع ذلك فإن التوازي الغريب مع الأوصاف اللاحقة للـ «أ.ط.غ» (كيفما أوّلناها) يمنع ردّها إلى مجرد هلوسة جماعية سببتها أخيولات صوفية. كيف يمكن للناس سنة ١٩٢٧ أن يهلوسوا بذلك؟ فلا شيء في الفن البوذي أو الأسطورة البوذية يمكن أن يفضي إلى توقع ذلك. ويبدو أن الناشز، كما يمكن أن يكون الاستدلال، هو كأن هذا «الشيء الطائر غير المحدد» قد كان بالفعل بنية تولبا tulpa مرئية ومن صنع الفكر، تتخذ الشكل الذي أظهرت خبرة «أ.ط.غ» منذ ذلك الحين أنها تنسجم مع نموذج ما في الذهن البشري. يضاف إلى ذلك أن شمبهاله كانت الموطن الشهير لتلك الأساطير والمعتقدات عينها وهي التي صبّت معظم التأكيد على موضوعة التولبا. وكان الظرف والجو كلاهما مناسب لظهور الشكل الفكري، وقد ظهر.

وفي الكتاب الذي يقدّم الرواية الثانية، يقول روريتش إن اللامات الذين شاهدوا الشيء معه أطلقوا عليه «علامات شَمبهالَه». ويدوّن كذلك مناقشة مع لاما آخر، لم يكن موجوداً، إلا أنه جاهر بإقراره بطراز الحادثة. وهذا اللاما قال له:

**«تحرسك شَمبهالَه. النسر الأسود الكبير هو عدوّك، التواق إلى تدمير عملك، ولكن القوة الحامية المنبعثة من شمبهاله تتبعك في هذا الشكل المشعّ من المادة. هذه القوة هي بقربك دائماً غير أنك لا تستطيع أن تدركها دائماً. في بعض الأحيان فقط تتجلى لتقويتك وتوجيهك. هل لاحظتَ الاتجاه ذاته... يجب أن تعرف وتدرك الأسلوب الذي يساعَد به الناس لأن الناس كثيراً ما يُعرِضون عن المساعدة التي تُرسَل إليهم.»**

إنه في حديثه عن «التجلّي» في «شكل مشعّ من المادة» يشير بالتأكيد إلى فكرة التولبا. غير أن اللاما لم يعتبر أن الشكل الإهليلجي الطائر قد خلقته أفكار روريتش ذاته أو جماعته مجتمعة. لم يكن المزار إلا فرصة لظهوره. فقد كان أصله من شخص ما أو شيء ما في شمبهاله. ولكن على الرغم من أنه يُعتقد بوجود شمبهاله أرضية، بوصفها كليةً للحاذقين المستترين (ربما) في جبال ألطاي، فقد أكد هذا اللاما ذاته أنه سماوي أيضاً، بما أنه فعلاً، «المكان المقدس»، كما عبّر عن ذلك روريتش ذاته، «حيث يرتبط العالم الأرضي بأعلى أحوال الوعي». وعلى ما يظهر فإن شَمبهالَه هي في عالم الغيب بمقدار ما هي هنا.

وباختصار: لقد تصرّف الشيء الذي في السماء كما لم يستطع أي شيء مادي، ووفقاً للامات فقد جاء بوصفه اعتراض عالم الغيب للذهن، تسبّبه الأذهان الأرضية المنسجمة، ويُرسَل بوصفه علامة. ومهما كانت غرابة اللغة والتصوّر، فإننا نواجه حادثة فيها إلى حد كبير أسلوب المعجزات المصاحبة للقديسين والرائين المسيحيين. والطريقة التي حدثت بها تذكّرنا (مثلاً) بالنذير الشمسي في «فاطمة».

ما دامت التوازيات من النوع غير المحدَّد قد بدأت في الظهور، فجدير أن نسأل هل يمكن أن تلقي هذه الأفكار اللامية أي ضوء على المشكلات التي حيّرت الغربيين. مثلاً، هل توحي بطريقة جديدة في النظر إلى المعجزات التي في الأناجيل؟

يجب أن نكون على حذر من تخيّل أن «التولبات» أو «التولكوات» سوف «تفسّرها». فلا جدوى من الوقوع في محاولة أخرى للتبرير العقلي عتيقة ومضلِّلة. على أية حال، من الصعب أن يُعدّ ذلك تبريراً عقلياً. فالألغاز المسيحية غير قابلة لإحلال ألغاز تيبتية محلها. والأمر المهم بالأحرى هو أن نسأل هل قصص المعجزات أياً كانت تبدو شبيهة إلى حد كاف بقصص التولبات لنفترض ان موروثاً متقارباً يعمل عمله: موروثاً أوحى بها، أو أثّر فيها، أو دخل واقعياً في أعمال المسيح، وفقاً لمقدار ما نُبعِد في رؤيتنا فنرى أن الأناجيل تاريخ. ولا يحتاج اقتفاء أثر الشبه أن نحطّ من قدر المسيح، أو أن نتخاصم مع الأرثوذكسية المسيحية. ولا يحتاج إلى ما حاول المتحمسون لـ «حكمة الشرق» أن يفعلوه في أكثر الأحيان – وهو تحويله إلى نوع من الـ «غورو»(١). وبالمصطلحات اللامية، يمكن أن تقول إنه كان إنساناً فريداً له سيادة في عالم الغيب الإلهي ويمكن أن ينتج أشكالاً فكرية فوراً حين يشاء. إن من شأن ذلك أن يكون متلائماً مع فكرة **التجسد**. والربّ، الذهن الأسمى، له سيادة في عالم الغيب الإلهي، ولذلك خلق الله الإنسان.

على أن المدى محدود. ويمكن أن تؤوِّل **الولادة البتولية** بأنها تشكّلٌ لـ «التولكو» فريد في رحم مريم، ينسجم مع مشيئة الله والآمال البشرية المتعلقة بالمسيح المنتظر. وقلة من المعجزات التي يؤديها المسيح في أثناء بعثته التبشيرية تثير أصداء خافتة. فعندما يكاثر أرغفة الخبز لإطعام خمسة آلاف شخص، يذكرّ على نحو غامض باجتراح جيزار للعجائب. فذلك البطل التيبتي

---

(١) الـ «غورو» guru: معلم أو زعيم ديني هندوسي أو سيخي، يمنح هدايته الشخصية لتلامذته.

يخلق جيوشاً من جنود «التولبا» المجسَّمين إلى حد كاف لقتل أعدائه. كذلك يجب أن يكون خبز «التولبا» مجسَّماً إلى حد كاف لإشباع الجياع. ولو رويت القصة ذاتها في مكان تيبتي، لكانت تلك هي الطريقة التي يُتوقَّع أن تفهم بها. ولكن من الطبيعي ألا يرد إلى الذهن في «العهد الجديد» مثل هذا المعنى، لأن معظم المعجزات الأخرى مختلفة تماماً. ولا يشبه عدد كاف منها إطعام خمسة آلاف لافتراض أن تصوّراً عاماً يفعل مفعوله.

ويصبح مفهوم «التولبا» أكثر إثارة للاهتمام عندما نتحوّل إلى «القيام من الأموات». فالمسيح المرفوع ليس مجرد يسوع بلحمه ودمه وقد رُدَّت إليه الحياة. إنه كذلك، ولكنه أكثر من ذلك، وتحيط به الأسرار. إنه يتغير، ولذلك لم يتعرّف إليه في الحال أصدقاؤه وتلامذته، ومنهم مريم المجدلية، على سبيل المثال. يغيب في أورشليم، ويشاهَد في الجليل، و«يعرج إلى السماء» غائباً عن النظر، ويتحول إلى نمط آخر من الوجود. وتصرّ الروايات على واقعه الجسدي – يستطيع أن يأكل، ويتمكن توما المتشكك من الإحساس بجروحه– غير أن جسده قد تبدل. إنه يتصرف مثل «تولبا». ويمكن أن يكون قد تألف مما سمّاه اللاما الذي كلم روريتش، الشكل المشع من المادة، المادة الذهنية.

وهنا يمكن أن نتوقف، ونحكم، على أبعد تقدير، بأن قصص «القيام من الأموات» قد تأثرت بمعرفة جماعية تطفو على السطح في اللامية أيضاً. إلا أن معلومة واحدة تجبرنا على أن نذهب أبعد من ذلك. وهذه المعلومة هي «كفن تورين المقدس». فكما رأينا، على حين أن الصورة التي عليه كثيراً ما تُتّهم بأنها مزيفة، لم يفسر أحد كيف يمكن أن ينفَّذ التزييف، وكيف يمكن أن تنطبع صورة كهذه على القماش. أما التجربة فقد أظهرت أن الصورة يمكن أن يشكلها جسد بشري إذا حدث له شيء غير عادي، مطلقاً دفقة إشعاع. فهل تحولت صورة الجثمان – تحولت حقاً وبالمعنى الحرفي – إلى مادة حية مجيدة يشير إليها اللامات إشارات غامضة؟ وهل تعكس قصص «القيام من الأموات» تلك الخوّاص «التولبائية» للمادة؟

بعد أن أخذنا علماً بمثل هذا الاحتمال المذهل، لا يسعنا إلا أن نتركه ونمضي. وتوجد مسافة قصيرة علينا أن نجتازها. إذ لا تزال في مأثورات سير القديسين المسيحيين عدة نقاط اتصال بنظرية «التولبا». فيمكن استدعاء الأشكال الفكرية في أحوال وجود القديسين في مكانين في وقت واحد، وفي قصص أسطورية من قبيل قصة **سيدتنا** التي تخلق شبحاً يحتل محل الراهبة الهاربة. إلا أن القصص المسيحية التي يمكن أن تؤوّل على هذا النحو ليست شائعة جداً. وفي الأزمنة الحديثة، تتضح صلة غامضة بين «نذير» فاطمة و«الشيء الطائر غير المحدد» عند روريتش، ومع ذلك لا يبدو أن ذلك من الممكن أن يفيد أكثر بكثير من القول بذلك.

على أن «فاطمة» تثير مسألة أخرى. وقد حاول منظّرو «أ.ط.غ» أن يضيفوها، زاعمين أن ما رآه الحشد البرتغالي حقاً كان صحناً طائراً. والفكرة غير محتملة حتى بمعايير نظريات «أ.ط.غ». فأوصاف الحركة الشمسية لا تشبه كثيراً أخبار الصحن الطائر في السنوات اللاحقة. ومن جهة أخرى، فإن وصف روريتش لشكله الفكري الشمبهالي (إذا كانت هذه هي الطريقة التي يجب أن ننظر بها إليه) يُلمع إليها على نحو قريب جداً، قريب إلى حد أن المصادفة تبدو ممتنعة. وقد لا تكون الأشكال الفكرية عوناً كبيراً على فهم المعجزات المسيحية، ربما بقطع النظر عن المعجزة الوسطى والفائقة، ولكنها يمكن أن تساعد – وإذا كانت كذلك، فبأي معنى فيما يتعلق بالإعجازي – على فهم المشكلات المتبينة خارج الدين؟ ولنفكر ملياً في الصحون الطائرة: هل يمكن أن يكون هذا الأمر هو حال بعضها تماماً؟

ليس كلها، حتماً، أو حتى نسبة كبيرة. إن أكثرية الصحون الطائرة يمكن أن تنسى بلا حرج. فهي غيوم أو أقمار صناعية أو مناطيد جوية أو أوهام بصرية... أو خدع. مهما يكن، فإن قلة قليلة تبقى بعد التمحيص النقدي. ومن المثير للاهتمام على الأقل أن صحن روريتش الطائر، السابق لبقية الصحون، لا بد قد أظهر تماماً ما كان مذهب «التولبا» مستعداً لتقديمه من تفسير. هل يمكن أن تكون الصحون الأخرى «تولبات» كذلك، أطلعها على نطاق العالم

فعلٌ مجهولٌ تمتد نشاطاته إلى ما وراء آسيا الوسطى؟ أم والحالة كذلك، يمكن أن تكون الصحون الطائرة «تولبات» غير مقصودة ينتجها على نحو مستقل أناس أذهانهم مأوى لمثل هذه الصورة. إن هذا الرأي، بالفعل، هو إلى حد كبير جداً ما افترضه ك. غ. يونغ في كتابه حولها، برغم ما يبدو من أنه لا يعلم شيئاً عن «التولبات»، ويشير إلى الفكرة بنفسه.

ولا يحتاج إلى توضيح أن الأشكال الفكرية قد تمتّ بصلة إلى بعض السنوات الشاقة من البحث النفسي – عن أشباح الأحياء أو أطيافهم، وهلم جرا. وبدلاً من السرحان في هذه المجالات التي وإن تكن واضحة فهي مشكوك فيها، علينا أن نتأمل في موضوع أدعى إلى الاهتمام ولكنه أقل وضوحاً: إمكان متّها بالصلة إلى مشكلة أخرى يجري الآن إقرار بأنها حقيقية، وهي الشاهد على دعم التنجيم المرتبط بالمولد.

وقام بتجميعها في أوائل السبعينيات من القرن العشرين مايكل وفرنسواز غوكلين. وتقنع قضيتهما الأستاذ هـ. ي. آيسنك[1] الذي كانت مقالته «الكواكب والنجوم والشخصية»(New Behavior, May 29 th.1975) التلخيص الأول وسهل المتناول لها في اللغة الإنجليزية. وهي تفضي إلى مأزق، يمكن أن تحله نظرية الشكل الفوري.

وضع الزوجان غوكلين قوائم بأسماء الناجحين من العلماء والممثلين واللاعبين الرياضيين. وكان اختبار النجاح موضوعياً، وهو ببساطة هل قدم

---

(١) هو «هانس يورغن آيسنك» Hans Jurgan Eysenk: عالم نفسي ولد سنة ١٩١٦ في برلين. درس في فرنسا وفي جامعة لندن وأصبح أستاذ علم النفس في جامعة لندن (١٩٥٥-١٩٨٣). كان الكثير من عمله بحثاً نفسياً قياسياً في أنواع الأحوال الطبيعية للشخصية والذكاء البشري، وكان ناقداً صريحاً للمزاعم التي لا تقوم على دليل تجريبي واف. وقد وجّه نقداً شديداً إلى المحلل السويسري: ك. غ. يونغ في موضوع المزاج المنطوي والمزاج المنبسط سواء في صحة نسبة النظرية إليه أو في استدلالاته وتطبيقاته الفاسدة، وذلك في كتابه الشهير «الحقيقة والوهم في علم النفس». وانتصر مراراً للرأي القائل بأن العوامل الوراثية تؤدي دوراً كبيراً في تحديد الاختلافات السيكولوجية بين الناس، وعلى الأخص فيما يتعلق بأمزجتهم.

الشخص موضوع سيرة. وعلى هذا الأساس جمعا /٣،٦٤٧/ في المجموعة الأولى، و/١،٤٠٩/ في الثانية، و/١،٥٥٣/ في الثالثة. ثم اختارا كوكباً مناسباً لكل صنف من أصناف الأشخاص، وحددا وضعه لدى ولادة كل عضو من الصنف. وخُصّص كوكب زحل للعلماء، والمشتري للممثلين، والمريخ لأبطال الرياضة. وفي كل صنف وجد الزوجان غوكلين ترابطاً ملحوظاً مع سلوك الكوكب. فنسبة العلماء الذين وُلدوا بُعَيد بزوغ زحل، وبعيد بلوغه أعلى نقطة له في السماء، قد بيّنت أنها بعيدة كل البعد عن التوقع العشوائي وسيكون من المعاندة رد النتيجة إلى المصادفة. وحدث الأمر ذاته مع الممثلين في علاقتهم بالمشتري، ومع اللاعبين الرياضيين في صلتهم بالمريخ. وعندما أعلن الزوجان غوكلين اكتشافاتهما، قامت لجنة علمية متشككة بإعادة الاختبار باختيار عيّنة من /٥٣٥/ لاعباً رياضياً بلجيكياً وإجراء التجربة معهم أيضاً. وأظهرت هذه القائمة أنموذجا مشابهاً.

لذا بدا أن التنجيم قد أحرز انتصاراً. وكان انتصاراً محدوداً جداً – فلم يوجد بعدُ شيء في صالح التنبؤ التقليدي بالفأل على أساس منطقة البروج – ولكنه انتصار مع ذلك. وكانت العلّة، كما أشار الأستاذ آيسنك في إعادته سرد القصة، أنه لا توجد صلة سببية يمكن تتبعها، أو حتى تخمينها على نحو معقول. ولا تزال تلك هي العلة. فالترابطات واضحة، ولكن لا يُفهَم لها معنى. وعندما ابتُدِع التنجيم، كانت الكواكب تعد مساكن الآلهة، ويفسَّر تأثيرها بتلك الطريقة. وبرغم ذلك، فمما لا ريب فيه أنه كانت للآلهة القدرة على التأثير في البشر. وقد لا يعترف علم الفلك الحديث بهذه الأمور. فالكواكب كتل صخرية على مبعدة مسافات هائلة. فكيف لها أن تؤثر في الشخصية؟

لعل الجواب هو أنها لا تؤثّر. وسنتذكر في الاعتقاد اللامي أن الطفل المولود بالطريقة العادية يمكن أن يكون «تولكو»، وهو نوع أكثر استقراراً من «التولبا» الذي يعبر عن أفكار الآخرين وإرادتهم. وفي عشرينيات القرن العشرين المضطربة، كان المنغوليون يأملون في خلق زعيم قومي بهذه الطريقة وهي

التفكير فيه والتوق إليه. ولنفترض إذن أن طفلاً يولد متلائماً مع ارتفاع كوكب من الكواكب. المريخ يرتفع والطفل (كما سيظهر في عدد قليل من السنوات) يولد لاعباً رياضياً. أيمكن أن يكون العامل الحاسم ليس وضع الكوكب في حد ذاته، بل معرفة المنجّم لذلك الوضع؟ عندما يفكر منجمون كثيرون في ارتفاع المريخ مع كذا وكذا من التأثير المحتمل، فإن الطفل الذي يولد في تلك الآونة يجنح، حسب الافتراضات التيبتية، إلى أن يكون «تولكو» لديه ميل يعبّر عن أفكار المنجمين. ولا حاجة إلى أن نتصور أنهم يريدون قصداً ولادة مثل هذا الطفل. ويؤكّد لنا أن إنتاج الشكل الفكري قد يحدث عن غير قصد، لمجرد أن أذهان الناس تخلق الشروط له. وبناء على هذا العرض، فعلى الرغم من أنه لا توجد علاقة سببية بين الكواكب والشخصية، فإن التنجيم الميلادي يأخذ مظهر الحقيقة من خلال التولكوات المتشكلة بسبب اعتقاد المنجمين بها.

لنعد الآن إلى الإعجازي كما يُفهَم عموماً. وعلى حين أن معجزات مسيحية قليلة تشبه الأعمال اللامية البارعة في محتواها، فإن لدينا تقارباً على مستوى الأفكار. إن «المعجزة» طريقة مسيحية للدلالة على شيء تنص عليه البوذية اللامية كذلك، ولو أنها تنظر إليه نظرة مختلفة. تحدث الظواهر التي تتجاوز السير النظامي للطبيعة، وهي ناشئة عن **الذهن** الذي هو ذاته يتجاوز الطبيعة. وفي هذا السياق يفكر المسيحيون في الذهن على أنه الله، وعلى أنه يسبب الأحداث التي هي استثنائية للغاية وتدعى إعجازية بحق. واللامات يرفضون التحدث عن المعجزات، لأنهم لا يسمحون بأن تكون الاستثناءات حقاً كذلك. وكما أنه يوجد قانون ومنطق في عالم الشهادة، يوجد قانون أعلى ومنطق أعلى في عالم الغيب.

ويواصل اللامات كلامهم بأنه يضاف إلى ذلك أن هذا أمر يمكن تعلّمه إلى حد ما. وبالتمارين الذهنية والتناغم، يمكن للحاذق أن يسبب تجليات للذهن خارقة للعادة بالطريقة التي ينويها. والأشكال الفكرية مثال بارز. فإن كائناً متقدماً، مثل البودهيساتفا الذي حُدِّثَت عنه مدام دافيد-نيل، يمكن أن يقحمها في

العالم النظامي مثل فنان يضيف شيئاً إلى صورة. وهذا في الظاهر على خلاف مع المسيحية، لأن **الذهن** الوحيد الذي بوسعه أن يفعل هذا عند المسيحيين هو الله، وهو منفصل عن الأذهان البشرية وخارج سيطرتها.

مهما يكن، هناك على الأقل مسألتان تتضمنان طمساً للحدود. أولاً، في الجانب المسيحي، لدينا مثال في المأثور، إذا لم يكن في العقيدة الرسمية، على إنسان يمكن أن يحرز معجزة عندما يشاء، وهو في الواقع يفعّل عالم الغيب لإحداث نتائج كنتائج البودهيساتفا. هذا الإنسان هو **مريم العذراء المباركة**، التي هي على وئام تام مع الرب بحيث يفعل كل ما تطلبه. في الوقت ذاته، لدينا في الجانب البوذي إقرار اللامات أن الأشكال الفكرية هي أكثر من إسقاطات لـ «أنا» الحاذق. فالعوامل الخارجية موجودة فيها. ويمكن أن تظهر من دون أن تُستدعى. يمكن أن تجسّد أفكار عدة أشخاص بدلاً من شخص واحد ويتضمنها شيء ما يعمل على الامتزاج والانسجام. ويمكن أن تنشئ لهم شخصاً، يقاوم الانحلال، شأن راهب مدام دافيد-نيل. وتستطيع الانطلاق بأنفسها وتعمل باستقلال. وفي مقدورها أن تعارض مُنشئها أو حتى أن تهاجمه. ويمكن أن تبقى حيّة بعده. وفي الأساطير الشمبهالية يمكن أن تنبعث الأشكال الفكرية من شمبهاله تكون سماوية كما هي أرضية، وأن توجد في عالم الغيب كما توجد هنا، مع سكان يفوقون البشر. وفي الواقع، فبرغم أن عالم الغيب قد يكون لديه منطقه، فهو **آخَر**، فعّال، ولا يمكن فهمه أو التحكم فيه تماماً.

وهكذا يكاد لا يكون إنكار اللامات للإعجازي أكثر من مخاتلة في الكلمات. ولكن نظريتهم تنقلنا إلى ما وراء المسيحية. وهي تشير إلى أنه على الرغم من أن المعجزات من الطراز تام النمو نادرة، فقد توجد أصناف أوسع للحوادث يؤدي فيها عالم الغيب دوراً خاصاً: الحوادث الأكثر تنوعاً وتكراراً، والفائقة للطبيعة بصورة أقل وضوحاً،ولكنها تظل معجزات على منوالها، بمعنى أن الأسباب الطبيعية لا يمكن وحدها أن تفسرها. وهذا يصدق، مثلاً، على ولادات التولكو. ولكن الإمكانية قد تتسع أكثر من ذلك بكثير.

# الفصل الثامن

## إشارات

يُسوِّغ لنا وفي الذهن هذه الأفكار أن ننتقل إلى خارج الدين مرة أخرى، وأن نعود إلى مجال ليس له حدٌّ واضح وحظي باهتمام مجامِل في الأعوام الأخيرة: مجال الباطني وما فوق التفسير النظامي - مجال السحر الجديد، والإدراك الذي يعدو الحواس، والتحريك النفسي للأشياء[١].

سيهبّ أنصار هذه الموضوعات للاعتراض على مثل هذه القضية. سيعودون إلى طرح ذلك الإنكار الذي طرحه اللامات لمدام دافيد - نيل. وسيصرّون على أن الأعمال البارعة التي يؤمنون بها ليس لها محل هنا،لأنها ليست إعجازية، وإنما ناشئة عن قدرات بشرية معروفة قليلاً، أو قوى أو أعمال، مهما كانت غامضة، يمكن أن تُدرس دراسة نظامية. وكان «أليستر كراولي»[٢]،

---

(١) المصطلح في الإنجليزية psychokinesis وهو مشتق من الكلمتين اليونانيتين psycho بمعنى نفسي وkinesis بمعنى تحرك أو تحريك، ويدل المصطلح في علم نفس الخوارق على تغيير الشيء بالتأثير الذهني وحده، من دون أي تدخل، ولذا نترجمة بـــ التحريك النفسي للأشياء. ويدل المصطلح ذاته في الطب النفسي على حالة النشاط الحركي العنيف وغير المشروط، ولذا يمكن أن يترجم بـــ الاختلاج النفسي. والمؤلف يستخدم المصطلح بمعناه الأول.

(٢) أليستر كراولي Aleister Crowly (١٨٧٥- ١٩٤٧): كاتب و«ساحر» بريطاني. صار مهتما بالباطنية عندما كان مرشحاً للتخرج في كيمبرج، وأسس منظمة تعرف بـــ «النجم الفضي». سافر إلى أنحاء كثيرة من العالم ومكث بضع سنوات في أحد أديرة صقلية مع رهط من تلامذته. وأدت شائعات المخدرات والعربدات والطقوس السحرية إلى طرده من إيطاليا، وكان يحب أن يطلق عليه «الحيوان العظيم» و«أفجر إنسان حي» - ومن الثابت أن كثيرين ممن ارتبطوا به ماتوا مِيتة مأساوية.

وهو أشنع السحرة الحديثين شهــرة، يقدّم السحر (والكلمة المفضّلة عنده هي بزيادة الحرف k على نهاية كلمة magic لتصبح magick) على أنه تقنية لإحداث نتائج مرجوّة، كالفنون السحرية عند سحرة فرعون الذين تباروا مع موسى. وكانت هذه هي المسألة الجوهرية عنده. وكما يعبّر عن ذلك في فقرة يوردها في أحد كتبه التعليمية:

> يُكتب في هذا الكتاب عن «السفيروث» Sephiroth والممرات، وعن الأرواح واستحضاراتها؛ وعن الآلهة والأفلاك، والطائرات، وأشياء أخرى كثيرة قد توجد أولا توجد. ووجودها وعدمه عديم الأهمية. فبالقيام بأمور معيَّنة تنجم نتائج معيَّنة؛ ويحذِّر الطلاب بمنتهى الجدِّية من إسناد واقع موضوعي أو صحة فلسفيّة إلى أي رمز منها.

وهنا فإن تعبير كراولي عن المسألة شبه علمي ومضاد للإعجازي.

ولكن هل هو صحيح؟ إننا لو قبلنا مزاعم الساحر بالظواهر التي تحدث، فهل نجد (حيث يمكن شدّها إلى الأرض) أنها تحدث على هذا النحو، في سلسلة علل ومعلولات مسيطَر عليها بشرياً. وعلى هذا الاعتبار هل «ظواهر الإدراك غير الحسي»، التي اختبرها الأستاذ راين(١) وزملاؤه بِجَلد شديد، تُسفر عن الانتظام الذي يبدو أن من شأن منهج معالجته ومناقشته أن يتضمّناه. هناك حجة للنظر إلى أن أمثال هذه الأمور حقيقية. فهل توجد حجة، مع ذلك، لإثبات أنها تمتلك ذلك النوع من الواقع؟ على الرغم من كل ما أثارته هذه الأمور من الاهتمام منذ ستّينيّات القرن العشرين، يظلّ ليس واضحاً بمَ على وجه الدّقة يكون الاهتمام. إن الموضوع تشوّشه الافتراضات غير المبرهن عليها، واجتناب تقديم الإجابة

---

(١) هو «جوزيف بلانكس راين» (١٨٩٥–١٩٨٠) Joseph Blanks Rhine: عالم نفسي ورائد علم نفس الخوارق parapsycholgy ، الذي يتناول الظواهر التي تقع خارج نطاق التفسير المادي. درس علم النبات في شيكاغو، وتحوّل إلى علم النفس وأخذه على يد وليم ماكدوغال في «جامعة الدوق» Duke University. وفي العام ١٩٣٧ أصبح أستاذ علم النفس فيها، ومؤسّساً مشاركاً لمختبر علم نفس الخوارق (١٩٣٠). وبعدئذ أسّس «معهد علم نفس الخوارق» في «درهام» (١٩٦٤). وحاولت اختباراته، التي أُجريت في المختبر الذي من محتوياته مجموعات من ورق اللعب ذات تصاميم خاصة، أن تثبت ظواهر الإدراك غير الحسّي والتخاطر على أساس إحصائي.

المباشرة بطرح سؤال آخر، وتجهيز حجة ليست في مصلحة المؤمنين بها وحسب، بل كذلك في مصلحة نقّادها المتعقّلين بحسب ما هو معترف به؛ وتخدم الطرف الثاني أكثر مما تخدم الطرف الأول.

قبل سنوات قليلة عرضت هذا الموضوع في نص روائي معنوَن بـ «الأصبع والقمر». وكانت بعض تعليقات المراجعين كاشفة عن أمور لافتة للنظر. وها هي عبارة من تعليق في الـ «نيو ستيتسمن» New Statesman، التي هي لسان حال اليسار المتعقّل:

**يقيناً إن هذا هو أهم سؤال تطرحه الرواية: لماذا نجد أن الأفكار والمواقف التي يجسّدها السحر اللفظي تحرز تقدّماً، ولا سيما بين الشبّان؟**

وهاهي عبارة من تعليق في «الإيكونوميست» Economist، التي هي لسان حال اليمين المتعقّل:

**لا ريب أن هذه هي المسألة المهمة في هذا الكتاب غير المهم فيما عدا ذلك: لماذا هناك إحياء للسحر، وفن إحضار القوى الخارقة لأغراض خاصة، وكهانة ما قبل المسيحية، وعبادة الشيطان، كل المتاع غير المعقول من الخرافة المنظّمة التي كان الإنسان الغربي ينبذها في ثلاثمائة السنة الماضية؟**

والسؤال ذاته طرحه، بغضب أو سوداوية، نقاد كتب غير كتابي. وقد يكون المرء معذوراً إذا تساءل هل كانوا يا ترى يريدون إجابة حقاً. وفي حالتي كان واضحاً أنه ولو كان السؤال قد طُرح بإخلاص، فإن أفكار الكتّاب عمّا يُعدّ إجابة تُكَتِّفها الافتراضات المسبّقة. لأنه، على الرغم من أنهم اشتكوا من أن الرواية لم تقدّم إجابة، كانت الحقيقة هي أنها قدّمت، وفي موضع قريب من بدايتها حيث (بالتأكيد؟) لا يمكن أن يُخطئها المراجع.

لقد وضعتُها في محاضرة قدّمتها إحدى شخصيّات القصة، وهي عالم نفسي متخيّل، والمحاضرة مبنيّة جزئيّاً على عمل عالم نفسي حقيقي ومتميّز جداً، هو فكتور فرانكل(١).

---

(١) فكتور . إ . فرانكل Victor E. Frankle : محلّل نفسي نمساوي معاصر، وعلى الرغم من كل الأهوال والظروف الرهيبة التي عاشها قال عبارته الشهيرة: «دعونا نواصل قولنا نعم للحياة».

**«يشتكي مرضانا بصورة متزايدة من الإحساس بعدم المعنى في الحياة. وفي الأعمّ الأغلب يكون السبب هو نظرة العلم. أو ما وصل إليهم على أنه نظرة العلم. وهي في بعض الأحيان تدعى الاختزالية...».**

**«ويميل الذين يستخدمون التفكير الذكي إلى الاعتقاد بأن العلم قد اختزل الإنسان. وقد انتحل العذر لكل شيء يهمّ على أساس أنه أصغر الأمور وأخسّها مما لا يهمّ. فليس الدِّين إلا حكايات عجيبة مبعثها التفكير الرَّغبي. وليس الحب إلا كيمياء جسدية. وليس الفن إلا فورة للمنعكسات الشرطية».**

**«إن العلم يترك الإنسان حبيساً، عديم الجدوى، محكوماً عليه بالهلاك.. إنه يقتات على عمل مختبراته التي لا تُحصى، ليوقع الناس في فخ الأنظمة المغلقة – الأنظمة الكيميائية، أو البيولوجية، أو الفيزيائية – حيث تذهب السَّحنة كلّها ويضيع الأمل كله[1]».**

من الواضح أنه قد يعلِّق قارئ بأنه بينما قد تكون هذه الولادة الجديدة للسحر وما إليه بسبيل استجابة مفهومة لهذا الإحساس، فإنها مجرد اتجاه هروبي، فرار من العقل. ولذا أدخلت متشكّكين يقدّمون الحجة ذاتها، وأعطيت مُحاضري ردّاً ينطوي على هجوم مضاد.

---

(١) إن هذه الملاحظات المستوحاة من فكر المحلل النفسي فكتور فرانكل نجدها، بعد أن ننزع صفة الإطلاقية عنها، منسجمة كذلك مع التحليل الألمعي الذي قدّمه المحلل النفسي إ. فروم والذي لاحظ فيه الصفة الاغترابية الاختزالية والفُصامية في قطاع واسع من العلماء المعاصرين، ولكن ليس في كلهم. وقد قال: «إنها لحقيقة لافتة للنظر أن معظم العلماء المبدعين المعاصرين، أمثال أينشتاين وماكس بورن Max Born وهايزنبرغ Heisenberg وشرودينغر Schrodinger كانوا من أقلّ الأفراد اغتراباً وأحادية في التفكير. ولم يكن لاهتمامهم العلمي أية صفة فُصامية من صفات الأكثرية. والمعهود عنهم أن اهتماماتهم الفلسفية والأخلاقية والروحية قد خالطت شخصياتهم الكلية. وقد أثبتوا أن المقاربة العلمية بحدّ ذاتها لا تُفضي إلى الاغتراب، بل إن المناخ الاجتماعي هو الذي يمسخ المقاربة العلمية ويحوّلها إلى مقاربة فُصامية». راجع إ. فروم، «تشريح التدميرية البشرية»، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، الجزء الثاني، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٦، ص١٢٦.

**«تزعمون أنكم تتكلّمون بلسان حركة إنسانية، علمية، تقدّمية، وتساوون بينها وبين العقل. أقول لكم إنها لم تفعل فعلها فيكم. إذ يُفترض أن تبثّ الإخلاص لخير البشر. إنها، بقطع النظر عن قلّة من ذوي التميُّز الرفيع، لا تقوم بذلك. فمن جهة نعيش في خشية الأهوال التكنولوجية... ومن جهة أخرى هناك عجز عن عمل الكثير حيالها. إنه إخفاق للإرادة – بسبب الإحساس بأن الظلام مُطبِق علينا وأن الموت هو النهاية وقد جعل العلم كل شيء أجوف ولا معنى له. والآن إذا كان ذلك كذلك (وأستطيع أن أعطيكم الدليل، العلمي، الاختباري، على أن ذلك كذلك)، فلن أدعو إلى النظر إلى غير هذا من أجل الإنقاذ فراراً من العقل. إن ذلك معقول بكل معنى الكلمة. وعلى الأقل، يمكن أن يكون».**

ما أردت إيصاله هو أن أناساً كثيرين أصبحوا تحت الضغوط الذهنية ناشدين للتجاوز، لا لرفض العلم في مجاله الصحيح، وإنما للتقدم في استياء نحو شيء ما وراءه. ولا يزال يبدو لي الجواب، سواء أكان صحيحاً أم مغلوطاً فيه، جواباً جدياً تماماً عن السؤال الذي طرحه مراجعو الكتاب. إلا أنه لم يكن النوع الذي يستطيعون الاعتراف به، أو حتى التعرف إليه عندما رأوه. وكانت العلّة هي أنه تجاسر على افتراض درجة من المعقولية في سلوك الناشدين. فقد صُوِّر على أنه متابعة جِدّية لشيء ما يمكن تصوّره «هناك». والمراجعون المخلصون لعقائد الإنسانية العلمية القطعية، قد افترضوا سلفاً أنه ليس كذلك. لذا لم تكن إجابتي إجابة على الإطلاق، وكان انسدادهم العقلي من الكمال بحيث أشاروا إلى أنني لم أقدّم إجابة على حين قدّمتها في الصفحة الخامسة وعدت إليها عدداً من المرات على مدى الرواية.

إن هذا الأمر الزهيد في التاريخ الصحافي يستحقّ التدوين لأنه يساعدنا على إيضاح مسائل. فإذا علمنا وجهة النظر واسعة الانتشار التي يبديها أولئك المراجعون، فماذا من شأنه أن يعدّ جواباً عن سؤالهم؟ أي نوع من البحث يمكن أن يُقبل على أنه يُفضي إليه؟ من حيث الماهية يجب أن يكون البحث سوسيولوجياً ويتملّص من المسألة بطرح سؤال آخر. والباحث غير المؤمن [بالمعجزات] يقابل

المؤمنين، ويسأل عن اهتماماتهم وحوافزهم، ويسبر خلفيتهم وبنيتهم الذهنية. ثم يستخلص النتائج، لا بدراسة هل معتقداتهم صحيحة أم لا، بل بمحاولة ضبط خلل سيكولوجي ما – ولنقل حالة عصاب – يشتركون فيه. وإذا تم العثور على هذا الخلل، فسيقدّم على أنه مصدر ما يُفترض سلفاً أنه وهم... لأنه، كما يعلم كل الناس الذين يستخدمون التفكير الذكي من دون تجشّم عناء البحث، لا حدوث لإدراك يعدو الحواس، ولا لظواهر سحرية وما إلى ذلك.

ومثل هذا الإجراء لا يستوقف المرء على أنه شديد الموضوعية، أو حتى معقول جداً. وهو ليس ضرورة زائفة؛ فقد شاهدت هذا الإجراء بالضبط يُستخدم لتفسير رؤية الأشياء الطائرة غير المحدّدة. (أحياناً في ساعات الغفلة، فإن رافعي لواء «المعقولية» يُبدون الدهشة من الإرساليات الدينية. وفي إحدى المرات، لاحظ الدكتور أ. ل. راوز، في مراجعة أخرى لكتاب في السحر (ليس لي) – على نحو عَرَضي تماماً ومن دون إدراك واضح لما يقوله أن الذين يفكّرون تفكيراً عقلياً يخطئون غالباً أكثر من الآخرين، لأنهم يخفقون في فهم الأكثرية التي لا تفكر عقلياً. ولكن إذا كانت للعقل أية دلالة أو قيمة في كل الأحوال، فإنها تكمن في أنه منهج الوصول إلى الحقيقة؛ منهج التفكير السليم. وإذا لم يكن منهجَ الوصول إلى الحقيقة، بل كان يخطئ في أكثر الأحيان، فما فائدته؟ أمن المؤكّد أن هذه الفكرة عن المعقولية ليست بحاجة إلى تفحص دقيق للأخطاء؟) على أن تقدير ما يشتمل عليه هذا الأسلوب من التفكير يكون بالاقتراب من المسألة المباشرة. إن ادّعاء المعقولية في العقيدة القطعية القائلة بأن «هذه الأمور لا تحدث» هو هنا أكثر خصوصية مما كان عند تطبيقه على المعجزات، وهو في ظاهره أكثر منطقية. إنه يعتمد على فكرة معيّنة عما يُفترض أن تكون عليه الأمور؛ وإلى حد ما يجب لوم الباطنيّين والمشتغلين بعلم نفس الخوارق على صرفهم الفكرة عن أذهانهم. إن التبرير الطامح في أن يكون علمياً لإنكار أمثال هذه الأعمال الفذّة – أو بالأحرى لرفضها – هو أن الدليل عليها مليء بالنوادر، وألف نادرة لا تعادل حجة علمية واحدة. وما يهم هو أنه لم يقم أبداً أحد من الناس بتجربة قابلة

للتكرار، وأظهر أن الأعمال الفذّة تعمل حسب نظام. ولم يُجرها أحد بحضور المتشكّكين، في ظروف اختبارية مسيطَر عليها. فمن شأن ذلك وذلك وحده أن يكون البرهان. وفي غيابه يمكن أن تعامل على أنها وهمية، أو ذاتية، أو يداخلها الغش. لذا عندما يظهر اهتمام بها، فالسبب الوحيد المقبول هوْ أنه يوجد شيء مغلوط فيه فيما يتّصل بالذين يُظهرونه.

والآن فهذا الكلام هو حقاً تملُّص من المسألة بطرح أسئلة أخرى من جديد. فما يفعله الخصم فعلاً هو تعريف البرهان مقدَّماً على نحو يجعل البرهان مستحيلاً، أو بعيد الاحتمال كثيراً. ولهذا يستبعد مناقشة الموضوعات التي يفضّل ألا يناقشها. إنه دفاع خاص[1]، لأنه ليس من شأنه أن يطبّق المعيار ذاته على أنماط أخرى من السلوك أدنى منها في عدم الاستقرار. وقد يكون صحيحاً أنه ما من أحد أثبت التخاطر في ظروف مخبرية. ولكن هل يتوقّف وجود التخاطر على أي شخص قادر على القيام بذلك؟ وليس بوسع باحث أن يجعل شخصين يقعان في الحب في ظروف مخبرية. ولا يسعه أن يجعل سيمفونية عظيمة تؤلَّف أو قصيدة عظيمة تُكتب في ظروف مخبرية. ليس بالموثوقية المطلوبة، على أية حال. ومع ذلك فهناك أزواج من الجنسين يقعون في الحب. وتوجد موسيقى عظيمة وشعر عظيم. وكذلك يمكن أن يكون هناك تخاطر.

ولكن المسألة هي هذه. يمكن أن ينجو الخصم ب «دفاعه الخاص» ومعيارِه الزائف بفضل الفكرة، التي غذّاها مؤمنون كثيرون، والتي مفادها أن هذه الأعمال الفذّة مقصودة وهادفة؛ وأنه حسب تعبير كراولي «بالقيام بأمور معيّنة تنجم نتائج معيّنة»؛ وأن السر يكمن في القدرات المجهولة التي يمتلكها بعض البشر، ويستطيعون استعمالها حين الطلب. وهذا هو زعم السحر العتيق، وإذا جرى الإصرار عليه فطلب البرهان الصارم عليه طلب عادل. وينبغي للسحرة والمرهفين في إدراكهم الذي يعدو الحواسّ أن يقدّموا الأداء بانتظام، مهما كانت

(١) الدفاع الخاص special pleading: هو الدفاع الذي يدّعي وقائع جديدة للاستغناء عن الوقائع التي قدّمها الطرف الآخر بدلاً من الإقرار بها مباشرة أو نفيها.

الضوابط قاسية. وفي الواقع، فإن الافتقار إلى برهان على أنهم يستطيعون القيام بالأداء لا يدحض السحر والإدراك الذي يعدو الحواسّ. وذلك يثير سؤالاً هو هل السحر والإدراك الذي يعدو الحواسّ هما كما أكد المدافعون عنهما.

وما يسمّى الدليل المليء بالنوادر يمكن أن يثمر الكثير. ولكن هل هو دليل على القدرات البشرية أم التقنيات التي تعمل ضمن النظام؛ أم هو دليل على شيء أقرب إلى الإعجازي – على اقتحام «تجاوز» يروغ من التناول العلمي كلياً؟ «تجاوز» يمكن أن يؤدّي إنسان دور نقطة اتصال له؛ وبه يمكن أن يحقق اتصالاً، فيظهر له بتكرار غير عادي؛ ولكن ليس مجرد «الأنا» المطوّق يمكن أن يتحكّم فيه شعورياً، أو يستخدمه عن ثقة؟

إن الباطنيين في أكثر أحوالهم إفضاءً بما في دواخلهم من شأنهم أن يكونوا أقرب إلى هذا الوضع مما تتضمّنه لغة السحر المتعجرفة. يكونون أقلّ تعرُّضاً للنقد إذا تبنّوه صراحة. وفي لحظات الصدق والانفتاح كان كراولي ذاته، على الرغم من عنجهية مزاعمه العلنية، يعترف أن الحقيقة غير ذلك. وقد كتب مرة: «إن السحر magick يتملّص من الوعي برمّته، ولذا عندما يكون المرء قادراً على القيام به، يقوم به من دون فهم شعوري، وإلى حدّ ما مثلما يلعب لعبة موفقة في الكريكيت أو البلياردو. «وحذّر تلامذته من أن يفترضوا أن السحر يمكن تعلّمه مباشرة، كما يمكن تعليم شخص قيادة السيارة. إن في وسعهم أن يصغوا إلى تجارب الحاذقين الكبار. ويمكن أن يقوموا بالإجراءات السحرية بأنفسهم. ويمكن أن يدوّنوا ما فعلوه، وما نتج عنه – إذا نتج أي شيء. ثم بوسع الآخرين، من ثم، أن يتأمّلوا النتيجة. ولكن لم يكن هناك شيء آلي، أو خاضع للتحكم بأمان.

وفي رواية «الأصبع والقمر» صوّرت هذا الموضوع قصصياً بوساطة محاضرة متخيّلة أخرى.

**«يستطيع المتشكّكون أن يجعلوا التقنية [السحرية] تبدو سخيفة. وأنتم تعرفون الأسلوب. يطلبون من ستة منجّمين أن يكشفوا حظّ الشخص ذاته، فيحصلون على ستة قراءات مختلفة، ليست فيها قراءة مقنعة. ومع ذلك تعرفون**

**أن المنجّمين الخبراء ينجحون. لا كل مرة – فدائماً تكون تلك الخصيصة على فترات – ولكنها كافية...**

**«وواقعتنا الأساسية ليست إحرازاً متّسقاً للأهداف بأيّة تقنية من هذه التقنيات، وليست عدم إحراز غير متّسق. وليست مخلوطة من أنصاف النتائج التي يمكن أن تكون تخميناً ويمكن ألا تكون. لا، إنها تدوين لبعض النجاحات المتألقة من كل منهج، وغالباً في سلسلة للشخص ذاته، ولكنها دائماً من نموذج غريب – أنت تراها – الآن – وأنت – لا تراها، مع كومة نفايات للإخفاقات المتعلّقة بكل ذلك.**

**«ويتفق معظم المؤوّلين الحديثين للسحر على ماهية السبب الأرجح. ليست التقنية هي السر. والتدريب المشروح، والأعمال الشعورية التي يؤدّيها الساحر، لا تفسّر النجاح الذي يحرزه أياً كان. إنها تركّز ذهنه على الموضوع، أجل. أو ربما تجعله مشغولاً فقط. ويمكن بالنسبة إليه، أن تقوم بهذا أفضل من أي شيء آخر، وقد يكون على حقّ في استخدامها. إلا أن العملية الداخلية الحقيقية، عملية قراءة الشخصية أو التنبؤ بأي شيء، هي شيء... آخر. ويصدق الأمر ذاته على الأعمال السحرية الثانوية لإحداث نتائج، مثل إلقاء الرُّقْية فليس ذلك بسبب أية كلمة من الكلمات التي يتلوها الساحر. وإذا أصاب هدفه ثم أخبركم كيف تمّ ذلك، فمن المحتمل أن يبرر ذلك عقلياً. ويمكن حتى أن يخدع نفسه».**

إذا كانت هذه العملية حقيقية بأية حال، فإنها تفعّل من وراء الوعي الفردي. وتقنية الساحر هي طقس لدعوة ما يقوم بذلك أياً كان. ودعوته ليست أمرَه، ولو أنه يوهم نفسه حتى يعتقد أنه يأمر. وتكون الدعوة مقبولة في بعض الأحيان، ومرفوضة في أحيان أخرى. وإذا عدنا إلى القرن السابع عشر وجدنا مزاولاً لاحت له الحقيقة. إن جون أوبري John Aubrey في كتابته عن العالم الرياضي وليم أوترد William Oughtred، يقول هذا:

**كان منجّماً، ومحظوظاً جداً في إصداره الأحكام في المواليد؛ واعترف أنه لم يكن راضياً إذ كيف حدث أن أمكن لفرد أن يتنبّأ بوساطة النجوم،**

**ولكن ذلك كان يخرج عن الحقيقة كما وجدها غالباً بخبرته؛ فكان يعتقد أنه يساعده جنِّي أو روح ما.**

لقد وصلنا إلى السحر بعيداً عن الحجة المخبرية، حيث على أساس ذلك يجب على الخصوم أن يستخدموا منهجاً مختلفاً في الهجوم – منهجاً يستخدمونه كيفما كان بحذاء الاختبار المخبري، ولكنه يغدو الآن محورياً. والسؤال هو هل تحدث نجاحات السحرة فعلاً، وإلى أي مدى. وغير المؤمنين، عندما يُرغَمون على أن يواجهوا الدليل «المليء بالنوادر» كما يفعلون ذلك أحياناً، يثيرون قوانين الاحتمال. إذا قام منجّم بمائة نبوءة، مثلاً، فإنه سيحرز إصابات عرضية بالمصادفة. وإذا تنبّأ بألف نبوءة فقد يكون من الصحيح بالتفصيل الكافي أن يبدو العدد القليل خارقاً للعادة. وبالرغم ذلك، فالمصادفة هي العامل الوحيد الموجود. وأية فكرة تقول بأن التنجيم يفعل فعله، في أيّة قضيّة كانت، إنما هي ناجمة حصراً عن تذكّر النجاحات القليلة، ونسيان الإخفاقات الكثيرة أو التقليل من شأنها. كذلك هي الحال بالنسبة إلى «دراسة الأعداد وتأثيراتها» وما يقاربها من كل أشكال السحر. وغير المؤمنين الذين لا فائدة لهم من هذه التقنيات لا فائدة لهم من تأثيرات عالم الغيب كذلك؛ وعندما يُحرمون من حجة الاختبار المخبري، يظلّ بوسعهم استخدام حجة الاحتمال. مهما يكن، فهي أشدّ اهتزازاً. ودراسة الأستاذ آيسنك للتنجيم المولدي، المذكورة في الفصل السابق، قد يبدو أنها تضع الأمور على ضوء جديد، ولكن من التعجّل القول ماذا سيكون تأثيرها، وفي الوقت الحاضر علينا أن نسلك السبيل الكلاسيكي.. هل تعمل حجّة الاحتمال عملها.

لا ريب أنها صحيحة إلى درجة ما. ويمكن بيسر أن تتخلّص من حالات أكثر مما تُخفق في التخلص منها. وربما لا تكون النجاحات السحرية في الحقيقة أكثر تكراراً من التوقُّع العشوائي. ومع ذلك ليس من شأنها أن تتَّبع أنموذجاً عشوائياً. إنها تتجمّع، وتلتفّ كالعنقود حيناً من الزمان حول شخص معيَّن، وتأتي جهاراً وتذهب بغتة. ويمكن أن يُدافَع عن قوانين الاحتمال، بمعنى من المعاني، ومع ذلك يستمرُّ السؤال المعبِّر عن الشك.

ولنستشهد بمثال شهير، هوالانطباع الذي انطبع به قرّاء منفتحو الأذهان من نبوءات نوسترادموس Nostradamus. ونوسترادموس [طبيب و] منجّم فرنسي من القرن السادس عشر، نشر /٩٤٢/ رباعيّة تتكهّن بالحوادث المقبلة عبر فترة أربعة قرون ونصف قرن. وجلّ هذه التنبؤات أشدّ غموضاً مَن أن يكون لها معنى يُركن إليه، بطريقة أو بأخرى. والقليل منها يمكن أن يتلاءم مع وقائع التاريخ وهكذا تعدّ متحقّقة. وسيقول المتشكّك، «هكذا تماماً، بالضبط ما يمكن توقُّع حدوثه بالمصادفة». ولكن التنبؤات الصحيحة ليست مما يتم تناوله بمثل هذه السهولة. أولاً، إن انتشارها غريب. وكلُّها، أو كلُّها تقريباً، تتعلَّق بفرنسا أو إنجلترا. ومن التفسيرات الريبية التي خضع لها نوسترادموس هو أنه لم يحرز إصابة بنبوءة ترتبط بأي بلد آخر، ولم يكن ذلك لعدم المحاولة. ثانياً، إن قلة قليلة ليست صحيحة وحسب بل صحيحة على نحو مذهل، في إشاراتها إلى تفصيلات من الصعب أن نتصوّر أن أحداً يخمّنها. ومجرد ملاحظة أنها قلّة قليلة ليس كافياً للتخلّص منها.

لنفترض أن إحصائياً أُنبئ بعدد الناس في حشد من الحشود. فقد يتنبأ بأن زهاء مائة بالغ من الذكور الذين فيه سيقعون في مدى أقصاه خمس أقدام للستة منهم وخمس أقدام للعشرة. ثم قد يثبت القياس أنه صحيح، بل صحيح على وجه الدقّة، بما أن العدد هو مائة فقط. ولكن افترض كذلك أنه قد تبيّن أن خمسيناً منهم كل خمسة في ست أقدام ونصف القدم والخمسين الآخر كل خمسة في تسع أقدام ونصف القدم. سيجري التمسّك بقوانين الاحتمال – مع أن الواقعة الإضافيّة التي ظهرت تتحدّاها برمّتها، وتتطلّب تفسيراً آخر. كذلك هذا ما من شأنه أن يكون مع السحر، ربما ليس غالباً، ولكن في أحيان كثيرة كافية لأن تكون ذات دلالة. فالساحر لا يسحر بنفسه. إن شيئاً ما (كما أفترض) يعمل من غير أن يكون له اتّجاه معيّن من خلاله. إنه قد يمنحه نجاحاً ليس في معظم الأحوال أكثر مما تقودنا المصادفة إلى توقّعه، ولكن النجاح، عندما يأتي، تكون له صفات مميّزة تخفق المصادفة في تعليلها. شيء غيبي قد تدخّل في النظام الطبيعي، ويكون أمامنا ما يمكن أن يوصف بحقّ بأنه معجزة صغيرة.

قبل أن أتابع هذه الفكرة، عليّ أن أضيف أن خبرتي تجعلني متشكّكاً حتى في حجة قوانين الاحتمال. وفي هذه المسألة عليّ أن أقدّم أول مخزون متواضع عندي من تواريخ الحالات الشخصية. إنه مليء بالنوادر، للأسف، ولكن تاريخ حالة في هذا الميدان لا يمكن أن يكون غير ذلك. وعلى الأقل فإن النادرة من مصدر أصلي.

في أوائل كانون الأول ١٩٧٥، دعوت خبيراً في ورق اللعب ليقدّم إليّ قراءة للأشهر الأربعة التالية. كان الخبير «كولن أمري»، وهو شاعر يعيش الآن في نيوزيلندا. أنجزنا الطقس المرسوم لقطع مجموعة ورق اللعب وتوزيعها. قال لي إن لدي خطّة لرحلة طويلة ومُهمة. في كانون الثاني سيتهدّدها الكثير من الشك. سيُحَلّ ذلك، وفي آذار ستتم. وستكون مولودة في ظل برج ناري من منطقة الأبراج معنيّة بها. وفي أثناء ذلك، في كانون الثاني سيجذِب انتباهي مشروع أرخيولوجي، يتعلّق برابية. وقبيل انتهاء مدّة أربعة الأشهر من المحتمل أن أتحول إلى مجال عمل واهتمام جديدين.

كانت هذه هي تنبؤاته الأساسية. وقد تحقّقت كلّها. الرحلة المقصودة إلى أمريكا. وعوامل خارج السيطرة جعلتها مشكوكاً فيها في كانون الثاني، ولكنني ذهبت في آذار. وكان الغرض الرئيسي هو أن أُحاضر في إحدى الجامعات، برعاية أستاذة مولودة في كانون الثاني في برج الأسد، أحد الأبراج النارية الثلاثة. وتمّ تسلّم المشروع الأرخيولوجي كذلك. حيث جاءت في كانون الثاني رسالة من شخص كان يحاول تنظيم حفر في قمّة رابية محصنّة بالخنادق والمتاريس ويعود تاريَخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد، كنت لفتُ الانتباه إليها. وتلت الرسالة شهور من الصمت نسيت في خلالها المُخطّط تقريباً. وجرى تبليغي أن الحفر يتقدّم. أما مجال العمل والاهتمام الجديد فيمكن ربطه إلى حد ما بكتاب لي، كان في نيسان على وشك أن يُنشَر وكانت له نتائج كثيرة.

يمكن أن يكون كولن قد التقط إشارات خفيفة منّي حول بعض ذلك، لا كلّه. فأنا لم أخبره، مثلاً، بتاريخ ميلاد الأستاذة؛ بل لم أذكرها أبداً. ولم أتحدث عن

مُقترح الحفر. وفي الواقع، لم أكن أتذكّر ذلك في أثناء قراءة الآتي، وطيلة كانون الأول. ولم يعد إلى ذاكرتي إلا عندما وصلتني الرسالة.

سوف يقول المُتشكّك: «آه، ولكن لا شكّ أنك اطّلعت على التنبؤ بحظك مرات كثيرة. وأنت الآن تختار المرة التي تبيّن فيها أن التنبؤ صحيح». ليس كذلك. لم أطّلع على التنبؤ بحظي مرّات كثيرة. وعلى ما أتذكّر، فإن قراءة كولن لورق اللعب كانت نبوءة الحظ الوحيدة التي خضعت لها على يدي خبير يزعم أنه ذو صفة متخصّصة. كانت حالة فريدة، وقد تحقّقت.

مهما يكن فإن ذلك لا يستميلني إلى تقويم التقنية بحد ذاتها. فأنا لا أعتقد أن أوراق اللعب تتكهّن بأي شيء، أو حتى، إذا توخّينا الدقة، أن كولن قد تكهّن. فالأوراق قد منحته مدارات للكلام وكانت ولا ريب متكيّفة مع ذلك الغرض. وقد ألّف توزيعه للأوراق وتفسيره لها نوعاً من الهذر مناسباً له، ساعده مهما كانت معرفته بذلك الذي يظهر شكله المحدّد على الانسلال إلى ما دون عتبة الوعي وإحداث أحداث في دماغه.

هل ينطبق الأمر ذاته على الأمور التي هي بالأحرى خارج التفسير النظامي وليست سحرية؟ وماذا بشأن الأعمال اليوغيّة البارعة، والشفاء، والكهانة، والإدراك الذي يعدو الحواس، وليّ المعدن؟ من هو أو ما هو الفاعل الفعلي؟

لا توجد إجابة واحدة. فالقدرات التي هي من نوع غير محدد، والتي هي تحت سيطرة صاحبها بدرجة تزيد أو تنقص، قد تُفسّر بعضها. ومع ذلك ربّما لا تكون هذه القدرات شديدة الإلغاز. إن مدى الفعل النفسي – الجسدي، والإيحاء التنويمي المغناطيسي، وغير ذلك لا تزال معرفته ناقصة. وكما لاحظنا فقد أثبت اليوغيون تحكّمهم في التنفس وفي عمل القلب في المختبر. ولبعض الشافين سجلّ رائع. وفي مثل هذه الأحوال لا يوجد حتى شيء شبيه بالإعجازي... ولكن لا حاجة هنا إلى أي تفسير غير نظامي كذلك. وقد يكون العلماء أكفياء للتحدّي، أو يصبحون كذلك في المستقبل القريب.

والتكهن بعصا الاستنباء أدعى إلى الحيرة. وهو بالمعنى المقيّد التكهّن بوجود الماء، وقد تمّ اختباره وكان الاختبار ذا نتائج متضاربة. وفي تجربة أجراها

العالم النفسي الأستاذ جون كوهن John Cohen سنة ١٩٦٨، تبيّن أنها جيدة إلى حد كاف لجعله يعيد النظر في تشكّكه. فقد دفن خمس صفائح تحتوي على الماء وعدّة أوعية وهميّة. وجاء «المتكهن بالماء» روبرت لفتويتش فعثر على ثلاث صفائح من الصفائح الخمس وأغفل الأوعية الوهمية. والمعروف أن الاختبار الآخر الذي قام به الجيش البريطاني كان سلبياً. وكلا الاختبارين مصطنع إلى حد ما، والتجربة الميدانية العملية هي في صالح المتكهن. والصعوبة هي تفسير ما يحدث ولماذا. وليس ذلك ناجماً عن فضيلة صوفية في قضبان البندق أو الأدوات الأخرى، عندما يقترب المتكهن من أي شيء يركز عليه، فإن الشيء الذي يمسكه يتعرض للفتل، أو الغطس، أو أي عمل آخر، على نحو لا يمكن التحكّم فيه، سواء أكان الشيء قضيباً أم قطعة بلاستيكيّة طويلة مسطّحة أم رقّاصاً أم عصا تدور على مقبض. وعلى حين أن الوسيلة ليس لها صفة خاصة متميّزة، فالشخص هذه الصفة على ما يظهر، ما دام لا يستطيع أي شخص أن يتكهّن: قلّة هي وحدها التي تستطيع، ومقدارها مختلَف عليه.

والتفسير الطبيعي (إذا كان هناك أي تفسير) هو المعرفة اللاشعورية. فالمتكهّن الذي يبحث عن الماء، كالمهندس الذي يبحث عن أنبوب تحت الأرض، لديه إدراك دقيق لما سوف يحلّ بالسطح حين يوجد نبع أو يجري أنبوب في الأسفل. إن معرفته تجري لا شعورياً إلى أصابعه في ردود أفعال عضليّة صغيرة جداً ويضخّمها القضيب أو العصا.

قد يكون الأمر كذلك. ومن المحتمل أنه كذلك في كثير من الأحيان. مع ذلك يتلبّث سؤال مفاده هل هذه هي القصة بكاملها. ههنا أيضاً أستطيع أن أقدم تاريخاً شخصياً. لقد حاولت بنفسي التكهّن مرّتين فقط، في موقع أرخيولوجي. ومرّة أخرى ليس هناك مجال للشك في أنني أختار حالات خاصة قليلة من محاولات عديدة. فهاتان المرتان كانتا المرتين الوحيدتين في حياتي. ونجحت كلتاهما، ولكن بطريقتين مختلفتين جداً.

حملتُ في المرة الأولى عصاً فوق عشب جزء غير محفور من الموقع، أبحث عن حفرة في الطبقة الصخرية السفلى، هي جزء من بناء مُفترض. وتقريباً

في المكان الذي كانت فيه فتلتِ العصا في يدي. وفتلتْ في كل مرة حاولت ذلك. وأظهر الحفر أن الحفرة قد مرت بالفعل في ذلك الموضع. ويمكن أن يفسّر نجاحي بالتوقع اللاشعوري القائم على الاستطلاع الذهني. إلا أن المحاولة الثانية كانت غير ذلك، وأشدّ روعة. كنت أتوخّى أن أقوم بالأمر ذاته في منطقة أخرى – وهو تحديد حفرة الأساس في الطبقة السفلية الصخرية، تحت امتداد العشب حيث لم يحفر أحد بعد. وفي هذه المرة لم يكن المبنى الزائل افتراضياً. فجزء من أساسه قد اكتُشف في المنطقة المجاورة. واجتمع رأي الخبير ورأيي على الإلحاح على أنه لا بدّ أن يكون جزء آخر في مكان ما تحت العشب. مشيت ذهاباً وإياباً فوق الأرض مرة بعد أخرى. وفي هذه المرة لم تفتل العصا، بصورة مقنعة على أية حال. وأخيراً تخلّيت عن الأمر. وبعدئذ كشف الحفر أن مخطط المبنى قد أُعيد بناؤه خطأً. فليست هناك حفرة أساس برغم كل شيء. وبكلمات أُخرى كأن العصا كانت أعرف مني ومن الخبراء البارعين. قال التوقّع إن الحفرة يجب أن تكون هناك. وتمرّدت العصا على التوقع، وتبيّن أنها على حقّ.

كيف عرفتْ ذلك – ولا سيما أن القدرة – إذا وجدت – من المعترف به أنها ليست في الأداة؟ من الممكن أن السلوك المتباين في المرة الأولى والثانية قد كان من قبيل المصادفة، ولكنني تفحّصت الأرض كثيراً جداً بحيث لا أعتقد أن هذا هو المرجّح. ويمكن أن يكون الأمر ناجماً عن قدرة في داخلي شبيهة بالرادار، تعمل من خلال العصا – مرة ثانية، متحدّية ذهني الشعوري. إذا لم يكن أحد الاحتمالين صحيحاً، فمن المحتمل أنه قد سبّب ذلك كيان خارجي ذو معرفة متفوّقة، مدرك لما هو تحت الطبقة العليا للتربة خلافاً لأي إنسان حي... وفي هذه الحالة، كما هي في السحر الناجح، فإن الأحداث أقرب إلى الإعجازي منها إلى ما هو خارج التفسير النظامي. كيفما كان الأمر فمن الواضح لي أن حقيقة التكهّن بالماء غامضة بشدّة. وتسميتها قدرة أو موهبة إنما هي لعب بالكلمات. لا أحد يعلم كيف يجري، إذا جرى. لا أحد يعلم ما هو، إذا كان أي شيء. واليقين الوحيد (هنا من جديد) هو أنه ليس تقنية يمكن أن تُستخدم على نحو يمكن التنبؤ به في كل السياقات، مثل غليان

غلاّية. والتكهّن بالماء لا يحدث شعورياً، إذا حدث. وهو يصيب مع مزاول جيد أكثر مما يصيب مع مزاول رديء، ولكنه لا يحدث باطّراد مع أي شخص. ومرة أخرى يرتاب المرء بوجود التدخّل الغريب الممكن.

وإذا تحوّلنا إلى ما يسمّى خارج التفسير النظامي ذاته – إلى الإدراك الذي يعدو الحواس وتحريك الأشياء النفسي وما إلى ذلك – فإن الانطباع هو ذاته إلى حد كبير ولا يختلف إلا في أنه أشد. وأكبر المجرّبين هو ج. ب. راين من «جامعة الدوق»، في كارولاينا الشمالية. وأظهر العلماء الروس اهتماماً أشد من العلماء الغربيين. مهما يكن، يوجد في كل أنحاء العالم علماء يريدون الاعتراف بالظواهر. ذلك أمر صحيح ومعقول. أما هل يوجد الكثير من الفائدة في التجارب التي كان راين رائدها فمسألة أخرى. والنمط المأثور لاختبار الإدراك الذي يعدو الحواس قوامه توزيع أوراق لعب متنوعة الأشكال الهندسية على عدد من الأفراد، في حين يحاول الشخص المدروس الذي لا يستعين بالحواس أن «يستشعر» أي شكل يكون على أية ورقة [ أو بطاقة ] حين تمرّ، وهناك خمسة احتمالات. والافتراض في هذا الاختبار وكل الاختبارات المتقاربة هو هل يظلّ الشخص المدروس يوفّق على نحو أفضل من مجرد التخمين، وهل لديه قدرات تفوق الحواس، وهل تمّ إثبات شيء ذي طبيعة علمية فيما يتّصل بذلك.

تنشأ عدّة صعوبات. أوّلها هي تلك الصعوبات التي تنشأ من الاختبارات المُسيطَر عليها للتكهّن بالماء – وهي أن الاختبار مُصطنع. فاكتشاف صفائح الماء، المغروزة باحتراس للتشويش، ليس ما يفعله المتكهّن في الممارسة. وإذا كان هناك أشخاص يستشعرون أشياء عن بعد من دون رؤيتها فمن المؤكد أن الأشياء في أي وضع حياتي – حقيقي حيث يستشعرونها ليست أوراق لعب وعليها تصاميم مجرّدة قُلبت في المختبر. وهذا النقد ليس مخاتلة. ففي أوائل تاريخ علم النفس التجريبي، جرت محاولات لدراسة الذاكرة بالقول للأشخاص المدروسين أن يتذكروا مقاطع لفظية لا معنى لها. وكانت الفكرة أنه في حالة انعدام المعنى يكون كل شخص على قدم المساواة وكانت النتائج متشابهة موضوعياً. كانت كذلك،

ولكنها كانت تافهة أيضاً. وقد أحرز البحث تقدّماً طفيفاً إلى أن جاء الأستاذ إف. سي. بارتليت[١] الذي حوّل مجرى البحث بإشارته إلى أن تذكّر المقاطع اللفظية الخاوية من المعنى ليس أمراً يقوم به الناس عادة والاختبارات لا صلة لها بالسلوك البشري الحقيقي. كذلك أيضاً بالنسبة إلى اختبارات الإدراك الذي يعدو الحواس. يسهل علينا أن نقوم بالقياس الكمّي والمقارنة. وهو موضوع، على طرازها. ولكن إذا حدث الإدراك الذي يعدو الحواس بأية حال، بوصفه عاملاً في الحياة العادية، فقد لا يشبه ذلك كثيراً.

مع ذلك، لنفترض أن اختباراً كهذا كان إيجابياً، وأن الشخص المدروس قد وُفّق باطّراد عبر سلسلة من المحاولات. حتى الذين يجرون التجارب ليست لديهم فكرة عن مسألة كيف وُفّق. و«الإدراك الذي يعدو الحواس» هو مجرّد عبارة. فلا توجد نظرية مقنعة تشرح ما هي القدرة أو في أي وسيط تعمل. ولا عمليّة معروفة تفسّر فصل صورة لنفسها من ورقة لعب وطيرانها في الفضاء إلى أحد الأدمغة. ومن ثم، لا يوجد مقدار من الاختبار الذي يطمح في أن يكون علمياً يمكن أن يفعل أكثر من إظهار أن بعض الناس يوفّقون في إحراز أهداف أكثر من العاديين. وتظلّ القدرة غامضة، إذا كانت أي شيء. وواقع الإصابة الكبيرة والمؤيَّدة للمرمى، إذا كانت واقعاً، لا يزال لا يُدخِل الإدراك الذي يعدو الحواس في ميدان العلم، لأنه لا يوجد شيء في العلم تُشَدّ عليه. وكما يلاحظ آرثر كستلر، فقد أصبحت المفهومات العلمية (ولا سيما في الفيزياء) شديدة الغرابة والتعقيد حتى لم تعد توفر أي أساس للنفي؛ وهي غير مُسْعفة في الإثبات، فهي لا تربط.

والسؤال المفيد الوحيد هو هل الواقعة حقيقية أم وهميّة؟ والجواب هو ذاته فيما يتعلّق بالسحر إلى حد كبير، لا القول الصريح «نعم»، ولا القول الصريح «لا». وكان بعض الأشخاص المدروسين يحقّقون إصابات مذهلة، ويبدو أنهم كانوا

(١) هو السير فريدريك تشارلز بارتليت - sir Charles Frederic Bartlet ( 1886 - 1969): عالم نفسي بريطاني، وأستاذ علم النفس التجريبي في جامعة كيمبرج (1931 -1952) كتب حول المشكلات العملية في علم النفس التطبيقي، ولكن أشهر شيء له هو ريادته للمقاربة المكتسبة بالإدراك الحسي والحدس والتفكير لفهم الذاكرة البشرية.

قادرين على أن يحافظوا على نجاحهم العالي مدّة من الزمن، أو أن ينجحوا في الاختبارات نجاحاً كافياً لجعل معدّلهم مرتفعاً. وبعضهم أصابوا المرمى بطرق غريبة غير مُتوقّعة – فمثلاً، باستشعارهم المتكرّر لورقة اللعب قبل أن توزّع حتى صارت الغلبة على مجرّد المصادفة هائلة. وفي اختبار ورق اللعب النموذجي، كان الشخص الذي اختبره الأستاذ برنارد ريس Bernard Reiss من «كلية هانتر» Hunter University في نيويورك، تمّ إجراء ٧٤ ترتيباً لورق اللعب معه في كل ترتيب ٢٥ ورقة لعب وحصل على معدّل ١٨:٢٤ في كل ترتيب. وكانت نسبة التوقع العشوائي ٥. ونظرياً كان على مرتب ورق اللعب أن يستمرّ حقباً زمنيّة طويلة لإحداث أي تشابه مع هذه النتيجة. وفي اختبار أجراه هلموت شميت Helmut Schmidt، تمّت مواجهة أشخاص مدروسين بمصابيح تضيء في ترتيب عشوائي، ويجب تخمين أي مصباح سيضيء تالياً. وكان منهج الترتيب العشوائي غير شخصي تماماً، وفي مجموع ما يقارب من ثمانين ألفاً من المحاولات، كانت نسبة التخمينات الصحيحة لها الغَلَبة بحيث تقدّر بعشرة آلاف مليون مقابل ألف مليون.

ولكن ما من شخص مدروس ممن يدركون من دون استعانة بالحواس قد قام بالأمر بثقة، على الأقل في ظروف يمكن أن نثق فيها بحقيقة الخبر. وإصابات المرمى البارزة، عندما تحدث، قد تكون فوق التوقّع العشوائي بكثير بحيث تجعل فكرة العالم المجهول تبدو لا تقاوَم. مهما يكن، فقد تتوقف إصابات المرمى، أو قد تأتي وتروح وتأتي مرّة أخرى من دون أنموذج مرئي. وكما قال محاضري المتخيّل، متحدثاً عن السحر، فإن المعلومة لا تصيب المرمى باطّراد ولا تخطئ المرمى باطّراد. إنها سجلّ لعدد معيّن من النجاحات المتألقة، غالباً في سلسلة يحقّقها الشخص ذاته، مع كومة نفايات من الإخفاقات في ذلك كلّه. فقد تكون النجاحات أكثر تألّقاً من أن يُستهان بها ولكن الإخفاقات لا تُغفل أبداً. ويصدُق هذا كذلك على نشاطات أشدّ تعقيداً مثل التخاطر[1]. والتخاطر يحدث ولكنه أندر من أن يشير إلى أية مَلَكَة يمكن أن تعرَّف وتُمَحَّص.

---

(١) التخاطر telepathy: هو التواصل بين شخصين بالأفكار والمشاعر والرغائب وما إلى ذلك من دون استعمال الحواس وهو يشتمل على آليات لا يمكن فهمها على أساس القوانين العلمية المعروفة. ويسمى كذلك «التناقل الفكري» transference thought .

وفي الواقع، يواجهنا بصدق أن الكثير مما يُزعم أنه لا يقبل التفسير النظامي يشبه ما يُزعم أنه سحر. يبدو ذلك نوعاً من الإعجازي – نوعاً صغيراً، غير علني، ولكنه يُصادَف على نطاق واسع. وليست للكائن البشري قدرات سرّية من النوع المتَخيَّل. ولكن قد يكون قناة **لشيء ما مجهول** يمكن أن يقتحم النظام الطبيعي ويسبّب الحوادث الاستثنائيّة، مثل عمل الدماغ المُناظِر للتصاميم الكائنة على أوراق اللعب غير المشاهدة. هذه الحوادث شاذة. إنها لا تخضع للسيطرة أو النبوءة. وإذا كان لها منطق، فهو في عالم الغيب ودراستها بطريقة شبه علمية هي إجراء ذو قيمة محدودة. وقد تبيّن أنها تحدث، على الرغم من التفكير الرغبي وبعض الخدع المكتشفة، فمن الواضح أنها حدثت. ذلك مهم، ولكن ذلك كل ما نعرفه.

و«التحريك النفسي للأشياء»، أي القدرة على تحريك الأشياء من دون لمسها، يعدّ عموماً فرعاً آخر لما لا يقبل التفسير النظامي. ويُزعم أنه يوجد أناس يستطيعون أن يؤثروا ذهنياً في سقوط أحجار النرد، بحيث، مثلاً، تحدث رمية الستة [ الشيش ] في أحيان أكثر مما ينبغي. أما الذين يبحثون عن السببية – لما لا يقبل التفسير النظامي أو غير ذلك – ضمن النظام الطبيعي، فإن هذا يقدّم مشكلة أسوأ من الإدراك الذي يعدو الحواس. والحوادث الذهنيّة قد تكون لها قوانينها الدقيقة، ولكن بالتأكيد لا بد لأشياء مثل أحجار النرد أن تخضع للقوانين الكلية للميكانيكا.

ويظلّ التحريك النفسي للأشياء أشدّ غموضاً من أن يُناقش مناقشة تنطوي على أي تأكيد. وقد يصنّف مع الإدراك الذي يعدو الحواس بأنهما صيغة أخرى للإعجازي الصغير (إذا استقررنا على أن ذلك تفسير، وأن النجاح فيه يعطيه معنى مفهوماً). ومن جهة أخرى قد يكون «قدرة» بالفعل في الكائن البشري. ويزعم العلماء الروس أنهم اكتشفوا على الأقل حاذقين في تحريك الأشياء ذهنياً هما «نيليا كولاجينا» و«آلا فينوغرادوفا»، اللتان تستطيعان أن تتسبّبا في تدحرج الأشياء الصغيرة أو انزلاقها على أسطح منبسطة الاستواء عند الرغبة، بدرجة تزيد أو تنقص.

ولكن إذا كان التحريك النفسي للأشياء قدرة، فقد لا تكون من الأمور غير القابلة للتفسير النظامي. إنها قد تكون مثل قدرات يوغي متمكّن على خير وجه.

وهنا فإن أعمال أوري جلر البطولية الذائعة كثيراً لها اهتمام مزدوج. فإلى جانب ما يُفهَم ما فحواه أنه تخاطر في التلفزيون، أقنع جلر الأستاذ جون تايلور من كلية «كنغ» في لندن،أن باستطاعته أن يجعل الأشياء تغيّر شكلها وتجري من دون تماس، وأحياناً بتماسّ ولكن من دون ضغط. وبالرغم من أن تايلور قد قبل أن تأثير جلر حقيقي، فقد نفى أن يكون ذلك مما لا يقبل التفسير النظامي، بمعنى أنه يتملّص من العلم المادي. عندما التوت الملاعق وقفز العصا في المختبر، تحوّلت أفكاره إلى جهة شكل معروف من الكهربائية المغناطيسية التي يطلقها الدماغ. وهذا الرأي تدعمه حالياً دراسات الأطفال الذين يقومون بحيل من النمط ذاته، فيلوون المعدن ويفتلون إبرة البوصلة.

وأكد جلر ذاته أن أعماله البارعة تتمرّد على هذه التفسيرات المادية. ومع ذلك لم يزعم أن لديه قدرات غريبة. واعترف بأنه على اتصال بكائنات علوية في العوالم الأخرى، تعمل من خلاله. كانت هذه هي صيغة خياله العلمي لشيء ما في عالم الغيب. وسواء أكان صادقاً، أم خادعاً ذاته، أم مستحمقاً ماهراً للآخرين (وهي مسألة لا يحلّها فضحه) فقد أظهر علامات على فهم ما من شأن واقعِ ما يسمى فوق التفسير النظامي أن يشبه.

إن افتراض أن المعجزات الصغيرة قد تحدث في أحيان كثيرة، وأن الإدراك الذي يعدو الحواس والتخاطر هما تدخلان من عالم الغيب في نمطية الدماغ العادية، هو استدعاء للرد بأن فكرة المعجزات يجب عدم تتفيهها. والمعجزة من وجهة نظر غربية هي فعل من الله أو من معبود على أية حال. إنها علامة ذات معنى، لا مجرد حيلة. ولها في المخطط المسيحي على الأقل بعد روحاني وترتبط بالقداسة. وعلينا ألا نتصور أن الله، أو أي كائن أعلى، يدبر التخمينات الصحيحة في نماذج على بطاقات اللعب بوساطة أشخاص ليست لهم ميزة غير عادية، وليست لهم أخلاق أو رسالة يُستدل عليها. ولا أن هذه الكائنات لا تهتم بالضرورة إلا بالأمور الكبيرة – فعين الله على العصفور – ولكن ذلك يبدو غير جدير بتخيّلها تسبّب استثناءات في النظام حيث تكون الحالة صغيرة وعديمة المعنى.

والجواب الجزئي هو أن أكثر المعجزات المسيحية تحلّياً بالبرهان عليها هي معجزة الحركة الشمسية في «فاطمة». ويستحقّ التأكيد من جديد أن هذه المعجزة لم يشهدها حشد هائل وحسب (وهو أمر من الممكن أن يكون مبرّراً) بل شوهدت فعلياً في وقت التنبؤ بها (وهو أمر لا يمكن تبريره). وعلى الرغم من أنها لم تكن تافهة مثل تخمين ورقة اللعب فقد قدمت، وما زالت تقدم حتى الآن، صعوبات كثيرة في جوانب الحياة والرؤى والوعود المفضية إليها تتضمّن معنى بوضوح، ولكن لا أحد يناقشه، ولم يشرح أشدّ الكاثوليك ورعاً وتبحّراً في المعرفة ماذا كان المعنى شرحاً مُرضياً. وقد رأى أفعال الشمس العجيبة مؤمنون وغير مؤمنين، وشخصيات جيّدة وسيّئة. وكان المحرّر المعادي للكهنوت أحد الذين رأوها بمنتهى الوضوح، وبرغم أنه اعترف بذلك لم يكن مهتدياً. ومع أنه من الممكن أن يُحل لغز «فاطمة» عاجلاً أم آجلاً، فإن كثافته الحالية هي تحذير من الثقة المفرطة بمسألة أي إله، أو كائن أعلى سوف يحل اللغز أو لن يحلّه؛ أو بلغة اللامات، أية تأثيرات يمكن أن يحدثها الذهن المتعالي أو يمكن ألا يحدثها. من يعرف؟ إن العدد الكبير من إنجازات الإدراك الذي يعدو الحواس المحيّرة وإن كانت ضعيفة يمكن أن يكون مقدّراً، جماعياً، للكفّ عن الانقياد لدوغمائية العلماء. قد تكون الإنجازات تافهة بحد ذاتها، غير أنها تؤلف معاً «علامة» على الفحوى العميق، كما تؤلف كتلة كبيرة من النقاط صورة فوتوغرافية في صحيفة. وليس الافتراض سخيفاً. والمسألة التي تستحقّ التدوين أن معلومات الإدراك الذي يعدو الحواسّ كان لها بالضبط ذلك التأثير في عدد من الأشخاص رفيعي المقام، والمؤثرين، والمدرّبين علمياً: منهم، مثلاً، آرثر كستلر.

وكستلر ذاته، مع تجنّبه للآلهة، مدرك أن السؤال عن المعنى لا مفرّ منه. وهو يربط ما يسمى غير القابل للتفسير النظامي بما يوصف بـــ «التزامنية غير السببيّة» synchronicity. والكلمة من وضع ك. غ. يونغ بالاشتراك مع الفيزيائي فولغانغ باولي Wolfgang Pauli. وهي تُطلَق على المصادفات التي تكون بعيدة الاحتمال جداً في الطبيعة وشديدة الأهميّة بحيث لا يمكن أن يفسّرها سير الأحداث

القائم على الحظ تفسيراً مرضياً. والعلاقة بين الأشياء أو بين أناس معيّنين يُفترض على نحو ما أن تلوي سلسلة العلّة والمعلول وتجمع بينها [أو بينهم] عندما لا يكون من شأن السببيّة النظامية على الأرجح أن تقوم بعملها. فيوجد عامل يتجاوز قوانين الاحتمال، كما هي الحال غالباً في اختبارات الإدراك الذي يعدو الحواس.

يمكن أن يحدث هذا على مستويات متعدّدة من الأهمية. وتوجد مصادفات تبدو وراء الحادثة ومع ذلك ليست لها صلة واضحة بها. ويستشهد كستلر بإحدى مذكرات البيولوجي النمساوي باول كامرر Paul Kammerer. كانت زوجته، وهي تقرأ مجلّة في قاعة الانتظار عند أحد الأطباء، متأثرة بإعادات إنتاج لوحات فنان اسمه شفالباخ، وحفظت في ذاكرتها اسمه، وفي نيّتها أن ترى الأصول. وفي تلك اللحظة انفتح الباب، وصاحت المستقبِلة بالمرضى: «هل السيّدة شفالباخ هنا؟ فهي مطلوبة في الهاتف».

ثم تحدث مصادفات يبدو أن لها معنى، ولكن ليس من الواضح ما هو. ويونغ ذاته يروي نادرة شهيرة:

**إن شابّة، كنت أعالجها، حلمت في لحظة حرجة حلماً أُعطي لها فيه جُعَل ذهبي. وعندما كانت تروي لي هذا الحلم كنت قاعداً وظهري في جهة النافذة المغلقة. فجأة سمعت ضجّة ورائي شبيهة بنقر ناعم. التفتّ حولي فرأيت حشرة طائرة تنقر على زجاج النافذة من الخارج. فتحت النافذة وأمسكت بالمخلوق وهو يسرع إلى الداخل. كان أشبه بجُعَل ذهبي يراه المرء في فسحاتنا، جُعَل من فصيلة الخنافس، جُعَل بريطاني، أحسّ على النقيض من عاداته المألوفة بدافع إلى الدخول في غرفة مظلمة في هذه اللحظة الخاصّة.**

وسواء أكان حضور الجعل له معنى بالفعل أم لا، فإن يونغ، وبشيء من حضور الذهن، سرعان ما أعطاه معنى. كانت المريضة تعيق المعالجة بوجهة نظرها العقلانية بشدة. فناولها الجعل، قائلاً «ها هو جعلك»، وكانت من الزعزعة إلى حد أن مقاومتها انهارت.

وعلى هذا المستوى يمكن أن نأتي بالكثير من المعلومات التخاطرية والقائمة على الإدراك من دون وساطة الحواس. شخصان تتكون لديهما الفكرة ذاتها في

الآونة ذاتها. أو صورة في الدماغ تتطابق مع صورة على ورق لعب. ومن الممكن إبداء الحجة في أنه لم تسبب حادثة في الحادثة الأخرى، وأن كل الصخب حول «القدرة» المرتبطة بذلك هو لعبة استغفال. وعلى نحو ما فإن الصلة ذاتها هي جذر المصادفة، والسبب، إذا كان هو المصطلح المناسب، هو خارج النظام.

وإذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك فإن المقياس هو ملكة القيام بمكتشفات موفقة بالمصادفة، أي البراعة التي يمتلكها بعض الناس في اكتشاف أشياء مفيدة أو وقائع مهمة وهم لا يبحثون عنها. فالاكتشاف يلاحق الشخص بدلاً من أن تجري الطريقة الأخرى. والأبعد من ذلك من جديد هو الحوادث التي يعدّها أصحاب الفكر الديني عنايات إلهية خاصة، وأفعالا من الهداية الإلهية، واستجابات للصلاة، أو بالفعل معجزات؛ مثل «الفرصة» غير المحتملة إلى حد فاحش للقاء الشخص الوحيد على الأرض الذي يستطيع المساعدة في أزمة من الأزمات.

ولو فكرنا في تدخل شيء ما من عالم الغيب في هذا السياق، لبدأت أفكار معينة في التشكل. ومهما كان الـــ «شيء ما»، فإنه يُحدِث أحداثاً لها سيماء الأهمية. فالاستثناءات التي يُدخلها النظام لإحداث هذه النتائج قد تكون في حد ذاتها طفيفة جداً. ومجرد التفكير في الحوادث التي لا تقوم على الحظ يكون كافياً لتخيل أن الشواذ أكثر دقة من أن تُكتشف. و«التزامنات غير السببية» الصغيرة جداً تنزلق إلى الدماغ وتؤدي إلى التخاطر والإدراك الذي يعدو الحواس؛ أو إلى الحالات الذهنية، والإلهامات، والقرارات التي لا يمكن أن تتم على غير هذا النحو. وكل ما يلي ذلك، مهما كان كاسحاً، إنما هو ناشئ عن السبب والمسبَّب اللذين تبرزهما الحادثة الدماغية الصغرى. والنزعة الثابتة في هذه المعجزات الصغيرة هو تدبير علاقة أو مشاكلة، أي حادثة تكون مفهومة وليست عشوائية، ويكون لها معنى. وصورة في الدماغ تشاكل الصورة التي على ورق لعب، والشخص المدروس في الإدراك الذي يعدو الحواس يسجل علامة إيجابية. أو مخترع فقير مدقع ومليونير قادر على أن يموله، لديهما رغبة فجائية في القعود على مقعد واحد في الحديقة العامة في وقت واحد.

وكما لاحظنا، تتفاوت الظواهر عبر مدى واسع في الحجم والأهمية. وإلى الآن يمكن أن نفترض أن هذا التفاوت لا يكمن إلا في النتائج، وأن المعجزات الفعلية التي تحركها هي كلها «صغيرة». ولكن ليست هناك حاجة منطقية إلى ذلك التقييد. واذا أقررنا مرة أنها معجزات على كل حال، فإنه يمكن لنا أن نتسامح في تفاوت الحجم. وبقيامنا بذلك نستطيع أن نوسع المفهوم ليشمل المعجزات بصفة عامة، النوع التقليدي منها وهذه الحوادث. وإذا كان الـــ «شيء ما» من عالم الغيب يمكن أن يُحدِث الحوادث الاستثنائية تحت عتبة الإدراك الحسي البشري فيمكن أن يحدثها فوقه أيضاً، سواء أكانت مفهومة أم لا.

ومن الممكن أن بعض ذلك هو ظواهر الشكل الفكري المعروفة عند الصوفيين التيبتيين. والأقل غرابة هو حالات الشفاء الإعجازية، كما اشتُهرت في «لورد»، حيث يمكن أن تشاهَد حالة جسم المريض قبل الشفاء وبعده. ومن أمثال هذه المعجزات الرفيعة حالات الارتفاع في الهواء المنسوبة إلى القديسين مثل «جوزيف من كوبرتينو». ووفقا للتعليم المسيحي فإن هذه المعجزات مهمة أهمية المعجزات الصغيرة –وأكثر أهمية –ولو بطريقة غير «التزامنية غير السببية».

ونحن لم نفارق الرؤية المسيحية. فالشيء الآتي من عالم الغيب الذي يقوم باستثناءات يمكن، إذا كان ذلك مرغوباً فيه، أن يتماثل مع الإله. وإذا كنا لا نفضل أن نربط الإله بحشد المعجزات الصغيرة التي تبدو طفيفة، يمكن أن نتصور أنه يندب قدرات لتتوسط كائنات هي الأخرى من عالم الغيب مثل الملائكة أو الأرواح. وتظل المعجزات الإنجيلية في ذاتها نسيج وحدها إذا أردناها أن تكون كذلك، لأن المسيح وحده بين البشر كان إلها ووحّد المجالين. وهو وحده يصنع المعجزات حين يشاء، ولا يستدعيها فقط.

وبالفعل، يمكن الآن أن يزول الارتباك في الفكر المسيحي. فقد كانت العنايات الإلهية الخاصة، والاستجابات للصلاة، ارتباكاً على الدوام. ويجزم اللاهوتيون بأن معظمها ليس إعجازياً. ويفسَّر ذلك بأنها تحدث في السير النظامي للأحداث، ولكنها لم تحدث إلا لأن الله قد أثر في ذلك على نحو ما. والمشكلة هي

أن نرى كيف يمكن أن يفعل ذلك من دون السير في طول الطريق- وبتعبير آخر، من دون صنع معجزة. ولو أنه لم يفعل أكثر من حث «س» على الخروج في مسير سيقابل في أثنائه «ع»، فإن شيئاً ما قد حدث في دماغ «س» لم يكن من شأنه أن يحدث لولا عمل الرب، ولذا ليس له سبب طبيعي. إن ذلك استثناء من تأدية الدماغ وظيفته النظامية: أي معجزة، مهما تكن بالغة الدقة، تفضي إلى نتيجة «يُتعجَّب» منها بكل معنى الكلمة. ويبدو أنه لا سبيل إلى تصوير التدخل الإلهي من دون جعله إعجازيا بصراحة. ومع ذلك فتلك هي الطريقة التي يريد اللاهوتيون أن يصوروه بها.

قد يشك المرء في أنهم نجحوا في وقت من الأوقات. إن إجاباتهم عويصة. وكما رأينا في أواخر الفصل الثاني، فإنها تعتمد على حجج حول طبيعة الزمان وكيف يقف الإله خارجها. قد تكون هذه الالتواءات منطقية، إلا أنها أخذت تبدو الآن زائدة عن المراد. والافتراض هو أن المعجزات بالمعنى الأوسع – النوع الذي يحجم المسيحيون بحق عن النشر حوله بإسهاب – ليست المعجزات الوحيدة. إذ يوجد صنف من التدفقات من عالم الغيب أكبر بكثير، هو المعجزات الصغيرة، التي يجب عدم تمييزها منها، ويمكن أن يتوافر لها أكثر التدخلات الإلهية، بوضوح، لأنها يمكن أن تقتصر على الحوادث في الدماغ. وهذه هي الحال غالباً حتى عندما لا يبدو أنه كذلك. وجُعَل يونغ ينقر النافذة عندما كانت مريضته تروي له حلمها. ولكن ربما كانت المريضة قد حُثّت على سرد حلمها في اللحظة التي كان الجُعَل يقترب من النافذة. وكان البحر هادئاً عندما احتاج الجيش البريطاني إلى الهروب من دنكريك. ولكن ربما استجابة للدعاء، حُثّ قواده على اللجوء إلى دنكريك عندما كان البحر هناك هادئاً.

ومن المؤكد أن التشديد المسيحي على المعنى سليم، وهو يرغمنا على مواجهة المسألة الماهوية. ولا ريب أن «التزامنية غير السببية» هي مجرد مصطلح، لا يفسر شيئاً. وحاول يونغ ربطه باللاشعور، وهذه مناورة قليلة الجدوى. فمن العسير جعل أي معنى له من دون التسليم بوجود شيء ما ذي

طبيعة ذهنية خلف الأحداث، وشيء ما أكثر فاعلية وخصوصية من اللاشعور، سواء أدعوناه الإله أم لا. وبدلاً من الإقرار بذلك، سوف ينبذ المتشككون «التزامنية غير السببية» برمتها بتلك الحجة المعبأة ضد قراءة الحظ. «لنسلّم أنك أنت وصديقك القديم هكتور، الذي لم تره عدة سنوات، قد سجل اسمه في الفندق ذاته في هونغ كونغ في المساء ذاته. ولنسلّم أنه لم يسبق لأي منكما أن كان من قبل في هونغ كونغ. ولنسلّم حتى أنه عندما تناولتما العشاء معاً قدم إليك نصيحة غيرت حياتك كلها. ولكنك تقابل مئات الأشخاص في مئات الأماكن. فليس بالمدهش أن يصادف أن يكون لقاء من مئات اللقاءات خاصاً ومهماً. وأنت تلاحظه وتتذكره، وذلك كل شيء».

والطريقة الوحيدة التي يمكن أن أراها، في السياق، للتعامل مع هذا التعليق، للاستدلال بمزيد من الدقة على ما يمكن أن يشبه الفعل المجهول أو الأفعال المجهولة – هو تكويم دليل قائم على النوادر. وقد يعترض المتشكك، ولكنه سيصير واضحاً أن دليل النوادر هو الدليل الوحيد الذي يحتمل وجوده في أي وقت، بطريقة أو بأخرى؛ كما أنه الدليل الوحيد على ما يجري عندما يكتب أحدهم قصيدة... وبرغم ذلك، فالقصائد تُكتب. وهنا عليّ أن أعود إلى خبرتي. وذلكم هو الينبوع للنوادر الوحيدة التي أشعر بالثقة نحوها، لا على أنها براهين رائعة، بل على أنها تواريخ حالات حيث كل الوقائع المهمة هي بحوزتي.

لقد استحوذت عليّ أربع حادثات في حياتي لما لها من فائدة بارزة من وجهة النظر هذه. وأستطيع أن أضيف غيرها، ولكن هذه الحادثات الأربع ملحوظة بوضوح. وليست تافهة. وارتبطت كلها بقرارات كبيرة، كانت لها تأثيرات حاسمة ودائمة. وإذا عدّدتها حسب الترتيب الزمني، فالأولى حدثت في آب ١٩٤٧، والثانية في أيار ١٩٥٥، والثالثة في كانون الأول ١٩٦٤، والرابعة في كانون الثاني ١٩٧٤. وترابطت في باريس، الأولى مع الثالثة، والثانية مع الرابعة. مهما يكن، فإذا فُهمت بالترتيب الذي حدثت فيه، فالقصة تكون أصرح، والمنطق، أو المنطق الظاهر، يكون أوضح.

١- كان صيف ١٩٤٧ فترة ضغط شديد، وكرب، وعدم اتخاذ قرارات. وكان من العوامل الأخرى لاهتمامي بالأمور الهندية، القديمة والحديثة على السواء (هو أن ذلك الصيف كان صيف الاستقلال الهندي)، وبدا لي أن فيها إمكانية مهمة، ولكن لم تتضح طبيعتها. وعندما ناقشت اهتمامي مع أحد اليسوعيين في «فارم ستريت» في لندن، ألح عليّ أن أزور كاهناً من منظمته الدينية ذاتها، هو الأب ويفر، الذي كان مقيماً في الهند ولكنه كان آنذاك في إنجلترا مؤقتاً نتيجة المرض. لم أكن قد سمعت به من قبل، إلا أنني ذهبت إلى المشفى لأراه. وكان بيننا حديث لم يكن منوِّراً بصراحة – غير أنني بُعيد ذلك، وفيما بدا استجابة لبعض الصلوات من أجل الهداية، أتت الرسالة الذهنية إلى زوجتي وإلي في وقت واحد: «اذهب والتحق بالأب ويفر في الهند». في ذلك الحين لم يكن هذا ذا فائدة واضحة أيا كانت. فلم يكن هناك سؤال جدي عن السفر فعلاً، ولا سبب للاعتقاد بأن الأب ويفر يريدني أو يمكن أن يفعل لي أي شيء. لم أقم بأي اتصال آخر به. ولم يبق لي إلا اعتقاد حائر بأن الهند يجب أن تظل في الذاكرة. ولأسباب لن أخوض فيها، كان هذا كافياً تماماً لمساعدتي فيما يتعلق بمشكلاتي المباشرة، ولكن لا أكثر من ذلك. ولم تظهر أهمية الرسالة حتى السنوات السبع عشرة اللاحقة، نتيجة للحالة رقم /٣/.

٢- إن مدار حياتي المهمة بوصفي كاتباً، وبالفعل كل طراز حياتي، قد بدأ بانشغالي بـــ «غلاستنبري»[١] – بأسطورياتها (الآرثرية وغيرها)، وبالتسلسلات الفكرية التي افتتحتها الأسطوريات، وبالإحساس بلغز مقيم يُقصَد له أن ينكشف مرة أخرى. وكان لديّ اهتمام بالحكايات الشعبية من قبل، واشتد تأثري عندما عبرت المكان بالحافلة، ولكنني لم أطأ بقدمي عليه أبداً. وفي أيار ١٩٥٥ كنت في كندا، وكانت غلاستنبري بعيدة، ولم تخطر في البال.

---

(١) غلاستنبري Glastonbury: بلدة في الجنوب الغربي من إنجلترا، في مقاطعة سومرست Somerest. فيها بقايا قرى ما قبل التاريخ الواقعة على البحيرة، ومدفن الملك آرثر ذائع الصيت، وموقع دير بنديكتي، ومن المحتمل أنها أقدم ما في إنجلترا.

وفي العام ١٩٤٧ مارست أزمةُ شك وعدم اتخاذ قرار ضغطها علي. كنت حينذاك أعمل في تورونتو. وشيء ما، لا أتذكر ما هو، أعاد غلاستنبري إلى ذهني. ذهبت إلى «مكتبة تورنتو العامة» لأرى ما فيها حول هذا الموضوع. وأسفر مجهودي عن حصولي على عدة كتب كان من بينها كتاب أو كتابان من المبهم إلى حد الدهشة وجودهما في مكتبة نائية عن إنجلترا كثيراً. وكان من المجموعة كتاب كريستوفر هوليس الأول «غلاستنبري»، وكتاب «إنجلترا». كنت أعرف كريستوفر هوليس ولدي اعتقاد مستغرب هو أنه سوف يبرز في حياتي. (لا أتوقع أن يعلق أحد أهمية على تذكري لـــ «اعتقاد»؛ ولكن قد يطيب للمنجمين أننا – هو وأنا – نشترك في يوم الميلاد ذاته، التاسع والعشرين من آذار.) ولا أعتقد عند تعرفي بهوليس أنني سمعت بهذا الكتاب من قبل. ولدى قراءته، وجدت أنه يذكر نبوءة منسوبة إلى آخر الرهبان الغلاستنبريين، هو «أوستن رينغوود» Austin Ringwode، فحواها أن خراب الدير المهدم لن يدوم إلى الأبد. «سيتم إصلاح الدير وسيعاد بناؤه لأن العبادة المحببة قد توقفت؛ وعندئذ سيتوافر السلام والوفرة زمناً طويلاً».

وجدت الكلمات طريقها إلى نفسي بقوة إلهام، لا لأنني كنت مؤمناً بأمثال هذه التنبئوات، بل لأنها كانت طبق مرامي شخصياً. لقد أعطتني طلباتي. كان من شأن غلاستنبري أن تولد من جديد وذلك ما كان عليّ أن أعمل من أجله. وما دامت الكتابة هي الموهبة الوحيدة التي لدي، فالخطوة الأولى التي عليّ أن أتخذها هي أن أكتب كتاباً عن غلاستنبري. عدت إلى إنجلترا، وزرت المكان، وبعت فكرة الكتاب لمؤسسة آل كولن Collins، الذين هم ناشروه الأصليون. وظهر الكتاب سنة ١٩٥٧ بعنوان «أفالون[1] الملك آرثر» King Arther's Avalon ، وبيع باستمرار وبأعداد كبيرة منذ ذلك الحين. وفي تلك الآونة الحرجة كان من المتعذر أن أذهب وأعيش في غلاستنبري، ولكنني كنت مقتنعاً أنني سأقوم بذلك عاجلاً أم

(١) أفالون Avalon: جزيرة فردوسية في البحار الغربية؛ وفي الأسطورة الآرثرية هي المكان الذي لجأ إليه الملك آرثر عندما جُرح جرحاً مميتاً.

آجلاً. وفي أثناء ذلك تواصلت الزيارات للمكان، وكانت السبل التي أكتشفها تتسع من دون انقطاع، في المجالات الآرثرية وغيرها وينجم عن ذلك المزيد من الكتب.

وبعد البحث والتأمل وانقضاء الزمن لم تبق النبوءة في شكلها الأصلي. وظللت مقتنعاً أنني سأمكث في غلاستنبري وأن نوعاً من التجدد سيحدث هناك، ولكنني تبينت أن عودة ولادة الدير قضية مشكوك فيها وهذا أقل ما يقال، ومن دون الإلحاح على حرفية الكلام وحصريته. وفي ذلك الحين كان كافياً إيلاء الاهتمام للمسألة الرئيسية وكنت ملتزماً. وبالنظر إلى النتائج التي تلت، لم أكن أشك لحظة في أن التزامي كان صحيحاً.

ولكنني عرفت واقعة لافتة للنظر حول الرسالة ذاتها. وعندما قرأت كتاباً بعد كتاب، مستكشفاً تاريخ غلاستنبري وحكاياتها الشعبية، لم أعثر أبداً على أية إشارة إلى أوستن رينغوود أو إلى نبوءته. وأخيراً سألت كريستوفر هوليس أين حصل على القصة. لم يعد متيقناً، ولكنه أشار إلى كتاب سياحي يعتقد أنه استشهد بها. ووجدت أنه لم يستشهد. وأخبرني مؤرخ آخر أن النبوءة قد يعود تاريخها إلى مقالة في مجلة من القرن التاسع عشر، ولكن من دون أن يضيف معلومة أخرى، وأن أوستن رينغوود شخصية مشتبه بها على نحو ما، لأنه لا يوجد تدوين عن راهب في الدير بذلك الاسم. وبكلمات أخرى، فإن الحادثة المثيرة التي أبرزها لي، محدِّداً حياتي بكاملها، (ومحدِّداً إياها بحق)، من المحتمل تماماً أنها مجرد قطعة من قصة رومانسية وتكاد تكون قصة منسية. ومن المؤكد أنها لم تُصوَّر في موروث محلي مقبول. وفي سنة ١٩٥٥، على ما أعلم، فإنها لم تُحفَظ إلا في كتاب واحد، هو كتاب كريستوفر هوليس. حتى هذا قد نفدت طبعته، وهو نادر للغاية؛ ولم أعثر عليه إلا في «المتحف البريطاني». ومع ذلك فإن «مكتبة تورونتو العامة» لديها تلك النسخة؛ وعندما كنت في حاجة ماسة إلى الإرشاد والتحديد، ومستعداً ذهنياً لذلك، كنت في تورونتو وذهبت إلى المكتبة ووجدت الكتاب.

٣- في كانون الأول ١٩٦٤ بدا أن مرحلة العمل الهادف قد انتهت إلى حالة اكتئاب. فناشرو كتابي «أفالون الملك آرثر» وكتبي الثلاثة التالية قد رفضوا

اقتراحين آخرين. ولم أكن أعتقد أن الموضوعات التي تناولتها يمكن أن تتتابع، في تلك الآونة، أكثر من ذلك أبداً. بدا أن الأمور تُطبِق علي، وبعد شهور من الشك لم أستطع أن أرى في أي طريق أمضي بعد ذلك.

وحول عيد الميلاد رأيت حلماً طويلاً معقداً أحسست فيه أن إشارة خفيفة تناضل من أجل الوصول، ولكن بمنتهى الغموض. وفي أحد المشاهد المتعددة الأكثر وضوحاً، كان يقال لمريض بمرض خطير أن يطلب مساعدات من طبيب يدعى بيتر بريدج Peter Bridge.

وفي اليوم التالي، وبمصادفة واضحة، قابلت طبيباً حقيقياً أعرفه قليلاً وقد ظهر بنفسه في الحلم. دعاني إلى داره، حيث التقيت زوجته. وذكرت الحلم وعرفت، أول مرة، أنها محللة يونغية. وقدمت بعض الأفكار. ولم تكن أفكارها لامعة ولكنها هيأتني في طريق جديدة. وأفلحتُ في أن أفسر لنفسي «بيتر بريدج». كانت القصة الإخبارية الجديدة هي زيارة البابا للهند، البابا الذي هو شاغل كرسي «بطرس» [ بيتر ] Peter، وهو الحَبْر الأعظم Prontiff – وكلمة Prontiff كلمة لاتينية يعود أصلها إلى صلة الكهنة بالجسور Bridges التي تقابلها في اللاتينية pontes. وكانت الإشارة هي أنني يمكن أن أحل مشكلاتي وأتقدم إلى الأمام بتُجديد الاهتمام الفعال بالهند، البلد الذي وضعه البابا في مَسطع الشهرة. وبعد أسبوع أو أسبوعين أصبحت هذه الفكرة محددة. وخطر لي أن أتصدى لاهتمام طويل العهد ولكنه هادئ بالمهاتما غاندي. وتبين أن عملي البحثي في غاندي وتركيبة معتقداته وقيمه ومواقفه المرتبطة بالقومية الهندية (نُشر سنة ١٩٦٨) لم يكن مجرد انطلاق، بل كان مفتاحاً لأنماط جديدة من التفكير تتصل بما قمت به، وهو يظهر في كتاب «كاميلوت ورؤية ألبيون[1]».

وليست المسألة هي أنني رأيت حلم «بيتر بريدج»، الذي سيسعد أي عالم نفسي أن يفسره من دون اللجوء إلى تأثيرات من الخارج. المسألة هي أنه بينما

---

(١) «كاميلوت» Camelot في الأسطورة الآرثرية بلدة يقع فيها قصر آرثر وبلاطه. و«ألبيون» Albion هي بريطانيا القديمة أو الشعرية.

كان ذلك جديداً في الذاكرة صادف أن التقيت على غير توقع طبيبي الذي لا تربطني به صلة قوية، والذي كان في الحلم، ومن المحتمل أنني لم أكن أقابله أكثر من ثلاث أو أربع مرات في السنة. ومن خلاله كذلك قابلت زوجته، التي من الممكن أنها كانت (ولو لم يكن لدي فكرة عن هذا) الشخص الوحيد المؤهل في البلدة لإعطائي تفسيراً مهما كانت قيمته.

وكانت للحادثة نتيجة غريبة. فبعد اشتغالي بالبحث في غاندي مدة من الزمن صرت مدركاً لأمرين. أحدهما هو أنه عندما قُدّم إلى المحاكمة سنة ١٩٢٢ قَدّم مهنته على أنه «مزارع ونساج». وهاتان الواقعتان وضحتا الرسالة الخفية في الحالة رقم /١/. وكل العناصر الثلاثة انطبقت على غاندي. فقد كان في «فارم ستريت» [ أي شارع المزرعة] أن جرى التلميح لي بالأب ويفر [ويفر Weaver معناها النساج ]. إن عبارة «التحق بالأب ويفر [ أي النساج ] في الهند» كانت مجرد نوع من اللغة الرمزية يمكن جداً لحلم، أو إلهام شعوري أن يتجمع لإيصال معنى «اهتمَّ بغاندي». كان الأب ويفر وحده هو الشخص الحقيقي، الذي ظهر من مكان مجهول في تلك اللحظة. وعلاوة، ففي العام ١٩٤٧ لم أكن أعرف لقب غاندي «بابو»، ولم أكن أعلم أنه دعا نفسه نسّاجاً weaver – وليس، مع كل ذلك، نوع الوصف الذاتي الذي من شأنك أن تتوقعه منه. إذا لم يكن يعمل إلا لا شعوري، فذلك اللاشعور لم يكن من شأنه أن يدبر مصادفة غير محتملة مع المعرفة ولامع القدرة المطلوبة لإقامتها.

٤- إن الاقتناع بأنه قد أُريد لي أن أعيش في غلاستنبري، وأنني سأعيش فيها في نهاية الأمر، قد استمر لا يعتوره كلل. وفي العام ١٩٧١ انتقلت إلى «بلاند فولد» في «دورست»، وبعد ذلك زرت غلاستنبري زيارات قصيرة في أكثر الأحيان، ولكن لم تكن هناك علامة على أنني سأكون قادراً على السكنى فيها. وفي خلال ١٩٧١-١٩٧٢ كتبت رواية «الأصبع والقمر» The Finger and The Moon، التي تجري حوادثها في دار متخيلة ضمن منظر جبل غلاستنبري وتدار فيها مدرسة للسحر والفلسفة الباطنية.

وكان الشخص الشهير في غلاستنبري هو السيد «ج.س». وقد عاش في دار في المنحدر السفلي للجبل. قابلته مرة أو مرتين في البلدة، إلا أنني لم أذهب إلى داره ولم أعرف شيئا عنه. وفي العام ١٩٧٣ سمعت أنه كان يبيعها وينتقل بعيداً. وأذيع أنه قد لقي مشترياً، وبدا أنه لا معنى لإجرائي أي استعلام عنه، فلم أستعلمه عن شيء. واستمر الشك.

وفي كانون الثاني ١٩٧٤ جاء إلي منتج تلفزيوني هولندي في بلاندفورد قائلاً إنه أراد أن يقدم برنامجاً يحتوي على مراجع للحكاية الشعبية الآرثرية. قلت له إن علينا أن نذهب إلى غلاستنبري، وذكرت معلماً عرفته هناك على أنه شخص يجب أن تجرى مقابلة معه، برغم أنه سيكون الوصول إليه في النهار صعباً. وعندما وصلت البعثة التلفزيونية إلى ما كان حينذاك بيتي، ذهبنا معاً إلى غلاستنبري، ووقفنا عند سفح الجبل. كان الجو ماطرا بشدة إلى حد يستحيل معه التصوير. وبعد مدة خرجت من السيارة بحثاً عن علامات انقطاع في الجو. ووراء السيارة مباشرة كان المعلم الذي أردنا العثور عليه، في محادثة مع السيد «ج. س».

وقدمتُه إلى المنتج الهولندي، وبينما كانا يتحادثان، سأل السيد «ج. س» عن بيعة داره. قال إنه بعد شهر من المفاوضات أخفقت الصفقة، وإنه قد خفّض السعر إلى ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف جنيه. وهذا التخفيض جعل التفكير في شرائها لي أمراً مقدوراً عليه. وطلبت إليه أن يفكر في الأمر، فوافق. وتوقف المطر. بعد أن دام طيلة هذه المدة الكافية لإحداث اللقاء. وعندئذ صعدت بعثة التلفزيون الهولندي الجبل.

بعد بضعة أيام زرت الدار أول مرة لألقي نظرة فاحصة عليها. وأخبرني حينئذ أنها كانت تخص «دايون فورتشن»، الروائية والشارحة للأمور الغامضة التي تعنى بها الخاصة فقط، وأدارتها مدرسةً للسحر والفلسفة الباطنية – مثل داري المتخيلة في «الأصبع والقمر»، وقد اختلقتُها من دون معرفة قبل سنتين.

كان من المؤكد أنه من المغفور لي أن أرى يد القدر بعد سنوات كثيرة جداً. كانت الدار هي الدار المناسبة لي. ولإحداث اللحظة التي عرضت فيها شراء

الدار، يجب أن تتضافر مجموعة كاملة من العوامل – إخفاق المفاوضات (في تلك الآونة بالضبط) حول العرض السابق؛ ووصول فريق التلفزيون الهولندي إلى عتبة بيتي؛ والمطر؛ والحضور المتزامن عند سفح الرابية، على الرغم من الجو، لكل من «ج. س» والمعلم.

ومنذ العام ١٩٧٤ وقدومي إلى تلك الدار، فإن تطورات عدة ناجمة عن وجودي فيها وما تلاه من استخدام لها من أجل نشاطات متعددة، قد سوغت انتقالي تسويغاً مسهباً.

يبدو لي أنه ينشأ اعتباران أساسيان.

أولاً، إن النظرية المتشككة التي تقول بـ «ضربة الحظ الغريبة» تخفق في الإمساك بالماء. يمكن ذلك لو كانت لدي أزمات كثيرة في التردد، وحدث شيء غير عادي في الحالات /١/ و/٢/ و/٣/ لا في البقية. ويمكن ذلك إذا كنت عبر السنين أُدعى إلى الهداية بدرجة تزيد أو تنقص، وأضاعف إمكانياتي بأعمالي – متسكعاً في مكتبات بحثاً عن الفأل، وأحفظ أحلامي وأحاول أن أتذكرها، وألازم سماسرة الدور وباعة الدور في غلاستنبري، إلى أن تسلّم المصادفة المنافع.

على أن الأمر ليس كذلك. فنوع الأزمة الذي يكمن في أساس الحالات ١ / و/٢/ و/٣/ غير متكرر في حياتي. وأستطيع أن أفكر في حالات أكثر، ربما حالتين، لم تأت حادثة خارقة للعادة لتحلها. حتى لو أضفنا كلتا الحالتين تظل الحقيقة هي: عندما حدثت أزمة كهذه، حدثت الحادثة الخارقة للعادة في أغلب المرات. ثلاث من أربع، أو حتى خمس، لا يمكن أن تعد مجرد ضربات الحظ القليلة التي يجري تذكرها.

أما دعوة الهداية، فصحيح أنني كثيراً ما تجولت في المكتبات، ولكن نادراً جداً ما كان تجوالي بنيّة ذلك الهدف. وأنا أهتم قليلاً بأحلامي، وقلما أتذكرها بعد الاستيقاظ. ولم أبذل أي جهد لتذكرها. وتلك التي تتلبث فهي تافهة على الأغلب. ويكاد حلم كانون الأول ١٩٦٤ يكون الحلم الوحيد الذي دونته في حياتي، وقلبت أوجه النظر فيه، وسبرته بجدية بحثاً عن معنى، وهو الوحيد الذي ناقشته مع عالم

نفسي. كان فريدا، ولم يكن مُوشًّى وحسب بل أظهر العالمة النفسية التي أعانتني على معرفة كيف كان ذلك. وفي المرحلة النهائية، رحلة صيد المنازل، كان بالتأكيد لدي وقت طلبت فيه من الوسطاء في غلاستنبري أن يرسلوا إلي بيانات عن الدور المعروضة للبيع، ولكنني لم أعبأ بها ولم أصل إلى مرحلة القول إنني لم أكن أصيد المنازل في غلاستنبري على الإطلاق، بل أحافظ على نفسي متلقّياً فقط. ولأكرر، إنني لم أثر السؤال حتى مع «ج. س». إنه هو ومنزله كانا يندفعان إلي قبل أن أقوم بأي عمل، وعندما حدث هذا لم يكن ذلك مجرد منزل بل وبمنتهى الاستغراب المنزل «المناسب» الذي يمكن أن تعرضه البلدة.

أجد أن الإيمان بنوع من التدخل من عالم مجهول أيسر من نسبة كل شيء إلى المصادفة. ولكن السؤال «تدخل ممن أو ممَّ» يثير مسائل محيرة. أتدخل من الله؟ في تواريخ حالاتي الأربعة، توجد عوائق في طبيعة الحوادث. ولنسلّم أن ثلاث حالات ذات محتوى ديني – اليسوعيون، والدير، والبابا. ولكن ذلك يحتاج إلى مزيد من التأمل في بعض ميولي في ذلك الحين. إنني لا أعتقد أن أنصاف المعجزات المرتبطة بها، إذا كانت ترتبط بها، توحي تماماً بالإله الأعلى.

وهنا يخطر في بالي «الأب ويفر» على أنه شديد الأهمية. فمن جهة، على الرغم من أن ذلك يبدو حيلة من اللاشعور، فلا يمكن أن يكون كله كذلك. فلم يكن في وسعي أن أدبر حضور الأب ويفر، وبالفعل لم أكن سمعت به أبداً، وكذلك تنقصني المعلومات التي تعطيه أهمية عندي. ومن جهة أخرى فهذه الحادثة من المشكوك فيه أن تحمل معنى الإرشاد من الله. وإذا توخينا الدقة لم تكن في الحقيقة إرشاداً أبداً، بل نوعاً من «أمسك ٢٢»[1]. وقد جذبت انتباهي إلى غاندي، ولكن بهذا الأسلوب لم أستطع أن أعرفه، ولا تمكنت من فك شفرة الرسالة، إلى أن قاربت غاندي بطريقة مختلفة، ودرست سيرته دراسة كافية

---

(١) «أمسك ٢٢» Catch 22: وضع تُحبِط الشخصَ فيه مجموعة من الظروف تمنعه من أية محاولة للنجاة. والمصطلح مأخوذ من عنوان رواية الكاتب الأمريكي جوزيف هلر Joseph Heller الصادرة سنة ١٩٦١ والتي أسفرت عن أنه روائي بارع .

لمعرفة شيء عن «بابو»، والعبارة المعروفة قليلاً عن مهنته. كان علي أن أهتدي إلى غاندي لكي اكتشف أنني قد اهتديت إلى غاندي. والله، جل جلاله، يمكن أن يدبر رسالة أفضل من تلك.

أي نوع من قاطني عالم الغيب يمكن تصوره وهو يخطو خطوات شديدة الغرابة؟ ومن دون الإجحاف بالمعجزات التي يصنعها الله، أود أن أشير إلى أن الحوادث الغريبة الكثيرة (كهذه) تبدو عمل كائنات أقل سمواً. وأيا كانت، فإنها تتجاوز الطبيعة المادية ولكن لها حدودها. وهي تعلم أكثر مما نعلم – على الأقل في بعض النواحي – وربما استطاعت من خلال الندب أن تخلق استثناءات في مسير الأحداث، أو معجزات قصيرة إذا لم تكن من المعجزات الطويلة. ولكنها ليست بحاجة إلى أن تكون آلهة. إنني أراها أشبه بالأرواح الحمائية في المأثورات الوثنية، أو ملائكة الحراسة في المسيحية التقليدية. ولكثير منها صلات خاصة بأفراد معينين أو أمكنة معينة. فحيث يكون لواحدة أو واحد منها اهتمام بشخص، فإنها قد تكون (أو فإنه قد يكون) على مقربة شديدة من الشخص بحيث تكون فعلياً ذاته العليا. وكيان كهذا يمكن أن يتدخل في حياة الشخص، لا بالحث والمساعدة، بل بالظواهر التي تتمرد على المصادفة – مثل الإدراك الذي يعدو الحواس، مثلاً – التي تمنحه مظهر امتلاك قدرات لا تقبل التفسير النظامي. وهو لا يمتلكها. إن صاحبه غير المرئي هو الذي يمتلكها ويمكن أن يمارسها أحيانا ولكنه لا يؤمر.

وإذا كانت أمثال هذه الكائنات موجودة، فإن الاستثناءات التي تقوم بها مهمة أهمية الاستثناءات التي يُعتقد بأن الرب يقوم بها. ومعجزاتها، مهما تكن صغيرة، هي أكثر من حيل. ولكنها ليست قادرة على كل شيء أو أي شيء من هذا القبيل. وقد يكون سلوكها غريباً، وغير مألوف، ومحيراً. وقد تكون عاجزة عن بلوغ الغاية كما ينبغي. وقد تحسب أن اللغز أفضل من الوضوح، كما هي الحال مع الأب ويفر. فإذا سئل كيف يمكن لشطحة كهذه أن تؤوّل بوصفها «علامة» أو رسالة، فقد يكون الجواب هو أن الكيان – الملاك الحارس، أو أي مصطلح تستخدمه – لا يقول أي شيء بمقدار ما يشير إلى وجوده، بالنيات طويلة الأمد.

في الوقت الحاضر، ولكنه سوف يلح عليك؛ وسيتراءى لك على الأقل أنه يوجد من هذا أكثر مما يوجد من المصادفة؛ ويوماً ما، عندما تفهم، ستعرف أنه كان موجوداً. وليكن ذلك علامة أو تذكرة. إن عالم الظواهر ليس كل شيء. أنا هنا. وقد تختار أن تعتقد أنني ملاكك الحارس أو قديسك الراعي أو شبح جدك أو «الليدي لك» [سيدة الحظ] فلا يهم ذلك كثيراً، ما دمت تفهم المسألة الرئيسية. وعندئذ يمكن أن تتقدم علاقتنا وتصبح أكثر إثماراً».

# خاتمة

من كل هذا، قد تظهر الآن الملامح المهمة لما يسميه العلماء أنموذجاً.

أولاً، يمكن أن نزيح الكثير من اللغو بالاعتراف بأن الرؤية المرنة صحيحة ضمن مجالها. فالعالم الطبيعي يخضع للقوانين العلمية، على الأقل على مستوى مدركاتنا، والقول بأن هذه القوانين إحصائية وليست جامدة لا يعني طمسها. وبما أنها عبارات «عما يحدث عادة»، فلا يمكن أن تبدي رأياً في المعجزات بطريقة أو بأخرى. فلا يمكن لقاعدة أن تمنع الاستثناءات، ولا يمكن لقانون أن يمنع الحوادث التي تقع خارجه، الحوادث غير المحتملة بصورة غير مقبولة، الحوادث التي ليس لها سبب طبيعي. ولكن الخارق المزعوم – الإدراك غير الحسي، مثلاً، مسألة أخرى. وللعلماء كل الحق في الشك في المزاعم حول القدرات الباطنية، وفي العمليات التي قيل إنها تقع ضمن النظام الطبيعي ولكنها تخضع لقوانين لا يعترف بها العلم. ولعل عدم التصديق مسوَّغ هنا تماماً. ومن المحتمل أن يكون الكائن البشري كما يؤكد علماء البيولوجيا وعلماء النفس إلى حد كبير. فلا يوجد برهان على وجود أي شخص يستطيع تأدية أعمال بارعة في السحر حين يشاء، أو يمارس الإدراك الذي يعدو الحواس بانتظام، بفضل معرفة سرية أو ملكات غامضة في الشخص ذاته.

إنما... علينا ألا نتوقف عند هذا. فالوقائع وقائع. والأعمال السحرية الواضحة براعتها تتم. والإدراك الذي يعدو الحواس يحدث كما يظهر. ويمكن أن نبدأ في تصور هذه الأمور تصوراً صحيحاً بنقل أسبابها إلى الجانب الإعجازي. والغرابات ذات المعنى كثيراً ما يُستَدَلّ عليها في النظام أكثر بكثير مما افترض التعليم المسيحي. ولكن المعجزات الفعلية في جذر هذه الحوادث تحدث عادة في

الدماغ، على درجة أشد ضآلة من أن تُدرَك. نحن لا نرى إلا النتائج، عندما تصل الحوادث الدماغية إلى السلوك الظاهر - السحر الواضح «مثلاً، الإخبار الموفق عن الحظ»، أو الإدراك الواضح أنه لا يستعين بالحواس. أو القرارات الموحى بها، أو الأحداث التي تفضي إلى المصادفات المذهلة. والسلوك الظاهر ليس إعجازياً في ذاته، ولكنه ينجم عن حوادث دماغية هي الإعجازية.

ومصدر كل الاستثناءات في الطبيعة، سواء أكانت على المستوى الصغير كما هي الحال هنا أم على المستوى الكبير كما هي في معجزات الدين، هو علو **الذهن** فوق أدمغتنا المحدودة: ليس فوقها مادياً، بل فوقها في بنية ما يسمى في بعض الأحيان **الفضاء الداخلي**. وأدمغتنا تنتمي إلى النظام الطبيعي، العلمي. ولكن لدينا اتصال متقطع ومتحسس بالمجال الذهني المجهول، الذي يتجاوز ذلك النظام. وهو لا يتجاوزه وحسب بل يمكن أن يبطله أيضاً. وفي درجات مختلفة وعلى مستويات مختلفة، له القدرة على إدخال الاستثناءات في النظام. ويُدخلها. وهو إيجابي وليس سلبياً، ولتدخلاته معنى، فهي ليست نزوات «جنّي الدقدقة والبعثرة[1]».

ومجال الذهن، لقدرته على إبطال عمل الطبيعة، يمكن أن يوصف بأنه فائق للطبيعة. ومهما يكن، فتلك كلمة خادعة. وهو يمكن أن يدعى مجال الإلهي، لأنه إذا كان أي شيء من خلق الله فهو من خلقه أيضاً. ومن جديد فإن الكلمة يجب أن تستخدم بحذر. ولكن إذا أخذنا بهذا التوسع في المعنى، فإن تعريف المعجزة بأنها استثناء مقدر إلهياً يمكن أن يصمد.

ولا يمكن لمفهوماتنا الشخصية أن تُفرَض على ذلك المجال. إذ يمكن أن نتخيل كيانات لصيقة بأفراد البشر هي، في حاصل الأمر، الذوات العليا المرتبطة بهم - الملائكة الحارسة إلى هذا الحد أو ذلك، برغم أنه لا حاجة إلى الاستدلال أنها ملائكية بالصورة المعهودة. وكل كيان يعبر عن ذاته في حياة الشخص المتحالف معه. وهذا يتم غالباً من خلال المعجزات الصغيرة، في الحوادث

---

(١) «جنّي الدقدقة والبعثرة» poltergeist: جني يُعتقد أنه يُظهر حضوره بالدقدقة وإثارة أنواع أخرى من الجلبة وبأعمال الأذى مثل بعثرة الأثاث. والكلمة الإنجليزية دخيلة من اللغة الألمانية في القرن التاسع عشر.

الدماغية التي لا تمكن استبانتها، والتي تتضخم في السلوك الذي لم يكن من شأنه أن يحدث بغير ذلك. وكثيراً ما تقع النتائج الظاهرة تحت عنوان التزامنية غير السببية. والمعنى يبثه في الدفق العشوائي تركيب المصادفات اللافتة للنظر. وأحياناً تأتي هذه إفرادياً كالحوادث التي تحمل رسالة أو تحذيراً للشخص المعني. وأحيانا تأخذ شكل سلسلة من التوافه ذات الأثر التراكمي، كما في شوط طويل من التجارب الناجحة في الإدراك الذي يعدو الحواس.

قد تخلق هذه الظواهر التوهم بالقدرات الخارقة، وهي ظواهر تحدث لبعض الناس مرات أكثر من غيرهم، نتيجة لاتصال أفضل. والذات العليا هي، في الحقيقة، ما يستدعيه السحرة أو ذوو الإدراك المرهف الذي يعدو الحواس. وقد ينجحون في استدعائه، ولكنهم لا يمكن أن يصروا على ذلك. ومن ثم فإن وهم امتلاكهم لقدراتهم نادراً ما يُدعَم. والفلكي وليم أوترد قد فهم المسألة الرئيسية قبل ثلاثمائة سنة.

ويمكن أن تعمل الذات العليا بطرق غير التزامنية غير السببية. فلا يوجد سبب يفسر لماذا يجب ألا تُرى، مثلاً، وهي تساعد على إلهام الشعر أو الموسيقى. ومن المؤكد أنها يجب أن تحث أمثال هذه الحدوس الفجائية، غير المتوقعة، التي تكون في أساس أحوال التقدم الكبيرة والكثيرة في العلم. وهنا فإن ملاحظات الأستاذ «و.هـ. ثورب» W.H.Thorpe، العالم المتميز في علم الحيوان تأتي في محلها. وتظل صحيحة، وهي مكتوبة قبل سنوات.

**لو نظرنا في قائمة الفائزين الجدد بجائزة نوبل لصار واضحاً أن الكثيرين، وربما الأكثرية العظمى، يحققون هذا الفوز بفضلِ وَثَباتٍ كبيرة في التبصر التخيلي؛ وثبات يمكن في الزمن الذي تمت فيه أن يكونَ فيها القليل جداً من الإحساس التجريبي أو القائم على الملاحظة. وتقريباً يمكن للمرء أن يفكر على غير قصد في مفهوم اللولب المزدوج... وميكانيكا الكم... أو التكاملية. كانت كل هذه المفهومات في مستهلها شديدة النأي عن العمل في المختبر. ومع ذلك أدت دورها بما هي نظريات علمية لأنها، برغم أنها تفسيرات تصورية ذات تعميم واسع، كانت قريبة من الواقع الفيزيائي أو البيولوجي إلى درجة كافية تسمح بالتحقق التجريبي.**

**(The Times, January 25 th 1969)**

إن الأستاذ ثورب يسير إلى ما يدعوه الكثيرون من علماء النفس «اللاشعور». وسيكون من المناسب جداً أن نفترض أن الذات العليا بأي اسم لها، والفرد الذي تسير معه، ليسا كائنين منفصلين يرتبطان اعتباطاً، بل هما متحدان على نحو ما، وكذلك «اللاشعور» هو حقاً صورة جزئية وغير كافية للذات العليا. وعلى هذا النحو، فالإنسان (إن جاز التعبير) مثنى، وله مركز آخر للوعي في «الفضاء الداخلي» لما يسمى اللاشعور. وقد نظر يونغ إلى هذا الاحتمال، ولو أنه سرعان ما رفضه. وقد عبّرتُ عنه في رواية «الأصبع والقمر».

والأمر ذاته إلى حد بعيد عبر عنه آخرون بشتى الطرق. والأستاذ «روبرت توكت» Robert Tocquet، مؤلف كتاب «**سحر الأعداد**»، تحدث عن أولئك الناس العجيبين المعروفين بـــ «الحسّابين البرقيين»، الذين ليست لديهم قدرات ذهنية بارزة ومع ذلك يستطيعون أن يقوموا بعمليات جمع جبارة، وأحياناً وهم يواصلون المحادثة، فقال:

**يبدو أن الإجابة الرياضية التي يصل إليها الحسابون البرقيون، أو بمزيد من الدقة أولئك الحسابون الذين تكون حصيلتهم عفوية، هي ما يظهر في ميدان الأفكار الشعورية من عملية نفسية منجزة في أعماق الكائن والتي لا يؤدي الوعي العادي أحياناً إلا دوراً صغيراً جداً فيها.**

**وهذه المنطقة العميقة ليست إلا الروح الحارسة عند سقراط، والفيض عند أفلوطين، والجنّي الكوكبي عند باراسلسوس، والأنا المتعالي عند نوفاليس، والذات غير الواعية عند مايرز، والضيف المجهول عند مترلنك، ووفقا للمصطلح الذي استخدمتُه مراراً، هو «ما تحتَ الشعور» أو «اللاشعور» عند النفسانيين. ولكن يبدو أن «اللاشعور» ليس كذلك لأنه بحد ذاته يفتقر إلى الوعي، بل لأن وعينا العادي لا يفهمه عادة.**

**على أية حال يبدو أن هذا الـــ «أنا» الخافي، الذي يجهله الوعي غالباً، هو مقر تلك الظواهر الغامضة بدرجة تزيد أو تنقص والتي تمتد من الأحلام إلى المعرفة المسبَّقة، عبر مراحل تتضمن الإبداع الفني أو الشعري أو الأدبي، وحدس العبقري، وموهبة الحسّاب، والتخاطر، والإدراك غير الحسي.**

ما دام الحسّابون البرقيون يبدون قادرين على القيام بذلك بانتظام، على الأقل في فترات طويلة قليلاً من حياتهم، فمن المشكوك فيه كم يجب أن تصنف أعمالهم البارعة مع الأعمال البارعة الأخرى. ولكن انسياق الأستاذ «توكت» واضح.

وإذا انتقلنا إلى مستوى «الذوات العليا»، فإن مجال الذهن في **عالم المجهول** يجب أن يتم الاعتراف تماماً بأنه لغز أعمق. والأديان ترسم خريطته وتجعله مصدر المعجزات التي تجزم بها، بمقدار ما تجزم بأي شيء: المعجزات الكبيرة، والاستثناءات المنظورة في الطبيعة، مثل سرطان في مرحلته الختامية وينجلي فجأة. وفي ذلك البلد يمكن، إذا أردنا، أن نحدد مواضع أرواح الموتى؛ والقديسين، والآلهة والملائكة، والأرواح الخبيثة أو الشياطين. وفي ذروة كل هؤلاء – إذا تحدثنا بالمصطلحات اليهودية أو المسيحية – يكون الله؛ وبالمصطلحات الهندوسية أو البوذية، يكون ذلك الذي يُفهَم أنه **الذهن الواحد**، الذي تُستمدّ منه كل الأذهان الأخرى، وتكون كلها متحدة معه، ولو أن الوحدة يحجبها الوهم.

ويشدد التراث الغربي على فرادة الله وصفته الفائقة للطبيعة. ويؤكد أن المعجزات (على الأقل بالمعنى المنظور) هو الذي يقوم بها لا أي كائن آخر، ولو أن الصلوات على كل المستويات قد تستميله للقيام بها، والبشر حتى في هذه الحياة، وهم عموماً القديسون، قد يؤدون إليها ويوجهونها إلى مركز. والتراث الشرقي، عموماً، ينكر المعجزة برمتها، لأنه لا يبين الفروق ذاتها. وهو ميال إلى العجائب إلا أنه يزعم أنها كلها جزء من واقع كلي، وتخضع لنوع من القانون الكوني. مهما يكن، فإنه يضع ذلك القانون خارج النظام الكوني، ولذا فليس الاختلاف شديداً كما يبدو. وبالضبط فإن العجائب ضمن الطبيعة هي استثناءات. ومصدرها هو عالم الغيب، أو المجهول، وبينما قد يؤدي عالم المجهول وظيفته منطقياً، فإن منطقه هو منطقه.

والسؤال حقاً هو لمن سيعمل عمله، وبأية روح. إن صانعي المعجزات الكبار في الحكاية الشعبية الهندوسية قريبون من أن يكونوا سحرة، يحتالون على عالم الغيب بقدراتهم، ويأمرون الآلهة. واستثناءاتهم في الطبيعة ليست مقدَّرة إلهياً، وبمعنى من المعاني، فإن إنكار أنها معجزات صحيح. إلا أن البوذية اللامية تصل بالنوع ذاته من التفكير إلى أبعد من ذلك، إلى موقف ليس شديد البعد عن التفكير

المسيحي. إنها تعلّم، كما رأينا، أن الحاذقين يمكن أن يسببوا، أو على أية حال، أن يُحدِثوا بالمصادفة – تجليات الذهن الواحد الذي يتمرد على التجربة النظامية. وهذه هي الأشكال الفكرية: «التولبات» و«التولكوات». وبصورة غير كاملة قد يبدو الحاذق هو الذي يقوم بذلك بنفسه. ولكن الأشكال الفكرية لها استقلالها الذي يظهر أنه يوجد لديهم أكثر من نشاط «أنا» الحاذق. فعالم الغيب يعمل فيهم. وقد يظهرون عن غير قصد. وقد يحصلون على الحياة بأنفسهم، وينقلبون على الحاذق، ويعيشون بعد موته. وفي صيغة تمرين الـــ «ييدام»، يصل الطالب إلى التنور بفهم أن ما حدث يجب أن يُنظَر إليه على أساس التماثل الذاتي مع الذهن الواحد الذي تنبعث منه كل الأشياء العادية والخارقة للعادة.

وهنا ليس الافتراق عن المسيحية في النظرية كما هو في الموقف. واللاما يعمل في التشكل الفكري بوصفه تمريناً روحانياً. ويحذّر، بالفعل، من صب الكثير من التأكيد على الظواهر عندما تأتي؛ فهي ليست غاية عمله، مهما كانت مهمة لتقدمه؛ وعليه أن يفكر أنها بالأحرى حوادث وليست أعمالاً سحرية بارعة. ومع ذلك فقد يُمضي وقتاً طويلاً في محاولة بلوغ المرحلة التي يتم فيها بلوغ الانسجام الصحيح وتحدث. وإرادته منهمكة. ولا يحاول الصوفي المسيحي القيام بمثل هذا التمرين. وإذا حقق القداسة، يمكن أن تحدث له معجزات. ولكنه يعلم أنها قد لا تحدث، وفكرة تقفّي القداسة مع الرغبة في أن تحدث المعجزات، ولو على سبيل السير خطوة في الدرب، هي إصرار باطل من المرجح أن يحبط ذاته. فمشيئته مُستبعَدة.

مهما يكن، تظل هناك حالة يمكن أن يُعتقد فيها أن الأفكار المسيحية واللامية تتفقان. إن مريم العذراء في العبادة الشعبية التقليدية هي الكائنة البشرية المنسجمة تماماً، التي تستطيع (بالفعل) أن تُحدث المعجزات حين تشاء لأن الله يفعل دائما ما تريد، وعالم الغيب يعمل دائماً من أجلها. وهي بوصفها صانعة عجائب لا تتميز بسهولة من البودهيساتفا الذي يصفه الدلاي لاما لألكسندرا دافيد – نيل – وهو الكائن الحكيم تماماً والشفوق الذي يستطيع أن يعمل في أمكنة كثيرة في وقت واحد، فيسيطر على الظواهر الطبيعية، ويجعل الناس والأبنية وملامح المنظر تظهر وتتغير عند الطلب. وفي قصة مذكورة في الفصل الرابع، فإن ظهور مريم

التي تشغل مكان الراهبة المارقة هو، في حاصل الأمر، «توليا». ولا نكران أنها مُمجَّدة، وهي في العالم الآخر. ولكن مكانتها هنالك ليست امتداداً لمكانتها في الأرض، حيث كانت أم الإله في الفترة التي كانت حبلى فيها بالمسيح، وحيث كان يطيعها وهو غلام وحتى بعدئذ. وتصور بعض الحكايات الشعبية الخرافية، كتلك التي روجتها ماريا داغريدا، أن مريم تصنع المعجزات من خلال حياتها الأرضية.

أجل، حكايات شعبية قد لا تمت إلى الحقيقة بصلة، ولكنها تقلنا إلى السؤال النهائي المتعلق بالوقائع. هل نستطيع أن ننشئ الإعجازي؟ هل في مقدورنا أن نفعل أي شيء لجعل التدفقات من عالم الغيب (الطيبة، حتماً) تحدث على الأرجح؟

في المخطط المسيحي العريق، تم إسقاط هذا على أسس أخلاقية. إن المعجزات عارضة في القداسة، والقداسة، لا المعجزات، يجب أن تكون الهدف. كذلك ما دام الله وحده يصنع المعجزات فإن أي نشدان للمعجزات يتعدى الصلاة منافٍ لإجلال الله؛ إنه محاولة لتسخير الله. على أية حال، فلعل أفكارنا قد امتدت الآن. وأمثال هذه الاعتراضات تنطبق تماماً على المعجزات التي تتحدث عنها سير القديسين المسيحيين، ولكن لا ضرورة لتطبيقها عموماً. ولو اعترفنا بالمعجزات الصغيرة القصيرة في الإلهام والتخاطر، لوجدنا أنه كثيراً ما يقال إنها حدثت للقديسين، ومع ذلك من الصعب أن تبدو متوافقة مع القداسة بأية طريقة ماهوية، أو أن تكون من علاماتها. فقد يكون جوها الأخلاقي حيادياً، وتقفيّها من أجل ذاتها مشروعاً. يضاف إلى ذلك أننا إذا قررنا بأنه تصنعها «الذوات العليا»، مهما كان يُنظَر إليهم، فلا ضرورة أن ينشأ تجديف أو سخف في محاولة تسخير الله. فالأمر كله هو على مستوى أكثر تواضعاً. وعلى ذلك المستوى على الأقل من المؤكد أنه لا ضرر في نشدان الانسجام واستدعاء المعجزات، ما دام المرء متحرراً من أوهام تحقيقه القدرات السحرية.

ولست متيقّناً هل الطموح في الأعلى لا ضرر فيه كذلك. إن تمارين الشكل الفكري عند اللامات يكرره الغربيون – لا مدام دافيد – نيل وحدها – ويبدو أنهم يُحدِثون معجزات على المستوى المنظور، أو أنهم يُغذّون الهلوسات في عدة أشخاص دفعة واحدة، وتلك الأعمال في ذاتها شبيهة بالمعجزات. وتظل «الأشياء

الطائرة غير المحددة» عند روريتش طلسماً مفزعاً. ثم هناك التخمين بأن نظرية «التولكو» تعلل ذلك الانحراف في الاحتمالات التي برهن عليها الزوجان غوكلين، التي تدعم، على ما يظهر، التنجيم المولدي، ولكن قد يكون لها معنى مختلف تمام الاختلاف. وحين يوجد شيء ما هنا، فهو الأشد غموضاً. والحكمة والفلسفة الأخلاقية الغائصة عميقاً، كالحكمة وفلسفة الأخلاق في التناول التجريبي للدواء، عرضة للجدال.

وإذا عدنا إلى الإعجازي الصغير الأكثر أماناً، وكيف يمكن أن يتغذى، فلعلنا نتذكر النظرية القائلة بأن التخاطر وما يجانسه من الظواهر كانا أكثر شيوعاً في المرحلة ما قبل العلمية من مراحل أجدادنا. فعندما تولى السلطة الآلهة الكونيون، وغرست معظم أفكارهم القانونية المتشددة حول النظام في أذهان متعبديهم، فمن المؤكد أن التدخلات من عالم الغيب قد صار يُنظَر إليها على أنها استثناءات تماماً، مع تأكيد أنها كذلك. حتى «الصغيرة» منها لم يعد يُنظَر إليها بتسرع من دون تبصر شأن كل شيء في العمل اليومي. وغلب عليها أن تصبح شعوراً ذاتياً، وشذوذاً، وعرضة للشك. وكان الراؤون والأنبياء في «العهد القديم» شخصيات نادرة يزورها «الروح القدس»، وهي بمنأى عن الناس الآخرين. والشعور المتنامي بالتقييد لا ريب أنه السبب لقلة حدوث أمثال هذه الحوادث، ولصيرورتها، في الجو ذي التوجه العلمي، شديدة التملص بالفعل. وعبر القرون أقامت العادات الذهنية المتغيرة الحواجز. واليوم اشتد ارتفاع تلك الحواجز. والفهم المشترك الزائف والعلمي الكاذب يُطبِق على معظم الناس. ومن الصعب أن يصل إليه عالم المجهول.

إن هذا الوضع يجري تبيّنه على نطاق واسع ويجري التمرد عليه بحق، ولكن يتم ذلك عادة (كما لاحظت الشخصية التي صوّرتها في الرواية) باللجوء إلى العلاجات المريبة مثل الباطنية. الدافع معقول، والحل الذي تتم محاولته دون المعقول. والنهج الحكيم، وهو الأوثق صلة بما جاء هنا، هو ببساطة تخفيض الحواجز؛ وتنشئة الموافقة على أن المعجزات (الصغيرة أو غيرها) **يمكن أن تحدث؛** واستدعاء الذات العليا أو الروح الحارسة التي من المحتمل، على ما يظهر، أن تأتي

منها. وإذا صار عدد كاف من الناس موافقين على ذلك فهذا أمر جيد وسليم يقومون به، ويمكن جداً لمناهج القيام بذلك – كتقنيات التأمل، مثلاً – أن تظهر.

هل لدينا أية إشارة إلى مسألة ما يمكن أن تشتمل عليه مناهج كهذه؟ ربما أنه في مكان ما في أعماق اللغز يوجد عنصر جنسي. وهذه هي بالأحرى مسألة سيكولوجية لا بيولوجية. وبمقدار ما يمكن أن يُحلّ لغز تاريخ الدين، فإن آلهة الانتظام الكوني، الذين عاصروا الاستثنائي، كانوا آلهة ذكوراً. والعصر السابق، الذي كانت فيه الأذهان مستقبلة لعالم المجهول، كان عصراً فيه الربات قويات – فائقات حتى في الأمكنة. وبالنظر إلى التمازج والتداخل بينهن، كثيرا ما فُسّر بأنه عصر «الربة»، الربة النسوية الأبدية في هيئات عديدة. وسواء أكان هذا الرأي صائباً من الوجهة الأنثروبولوجية أم لا، فإنه ذو معنى على المستوى السيكولوجي.

والمسألة المباشرة التي توضح الصفة المميزة لعالم الربة هي أن التدخل من عالم المجهول الذي ندعوه «وحياً» كان على الأغلب يُرمَز إليه بشخص أنثوي: في اليونان «ميوز» Muse، وفي بعض البلدان الآسيوية بـــ «ربة الحكمة». وكانت لياقة هذه الفكرة مستحكمة جداً، في زمن مبكر جداً، إلى درجة أن انتصار الذكر أخفق في إلغائها. وقد تولى «أبولو» المسؤولية عن الشعر والموسيقى من حيث المبدأ، ولكن «ميوز» ذاتها، المنقسمة إلى تسعة وجوه إدارية، لم تَزُل. فاستمرت في الإلهام الفعلي للشعراء والموسيقيين. وإلهة الحكمة الشرقية نجحت في أن تجد لقدمها موطئاً في «الكتاب المقدس» وفي «أبوكريفا[1] العهد القديم». وهي موجودة في «سفر الأمثال» ٨ و٩. وفي «سفر يشوع بن سيراخ» ٢٤، وغيره، تابعة بتأدب لـــ «يهوه» حتماً، ولكنها تظل أنثى وتتطاول بغرابة على حِمى «الروح القدس».

وبدأت المسيحية ديانة ذكرية. وكاليهودية التي نشأت منها جعلت احتكار صنع المعجزات من حق الله. ومع ذلك فقد جرى تعديل على الاحتكار، وإنه لمن

---

(١) «أبوكريفا» Apocrypha: مصطلح يدل على ملحق لـــ «العهد القديم» في ترجمته السبعينية واللاتينية التي جرت في القرن الرابع الميلادي ولكنه غير موجود في الأسفار العبرانية.

المثير للاهتمام مرة أخرى أن نتذكر كيف. فالعبادة الشعبية بوأت مريم أم الإله العرش بوصفها خليفة لكل الربات. صارت الكائنة البشرية الوحيدة التي يُعتقد أنها منسجمة تماماً مع عالم الغيب؛ وقادرة، إن جاز التعبير، على تفعيله حين تريد وتسبب في حدوث المعجزات. ويمكن أن تتجلى للمؤمن؛ ويمكن أن توحي؛ وكانت في بعض الأحيان متماثلة صوفياً مع شخصية «**الحكمة**». لقد انتهينا من كل هذا الموضوع، ودعونا الآن نلاحظ بصراحة ما لم يؤكَّد من قبل، وهو أن الكائن البشري الذي من أجله تزول كل الحواجز كان امرأة.

ومن شأن علماء النفس من مدرسة يونغ أن يستغيثوا بما يسمونه «الأنيمة» anima. ففي الأذهان الذكرية التي حكمت المجتمع طويلاً، يقال إنه يغوص فيها عنصر أنوثي. ويُزعَم أن لا شعور كل إنسان يدمج تجاربه مع النساء مع رغباته فيهن ومُثُله عنهن في وحدة تكون جزءاً مهماً من تركيبه السيكولوجي. والأنيمة هي مصدر الأحلام، والأخيولات، والإبداعات التخيلية، والشخصيات التي في الأسطورة والقصة. ويرى يونغ وتلامذته، فضلاً عن ذلك، أنها جذر أعمق الإلهامات والتبصرات كما هي مفتاح معرفة الذات والتكامل. إنها صيغتهم السيكولوجية لـــ «ميوز»، وأكثر بكثير. و«مريم» ذاتها هي إحدى صور الأنيمة العليا.

وسواء أقبلنا هذه النظرية أم لا، فمن اللافت للنظر أنها تستميلنا إلى المسألة ذاتها بطريقة مختلفة. وإذا خطونا الخطوة الأخرى المقترحة آنفاً، ونظرنا إلى أن اللاشعور (جزئياً) وجه من وجوه الذات العليا في عالم الغيب، نكون بعدُ أقرب إلى تضمينات الأسطورة والدين. وعلى نحو ما، ففي تلك المنطقة، تكون **الأنثى** التي تفتح الباب. أو على أية حال، يرتبط فتح الباب بالنواحي الأنثوية. وقد حاولت اليهودية والمسيحية أن تستبعد هذا العامل، ولكن ضغطه كان بالغ القوة عليهما. وفي البوذية اللامية يظهر العامل الأنثوي بوصفه «شاكتي»، الشريك الأنثوي الذي يصاحب حتى أعلى الكائنات.

وهكذا فرُبَّ حياة أكثر إعجازية تنطوي على بشر في توازن جنسي أفضل، مع العنصر الأنوثي الذي يتمتع بحريته المناسبة. والعكس صحيح، فلو تقدم المجتمع في ذلك الاتجاه، لكان من الممكن أن نأمل في رؤية الإعجازي يتسع بهدوء ويزدهر.

# ببليوغرافيا مختارة


Adams , Henry , *Mont – Saint – Michel and Chartres* . Constable , 1913.

Andrews , George , *Drugs and Magic* . Panther Books , 1975.

Ashe Geoffrey , *The Ancient Wisdom* . Macmillan , 1977.

____ *The Land and the Book.* Collins , 1965 .

____ *The Virgin* . Paladin, 1977.

Astrua,. Massimo, *Illustnated Story of Lourdes.* Trans.Antonia Fumagalli. Catholic Publishing Co., 1975.

Cavendish, Richard, *The Black Arts*. Pan Books, 1969. See also *Man, Myth and Magic.*

David – Neel, Alexandra, *With Mystics and Magicians in Tibet.* John Lane, The Bodley Head, 1931.

Davis, Elizabeth Gould, *The First sex*. Penguin Books,1975.

Dodds, E. R., *The Greeks and the Irrational.* University of California Press , 1951.

Evans – Wentz, W. Y., *The Tibetan Book of the Great Liberation.* Oxford University Press, 1954.

____ *Tibetan Yoga and Secret Doctrine*. Oxford University Press. 1958.

Eysenck, H. J.," Planets, Stars and Personality", in *New Behaviour*, May 29 th, 1975.

Ginzberg, Louis, *The Legends of the jews*. 7 vols. Jewish Publication Society of America, Philadelphia, 1947.

Graef, Hilda, *Mary: a History of Doctrine and Devolution*
. 2 vols. Sheed and Ward, 1963, 1965.
Herolt, Johannes, *Miracles of the Blessed Virgin Mary* Trans. C. C. Swinton Bland. Routledge, 1928.
Kendrick, T. D., *Mary of Agreda*. Routledge & Kegan Paul, 1967.
Koestler, Arthur, *The Roots of Coincidence*. Pan Books. 1974.
Lawton, John Stewart, *Miracles and Revelation*. Lutterworth, 1959.
Lewis C. S., *miracles*. Geoffrey Bles, 1947.
Liguori, St Alphonsus , *The Glories of Mary* . Trans . anon . Redemptorist Fathers , 1852.
*Man ,Myth and Magic* . ( ed . Richard Cavendish ) . 7 vols . BPC Publishing Ltd ., 1970 – 2.
Maraini , Fosco , *Secret Tibet* . Trans. Eric Mosbacher . Hutchinson , 1952 .
Martindale , C. C. , *The Message of Fatima* . Burns Oates & Washbourne , 1950 .
Miegge , Giovanni , *The Virgin Mary* . Trans . Waldo Smith . Lutterworth , 1955 .
Monden , Louis , *Le Miracle , Signe de Salut*. Desclee de Brouwer (Brussel ), 1960.
Moule C. F. D. (ed.), Miracles: *Cambridge Studies in Their philosophy and History*. Mowbray, 1965.
Nostradamus. *The Prophecies of Nostradamus*. Ed. and Trans. Erika Cheetham. Corgi Books, 1975.
Olivieri, A., and Billet, Bernard, *Y a-t-il encoure des Miracles a Lourdes*? P. Lethielleux ( Paris ), 1972.
Ouspensky, P. D., *In Search of the Miraculous*. Routledge & Kegan Paul, 1950.

Richardson, Alan , *The Miracle- Stories of the Gospels*. SCM Press, 1941.

Roerich, Nicholas, *Altai-Himalaya*. Jarrolds, 1930.

____ *Himalayas, Abode of Light*. David Marlowe, 1947.

Taylor, John, *Superminds*. Macmillan, 1975.

Tocquet, Robert, *The Magic of Numbers*. Trans Denis Weaver, Elek, 1960.

Underhill, Evelyn, *The Miracles of our Lady Saint Mary*. Heinemann. 1908.

Walsh, John, *The Shroud*. W. H. Allen, 1964.

West, D. J., *Eleven Lourdes Miracles*. Gerald Duckworth, 1957.

Wilson, Colin, *The Occult*. Hodder and Stoughton, 1971.

___ *Strange Powers*. Random House ( New York), 1973.

Zola, Emile, *Lourdes*. Trans. Ernest Alfred Vizetelly.
Chatto and Windus. 1929.

# جدول المحتويات

الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة









علي مولا

www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

مخصص للمعارض الخارجية الدولية